

محمد قنطر

572

# إبغطة

من ملوك شمال إفريقيا وأبطالها



الباب الأول  
مُسْتَدْرِكٌ  
نَسَائِهِ وَأَوْصَافُهُ

لَمَّا أَقْبَلَ الْفَنِيْقِيّونَ عَلَى افْرِيقِيَّةٍ وَجَدُوهَا أَهْلَةٌ تَقْطُنُهَا  
قَبَائِلٌ عَدِيدَةٌ لَهَا حَضَارَتُهَا وَتَقَالِيدُهَا وَنَظْمُهَا السِّيَاسِيَّةُ . فَلَقَدْ  
أَبْقَى لَنَا التَّارِيخُ أَسْمَاءَ مُلُوكِ أَفَارَقَةَ قَادُوا الْقَبَائِلَ وَحَكَمُوهَا مِنْذُ  
أَقْدَمِ الْعُصُورِ . تَحَدَّثَ الْمُؤَرِّخُ الرُّومَانِيُّ يُوْستَانُ (Justin)  
عَنْ مُلِكِ افْرِيقِيٍّ يَدْعَى يَرْبَاصُ «Iarbas» عَرَفَهُ الْفَنِيْقِيّونَ  
لَمَّا أَلْقَتْ سَفِينُهُمْ مَرَاسِيَهَا عَلَى سَوَاحِلِ شِبْهِ جَزِيرَةِ تُونَسِ (Tunés)  
حَيْثُ أُسِّسُوا قَرطَاجَ . عَلَى أَنَّ مَا قَالَهُ الْقَدَمَاءُ حَوْلَ يَرْبَاصَ  
وغيرِهِ مِنْ مُلُوكِ الْأَفَارَقَةِ حَتَّى الْقَرْنِ الرَّابِعِ قَبْلَ الْمَسِيحِ لَا يَكْفِينَا  
مُؤَوَّنَةٌ إِذَا أَرَدْنَا التَّعَرُّفَ عَلَيْهِمْ وَعَلَى سِيَاسَتِهِمْ . فَلَا نَعْرِفُ  
عَنْهُمْ غَالِباً سِوَى أَسْمَائِهِمْ . أَشَارَ يُوْستَانُ إِلَى مُلِكٍ كَانَ يَسُوسُ  
قَبَائِلَ بَنِي مَآوَرَّ فِي الْقَرْنِ الرَّابِعِ قَبْلَ الْمَسِيحِ ، عَلَى أَنَّهُ لَمْ يَذْكُرْ  
لَنَا اسْمَ الْمَلِكِ بَلْ يَشِيرُ إِلَيْهِ ذَاكِرًا أَنَّ أَحَدَ الْبُونِيقِيِّينَ يَدْعَى حَنْتُونُ  
أَرَادَ التَّسَلُّطَ عَلَى الْحَكْمِ فِي قَرطَاجَ فَطَلَبَ مِنْ مُلِكِ بَنِي مَآوَرِيدَ

يوستاتان ، لكننا نجهل مدى سلطان ذلك الملك واتساع مملكته وعدد القبائل التي كانت تعيش تحت صولجانيه ، كما لم يذكر المؤرخ شيئاً عن الطرق التي كان يتوخاها ملك بني ماور في سياسته الداخلية والخارجية .

وذكر ديودور الصقلي في السفر العشرين من تاريخه ملكاً لوبياً يدعى أيلماس ، لكنه لم يعرف به ولا بمملكته ولا بالقبائل التي كان يسوسها أيام زحف أغتوكلاس (19) «Agathocles» على افريقية في أواخر القرن الرابع قبل المسيح وكان يستهدف القضاء على قرطاج ملكة البحر الأبيض المتوسط ، وعقد أغتوكلاس حلفاً مع الملك اللوبي على حد قول ديودور الصقلي . فهل كان أيلماس ملكاً على قبائل بني ماسيل ؟ وربوعها تتضمن المنطقة الشرقية من القطر الجزائري الشقيق وعلها كانت تمتد حتى مدينة مكسر . على أن النصوص القديمة تثبت وجود المملكة الماسيلية منذ القرن الرابع قبل المسيح وليس في إمكاننا نفي كيانها قبل ذلك التاريخ . فصحت المصادر عن شيء لا يحتم عدم وجود ذلك الشيء . من ذلك نكون قد أخطأنا إذا قلنا بنشأة المملكة الماسيلية في القرن الرابع قبل المسيح . فكل ما يمكننا قوله هو أن أقدم

(19) فيما يتعلق بزحف أغاتوكلاس انظر : B. H. WARMINGTON - Histoire et civilisation de Carthage P. 152 - 164.

ما لدينا من الوثائق حول هاته المملكة يعود إلى ذلك القرن ميماً لا ينبغي ولا يثبت وجودها قبل هذا التاريخ ، وبذلك نكون أدبنا بإخلاص وأمانة عتوى النص القديم . وليس للمؤرخ أن يتعدى حدود النصوص والشهادات . والإخلاص نحو الوثائق أساس كل عمل تاريخي علمي . فعلى المؤرخ أن يتخضع للوثائق وليس له أن يستخرج منها ما لا تحتويه ، وهذه هوة قد يترق فيها المؤرخ إن لم يتشبث بسلطان العقل ويتبعد عما قد يرومه ويتلام مع عقائده وأهوائه . فهذه المؤرخ هو إحياء الماضي قصد فهم الحاضر وسبك المستقبل (20) . ومهما يكن من أمر فالمصادر القديمة - يونانية كانت أو رومانية - لا تكفي لدراسة ماضي الأفارقة وحضارتهم في فجر التاريخ . فكيف كانوا قبل حلول الفينيقيين بينهم ؟ لقد تعسر علينا معرفة ذلك معرفة دقيقة ضافية . إننا لا نشك في وجود حضارة افريقية منذ أواخر الألف الثانية قبل المسيح ، حضارة لها نظمها السياسية وتقاليدها ، ميماً يثبت أن سكان هاته الربوع قد تجاوزوا المرحلة البدائية . فلما حل ركب عليسة بالديار التونسية وجدوا أهل البلاد منظمين عاملين تحت ظل صولجان المنوكية ، ميماً يثب

(20) راجع : J. GALMETTE, la France au moyen-âge - Paris 1942 في مقدمة هذا الكتاب ص. 6 - 12 بين العلاقة الوثيقة التي تربط بين الماضي والحاضر والمستقبل .

بتطورهم في ميادين السياسة والاجتماع . لكنه من العسير أن نفدّر ذلك التطور حقّ ندره . فأصداء ذلك في كتب القدماء ضئيلة ، ولعلّ الذين صنفوا الكتب والرسائل من بين الأفارقة القدامى ذكروا أشياء تعلّق بمجتمعهم القديم ، لكنّ مؤلفاتهم انقضت جميعها . ورد في بعض الكتب الرومانية أنّ الملك يربّ الثاني . وقد تبوّأ عرش بني ماور في القرن الأول بعد المسيح . ورد أنّه صنف كتباً عديدة في التاريخ والجغرافيا (21) . على أنّ الأثريين كشفوا الغطاء على بعض بقايا الحضارة الإفريقية العتيقة . وقد حاول بعض المؤرخين رسم لوحة عن هاته الحضارة على ضوء ما ذكره اليونان والرومان وعلى ضوء المعطيات الأثرية وإن كانت بسيطة متواضعة من حيث مظهرها عسيرة من حيث الاستطاق والتفسير .

على أنّ المعطيات الأدبية والأثرية تشكّلت ابتداء من القرن الثالث قبل المسيح . ولئن تناول اليونان والرومان الحديث حول الأفارقة وأطالوه ابتداء من القرن الثالث فذلك لالشي سوى أنّ الأفارقة لعبوا دوراً عظيماً في الحروب التي شبت بين البونيقين والرومان حتّى كان من العسير على مؤرخ أن يتحدث عن هاته الحروب دون أن يتعرّض للأفارقة . وتعددت كذلك المصادر

(21) يوبا الثاني ملك إفريقي عاش في القرن الأول بعد المسيح وكان أقرب إلى الأدب وتصنيف الكتب منه إلى العرش والسياسة .

الأثرية كالنابات ، ومن أشهرها ضريح دقة ، (22) ويبدو أنّهم شيّدوه لبأوي جثمان أمير نوميدي . ومن تلك المصادر الأثرية نقائش خطّت سطورها بأحرف لوبية يمكنك مشاهدة نماذج منها في معروضات متاحفنا القومية . ومنها نفرد ضربت في المصارف اللوبية وعليها صور الملوك الأفارقة ، وكنت قد أشرنا إلى التي تحمل صورة يوغرطة .

فيبدو على ضوء هاته المصادر المختلفة أنّ مغربنا الكبير كان إذ ذاك منقسماً إلى أربعة أقسام سياسية فالديار التونسية كانت تخضع لنفوذ قرطاج . وإلى جانب الأراضي البونيقية كنت تجد مملكات ثلاث : مملكة بني ماور وكانت تمتد من المحيط إلى نهر الملوية . وتبعها مملكة بني مازيسيل وكانت تمتد من نهر الملوية إلى مدينة سرتة Ciria وإن كانت حدودها الشرقية تميّز بعدم الاستقرار . كانت تقدّم وتقلص حسب الظروف السياسية . وأشهر من تبوّأ عرش هاته المملكة رجل يدعى سيفاكس Sythax (23) . ثم نجد مملكة ثالثة تعيش تحت صولجانها قبائل بني ماسيل ، وتمتد أراضيها من رأس بوقرعون غرباً إلى الحدود البونيقية شرقاً ، وكانت هاته الحدود

(22) انظر : POINSSOT. Les ruines de Dougga. Tunis 1938 . P. 58-61 .  
(23) ملك بني مازيسيل عاش في القرن الثالث قبل المسيح وقد تزوج ثابة بونيقية تدعى سفرتزة ابنة عزربعل تزوجها ثوبليداً للحلف الذي عقده مع صديقه حنبعل .

تتقدّم نحو الشرق وتتقلّص نحو الغرب حسب الظروف السياسية فيبدو أن مدينة مكثّر (24) ، ومدينة الكاف (25) خضعتا إلى سلطان قرطاج حيناً وإلى صولجان بني ماسيل حيناً آخر . وكانت مملكة بني ماسيل تضمّ جبال الأوراس ، وأعظم ملك قبواً عرش بني ماسيل هو بلاريب مستنيساً ونريد أن نقدّمه لكم في الصفحات التالية .

تحدثت المؤرخون القدامى عن مستنيسا عرضاً ؛ ذكروه باعتبار الدور الذي لعبه أثناء الحرب البونيقية الثانية ، (26) وقد يعود الفضل إليه وإلى فرسانه في تفوق الجيوش الرومانية حتى تسلّطت على افريقية . نظر القداماء إذاً إلى مستنيسا من زاوية الحروب التي خاضها ضدّ أهل قرطاج ، فهم لم يذكروه تخليداً لتاريخه وبطلوته . بل اكتفوا غالباً بالحديث عمّا قد يسرّ للقارئ معرفة الحروب التي خاضتها روماً . لذلك لن نجد في الكتب القديمة شيئاً عن منقولة مستنيسا . ولماذا الحديث عنها

(24) انظر : G. PICARD *Civitas Maclitanae in Karthago VIII*, 1958 .

(25) كانت مدينة الكاف تسمى سفة فينيريا . لدينا عنها وثائق اديّة تعود إلى القرن الثاني قبل المسيح حيث ذكرها بوليب أثناء حديثه عن حرب المرتزقين التي شبت ناورها غداة الحرب البونيقية الأولى . أمّا الوثائق الاثرية من بنابات ونقاشس فهي تكاد لا تحصى . تحدث عنها البكري رسالها شفيارية .  
(26) الحرب البونيقية الثانية : اندلعت في عام 219 وانتهت بانتهزام سنبعل في وثمة زامة سنة 201 قبل المسيح وكان قائد الجيوش الرومانية اذالك يدعى شيبون ولقبوه بالانريشي اجلالاً للانصارات التي سجلها بأرض افريقية .

وهي لانفيد شيئاً من حيث مشاركة القائد النوميدي في الحرب البونيقية الثانية ؟ ولا يخفى عليك أن الرومان تحدثوا عن مستنيسا لأن في ذلك وسيلة ناجعة للتباهي بتفوق الرومان على البونيقيين والافارقة أنفسهم . أمّا طفولة الأمير فهي لاتجديهم نفعاً ، ولم تطلأ قدم روما أديم أرضنا إلا بعد أن تجاوز مستنيسا طفولته فلم يعرفه الرومان إلا شاباً يقود طائفة من النوميديين في جنوب اسبانيا ، ثم عرفوه وهو يعمل ويناضل لاسترجاع حقوقه في الملك . أفلم يأمر مستنيسا بتسجيل تاريخه ؟ قد يكون ذلك ! لكن ليس لدينا ما يثبت . على أن المصادر القديمة أشارت إلى أبويه . كان أبوه يدعى غيّة ورد اسمه في النصوص القديمة وفي النقائش اللوية نفسها . وباتفاق النصوص والنقاشس لم يبق للشك مجالاً في هذا الشأن . كان غيّة ملكاً على قبائل بني ماسيل لكننا نجهل متى نبواً عرش الملك ، كما لانعلم شيئاً عن الظروف التي ملكته يتسلّط ويسك الصولجان ، فهو لم يخلف أباه زللكسان . إذ ثبت النقشة اللوية التي سبق ذكرها أن زللكسان كان شافظاً أي قاضياً لا يتمتع بحقوق التاج والصولجان . فهل قام غيّة بتحويل النظم السياسية وأقام دولة ملوكية تسهر على شؤون قبائل بني ماسيل ؟ ويكون بذلك أول من نبواً العرش في الديار الماسيلية . لكن بوليب - وهو مؤرخ يوناني عاش في

القرن الثاني قبل المسيح - يثبت في السفر الخامس عشر من تاريخه وجود المملكة الماسيلية منذ القرن الرابع . من ذلك يرجح أن غية وصل العرش بطريقة شرعية وإن لم يكن خليفة أبيه وذلك لأن نظام الخلافة عندهم يفتتح طريق العرش لمن كان أكبر سناً في العائلة المالكة ، طريقة تشبه التي عهداها لدى العائلة الحسينية في تونس .

كان غية ملكاً في الديار الماسيلية أثناء حرب المرتزقين ، تلك التي خاضها عبد الملقط البرقي (27) «Amilcar Barca» غداة رجوعه من صقلية (28) ، وكان غية من حلفاء البونيقين وأصدقائهم مما جعل قرطاج تعول عليه في النيل ممن عادها . ونراه يؤازر مدينة علبسة ضد سيفاكس ملك بني مازيسيل . بل قد كان يمد إليها يد المعونة كلما دعت الحاجة لذلك . فواضح أننا لانعرف إلا القليل عن غية أبي مسنبا ، أما أمه فقد ورد في كتب زنراس (29) «Zonaras» وكتب سيلئوس إيطالكوس

(27) سميت حرب المرتزقين لأن جنود قرطاج الذين تمردوا غداة الحرب البونيقية الأولى ، أي سنة 240 قبل المسيح كانوا من المرتزقة .  
(28) عبد الملقط هو أبو حنبل ساهم في الحرب البونيقية الأولى وأحمد لأر حرب المرتزقين ثم توجه إلى جنوب إسبانيا حيث قسطن على قبائل الإيبير .  
(29) زنراس «ZONARAS» مؤرخ يوناني عاش في القرن الثاني عشر ميلادياً .

(30) «Silius Italicus» أنها كانت كاهنة تؤمن الطبقات الشعبية بقدرتها على معرفة أسرار المستقبل ويرجح أنها كانت نوميديّة الأصل . ذلك كل ما وصلنا عن أم أعظم ملوك الأناقة في ذلك العصر . فهل تنسب إلى عائلة غية نفسه ؟ أم هي من إحدى العائلات النوميديّة الشريفة ؟ كيف تعرف بها غية حتى علق بها وتزوجها ؟ وهل تزوجها لأسباب سياسية أم كان ذلك من باب المحبة والهوى ؟ تلك أسئلة لا يستطيع المؤرخ الجواب عنها لفقره لمصادر كافية .

فنحن لانعرف متى ولا كيف تزوج غية بهانه الكاهنة وقد منّت عليه بطفل حوالي 238 قبل ميلاد عيسى أي في ظروف كانت قرطاج تقاسي فيها حرب المرتزقين . وسمي الطفل مسنبا . وكبر وقرع في ظروف بكتفها الغموض ، على أنه قضى طفولته وشبابه في مدينة البونيقين حسب . أورده أبيان (31) «Appien» . حتى نما في كنف المبادئ البونيقية وتشبع بحضارة البونيقين كما سناه بعد حين . أما من حيث خلقه فليس لدينا ما يمكننا بمدكم بصورة ذلك الأمير أثناء الفترة الأولى من حياته أي قبل تبوّء

(30) سيلئوس إيطالكوس «SILIUS ITALICUS» شاعر روماني عاش في القرن الأول بعد المسيح .  
(31) أبيان «APPEN» مؤرخ يوناني عاش في القرن الثاني بعد المسيح .

العرش الماسيل . على أن صورته نقشت على نقود ضربت بأمر منه أو بأمر من أبنائه وأحفاده . وتوجد هاته النقود في غالب الدراسات المتعلقة بالمسكوكات النوميديّة ، وقد سبق ذكر المجموعة التي قام بتصنيفها بحثي مزار (32) J. MAZARD بقي العدد السابع عشر من هاته المجموعة نرى صورة الملك مستينا وهو في الأربعين أو الخمسين من عمره . له ملامح معتدلة ويعلم مقلته حاجب "كثيف" ، أما شعره فكان طويلا ، وكانت له لحية طويلة مفرّقة . تلك هي صورة مستينا كما تبدو على النقود النوميديّة . وكثيرا ما نقشت حروف اسمه تحت صورته مما لا يترك للشك مجالا في نسبتها إليه . وكشف الغطاء على نقش في بلاد القبائل بالقطر الجزائري عليه صورة رجل نسبوا إلى مستينا ، على أنه من العسير البت في هذا الشأن إذ عث الدهر بالنقش حتى فقدت الصورة بيانها مما يجعلنا لانطمئن للافتراض الذي أشرنا إليه منذ حين . ويوجد في متحف اللوفر «Le Louvre» رأس صيغ من نحاس ، وقيل : إنه رأس الملك مستينا . لكنه قول لا يمكن الأخذ به بل أصبح من المتأكد أن لاعلانة بين رأس اللوفر وعاهل قبائل بني ماسيل .

(32) فيما يتعلق بالنقود التي ضربها مستينا انظر «J. Mazard» Corpus Nummarum Numidiae Mauritaniaeque Par. 1955.

وإلى جانب هاته المصادر الأثرية ينبغي أن لا نترك ما أورده القدماء في وصف مستينا . فلقد أثبت المؤرخ اليوناني أيسان «Appien» أنه كان جميلا في شبابه طويلا القامة ، وكان قوي البنية مما جعله يثبت في وجه الشيخوخة ويحتفظ بقوته ونشاطه دون مبالاة بتعاقب السنين وطول الزمن . فقد روي أنه كان يستطيع البقاء على متن حصانه طيلة يومه ، كما كان يستطيع قضاء يومه واقفا دون أن يناله التعب . وفي الثمانين من عمره كان يمتطي حصانه قمزا وكان يأبى استخدام السرج بل يركب فرسه عاريا كغيره من النوميديين .

وورد في نصوص بوليب وأبيان وديودور الصقلي وغيرهم أن الملك مستينا كان يستقبل المطر والبرد القارس مكشوف الرأس ، ومما أورده عن قوة بنيت قيادته لجيشه وهو في الثامنة والثمانين من عمره : قاتل طيلة يومه الجيوش البونيقية ، وفي صباح اليوم التالي وجده شبيون واقفا أمام خيمته وبيده رغيغ يابس بأكله . وجاء في نصوص بوليب أنه كان لا يتجاوز ذلك الرغيغ اليابس عند الفطور .

أما من حيث الخلق فقد كان مستينا لا يعرف الخوف ولا يليج الوسواس ضميره . حاكت شخصيته عناصر مختلفة قد تبدو متناقضة لكنها تتحد في صقله وجعله طموحا قادرا على الصمود ، فكان لا يتردد في مجابهة الأخطار إذا كانت



## الباب الثاني مُسْتَنَسَا الْأَمِير

الجرأة طريقاً تدفع إلى الهدف . وله من المثابرة والمرونة في عمله وعلاقاته البشرية ما يمدّه قوة نجعله يسيطر على العقبات ويسود . وكان يتحمل الحرمان والفاقة أيام الحرب ، ولا يخاف التعب والإرهاق ، بل يعيش حياة أبسط الفرسان ، ولعل إيمانه بالنجاح كان يساعده على تحمل الأتعاب والحرمان ، ومما كان يدهش القدماء خضوعه للواقع وملاءمته للظروف فهو يحسن العيش في البادية تحت خيمة بسيطة لا حرس له سوى كلاب ضارية ، كما يُحسِّنُ العيش في قصره عند إقامته بسرقة عاصيته ، حيث كان يُقيم الولائم وتعرض فيها أوان من فضة وكؤوس من ذهب ، ويتسلط فن الموسيقى تعزفها فرقة يونانية على حدّ قول بطليموس إيفرجات (33) . ذلك ما نعرف عن مستنسا من حيث الخلق والخلق ، وقد يكون بعض الشطط والمغالاة فيما أورده القدماء ، ويعسر علينا مراقبة هاته الروايات المبعثرة في كتب مختلفة تعود لأزمنة مختلفة . فلقد قدّمنا لكم في صفحات متواضعة صورة مستنسا كما رسمها المؤرّخون القدامى ، ولعلّ أبحاثاً أخرى سيما في ميدان الآثار تزودنا بما يثري معلوماتنا حول هذا الملك النوميدي ويمكننا من مراقبة المصادر الأدبية .

(33) بطليموس إيفرجات «Ptolemée Evergète» ملك يوناني الأصل . وقد استولى على عرش مصر من سنة 247 إلى سنة 222 قبل الميلاد .

### مسنيسا في شبه جزيرة الإيباز

قضى مسنيسا طفولته بين البونيقيين حسب رواية أبيان السالفة الذكر . وكان ذلك باعتبار الصداقة التي تربط أباه وعائلته بقرطاج (34) . لقد كان غيَّةُ يمدُّ المدينة بالجنود أيام المحنة ، ومنهم من أرسلوا إلى اسبانيا حيث كانت جيوش قرطاج تجابه الكتائب الرومانية تحت قيادة شبيون أثناء الحرب البونيقية الثانية ، وكلف مسنيسا إذ ذاك وهو في الخامسة أو السادسة والعشرين من عمره بقيادة الجنود النوميديين . (35) ومكث الأمير بشبه جزيرة الإيباز من سنة 212 إلى سنة 206 قبل المسيح مع أنه كان يتردد على أرض الوطن لأسباب مختلفة

(34) كانت لغيَّة علاوات متينة تربطه بقرطاج. كان يبذلها يد المساعدة أيام الحرب

STÉPHANE GSELL - *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord* I. III P. 178: انظر:

(35) انظر المصدر نفسه ص. 183 - 184 .

لم يُصارحنا بها التاريخ . فلعله كان يأتيها ليُحرز صفوفه  
بحنود آخرين ولعله كان يأتيها لمهمة سياسية تتعلق  
بمصيره ومطامحه .

وتوفي أبوه أيتام . قامته باسبانيا إلا أن العرش لم يصب إليه  
بل لأحد الذين كانوا أكبر منه سنًا كما تقتضيه قوانين الخلافة  
عندهم . تبرا عرش الملك إذ ذاك أمير يدعى أورقلاس<sup>(36)</sup> ، وكان  
طاعنا في السن وكان قد تزوج من فتاة بونيقية (36) حسب ماورد  
في السفر التاسع والعشرين من تاريخ تيت ليف ، وبدور أنها  
كانت من أقارب حنعل ابنة أخته حسب بعض الروايات . لكن  
سرعان ما توفي أورقلاس<sup>(37)</sup> وكان له ابنان خلفه أحدهما  
باعتباره أكبر أفراد العائلة المالكة سنًا . غير أنه كان عديم  
الجاه لا شأن له بين الأمراء وأعيان القبائل . وتمرد أحدهم  
فبعلا<sup>(38)</sup> وشن عصا الطاعة وكان له من الاتباع والأنصار ما جعله  
يتحدى السلطة الشرعية وينتصدي لجيوش الملك حتى تغلب  
عليه وتله أثناء إحدى المعارك وافشك<sup>(39)</sup> شعارات الملك لكنه  
لم يستطع العرش بل تركه إلى أخ الملك القليل واكتفى أن يكون  
وليًا عليه حتى يحتفظ بكامل مقاييد الحكم .

لاشك أن الأمير المتمرد كان يخاف مستبها وقد أصبح

(36) فيها تعلق بالأسل بين البونيقين والبوسنديين انظر صلوات حرب « بوعرطة »  
الفقرة 78

يتمتع بشرعية الملك بعد موت أورقلاس<sup>(37)</sup> وأنه الأكبر . فلا بد  
إذن للأمير المتمرد من حلف يساعده ويعترف بسياسته .  
فاقترب من قرطاج وكانت تعيش إذ ذاك ظروفًا عسيرة لاتترك لها  
إمكانية النظر في شرعية المتمرد كما لا يمكنها مجابهة سياسة  
المختليين . إن سنة 206 حظيرة حدًا بالنسبة لقرطاج  
ومصيرها . ولأنهم سياسة المدينة البونيقية خلال تلك السنة  
إلا بعد النظر في مجرى الأحداث : لقد انتصرت لجيوش  
الرومانية في اسبانيا . وفي سنة 206 لم يبق البونيقيين فيها سوى  
مدينة تاداس<sup>(37)</sup> . وكانت سنة 206<sup>(38)</sup> يفكر في أن يجمع  
الطرق ليلالتيحاق بأرض إفريقية حتى يضرب قرطاج في  
عقر دارها . لكن كيف العمل ؟ فتيسر لشبيون أن لاسيل إلى  
تحويل الحرب فرق أرض الأمازيغ إن كان هؤلاء من أنصار  
البونيقيين . فقتل التوغثل في هاته السياسة الجريئة كان على  
شبيون إيجاد أنصار فيها ، الأمر الذي جعله يقترب من  
بعض ملوكهم . وكان أعظمهم إذ ذاك يدعى سيفاكيس<sup>(39)</sup> وقد  
بسط يموده على أرض شاسعة تمتد من نهر الملوية إلى مدينة

(37) قانس : مدينة بونيقية لها البونيقيون في متروى الالف الثانية قبل المسيح عن  
سواحل جنوب اسبانيا . كانوا يأثرون شبه جزيرة الألبان سعيًا وراء اقتناء المعادن  
من قصص ومحاسن وقصدير

(38) يتنمي شبيون الإفريقي إلى عائلة من أشرف الرومان . لعب دورا رئيسيا في  
الحرب البونيقية الثالثة .

قسطنطين الحالية ، وأخضع صولحانه قبائل عديدة تقطن  
بتلك لربوع ، وما كان شيون لبجهل الاختلاف لدي شب  
أو قد يشب بين البونيقين وهذا الملك العظيم الطموح . من  
ذلك نراه يتجه إليه لطلب منه ربط علاقات التدون والمودة .  
ولعل شيون لم يفكر في الأمير مسنيسا وكان يشوب أمره  
الغموض . أحل ابن عرش بي ماسيل يعود إليه شرعياً لكن  
الظروف لم تساعد . أما روما فكانت بعيدة عن خصومات  
الأفارقة ولا يريد شيون إلا الجاعة . حتى أنه كان يأبى  
إطالة النظر في الحق والشرعية . ولا شرعية في الحرب سوى  
الانتصار على العدو حسب نظريته الشائعة بين الرومان في  
أبائهم . فما كان شيون يستنى إلا وراء ملك إفريقي يمكنه من  
تكسير شوكة البونيقين . الجاعة هي مقياسه الوحيد ، نراه  
مستعداً للتعاون مع ملك ولوكا من المختلسين ولقد نظرت قرطاج  
إلى الأمور نفس النظرة من نفس الزاوية يتفحص المنظار . كانت  
تشعر بخطر الرومان . وليس التنسؤ بسياسة شيون أمراً عسراً  
فكملاً اكتسحت الجيوش الرومانية شه جزيرة الإيبار أصبح  
من الخنمي أن ينطلق شيون إلى أرض إفريقية ، وتلك سياسة  
تقليدية سبق التفكير فيها منذ رمس مضي . وحاول الرومان  
إنجازها أثناء الحرب البونيقية الأولى (٣٩) . ونش دهمت  
(39) في حرب رغوولوس انظر : ستيان انزال : لصدور السابق : الجزء  
الثالث ص . 79 . 88 .

مساعي رغوولوس أدراج الرياح فذلك لأنه حلّ بأرض الأماقة  
دون أن يكون له بها رجال قبلوا مساعدته . وأنى شيون  
الوقوف في نفس الخطأ . مما جعله يفتش عن يؤازره في  
قطر ليعلم عنه إلا القليل . (40)  
كانت قرطاج تعتم كـ ذلك ، كما كانت تعلم أن  
شيون سوف يتوجه إلى أعظم ملوك الأماقة وقتئذ وهو  
سيماكس . ولعل الرومان كانوا يرون تناقضاً جدياً بين  
سياسة قرطاج وسياسة ملك بني مازيسيل ، وقد شبت حروب  
بين الدولتين . (41) وقد يقرّبه ذلك التناقض من صفوفهم  
فلا شك أن القيادة الرومانية خمنت في ذلك قبل عرض  
صدقتها على ملك بي مازيسيل ، ولا شك أن قرطاج وقعت  
على التخمينات الرومانية لماً تناس كل ما قد يُعيد لها  
عن سيفاكس ، وأرسلت إليه تُبشّر بضرورة التعاون ضدّ  
مشرك . وبذلك تبست أن تضحي بصدق لها وهو الأمير مستنيسا  
ذلك الذي ما امك يقاقل في صفوفها إلى سنة 206 . ضحت  
به تحت وطأة الظروف . كان مستنيسا بعيداً عن العرش وخلص  
الحكم أمير متمرد شجعه سيفاكس رغم التقاليد الشرعية  
فالظروف الخطيرة انتشعبة جعلت قرطاج تساند سياسة الملك

(40) انظر الخريطة

(41) رجع ستيان انزال : الكتاب الآف الذكر الجزء الثالث ص . 178 - 182

الماريسي ، ولعنّها أخطأت لما تجاهلت قوّة احسن\*  
وسُلطانِ الشرعيّة

كان سيفاكيس\* في تلك السنة الخطيرة أي سنة 206  
يسيطر على الوضع في افريقية من نهر الملوية إلى الحدود البونيقية  
لأنّ الأمير المتمرّد كان تحت سيطرته لا يتجاسر على  
سياسة قد تدفّر سياسته وهو الذي سنده ولا يقاء له  
يدونه . فإنّ التحقت جيرش سيفاكس بصفوف الرومان  
تبعنها جيوش الأمير المتمرّد . تلك هي الظروف التي جعلت  
قرطاج تضحي بمسئسيا ومصلحه رغم شرعيّتها ، وباتت  
تتقرّب من سيفاكيس وتعرض عليه صداقتها . طالعة أن  
يتضمّن صفوفه إليها حتى تتمكن من مجابهة الرومان الذين  
يريدون بها وبإفريقية شرّاً .

وشعرّ مسئسيا بالخطر الذي بات يحدق به ، وأيقن  
يخفّياً سياسة قرطاج وتبين أنّها سوف لا تتردّد في  
التضحية به ، فلم يبق له إلاّ الاتصال بفائدة الرومان ،  
وبذكر نيّت ليف أنّه اتّصل فعلاً بالقيادة الرومانية في ربيع  
سنة 206 قبل المسيح أي عدّة أشهر كتاب شيون في  
اسبانيا . فهل وقع اتّصافه بالقيادة الرومانية تحت تأثير ذلك  
الانصراف ؟ وهل أصبح مدّاً ذلك يؤمن بانهمزام قرطاج ؟  
وهل أراد مغادرة صفوف كنيّت لها المزيمة أم هل غادر

قرطاج لما تنكّرت لحقوق الصداقة والشرعية وقلت أن  
تضحي به على أن تنتصر وتحيا ؟ يتعسر علينا الوقوف  
على الحقيقة التاريخية لأنّ المصادر لم تحفظ بالأحداث  
جميعها . لقد ذكرت البعض منها وأطبقت في تفصيلها أحياناً  
لكنّها ذكرتّها حدثاً حدثاً بصفة مقطّعة دون أيّ تنسيق بينها .  
فهني لا تمكّن من رؤية توكّد الأحداث فالأحداث  
لا يضاف بعضها لبعض كما تضاف الأرقام بل يتوكّد  
بعضها عن بعض ، حتى أنّك ترى الحدث سبباً ونتيجة في  
نفس الوقت . فلم ينظر القدماء هاته النظرة التآليفية تجاه  
الأحداث بل كانوا يروّنها مفككة في غالب الأحيان .

فعلّ المؤرّخ أن يتحارز الأحداث المفككة التي قد  
يذكرها القدماء . وعليه أن ينسّق بينها حتى يُعيد للحقيقة  
وجهها الصحيح ، ولكنّ هذا العمل يشترط معرفة الأحداث  
معرفة ضافية مهمّة كثرّت تفاصيلها . فالوقوف على  
الحقيقة التاريخية وغيرها يتوقف أحياناً على معرفة بعض  
الحزبيات الطفيفة . ترون كيف يتعسر علينا تقدير موقف  
مسئسيا حتى قدره لما توخّى ذلك المنعرج في سياسته  
تجاه قرطاج سنة 206 . فهل كانت مواقفه إذ ذك نتيجة تحالف  
قرطاج مع سيفاكس كما يبدو على ضوء بعض المصادر  
الأدبية ؟ نحن لانستطيع البتّ في ذلك ! إذ لا تدري هل كان

منہا پشْتُ بِاحِلَاصِہِ جَو قِرطاح لَو لَمْ تَصِغْ ۛ  
وہمِصاحِہِ .

• مستنسا يتّص بلقياذة الررعنية :

ومهما يكن من أمرٍ بمقد عقد الأمير مستنيسا العزم  
على مخالفة الرومان وهم في حاجة له لإنجاز سياستهم تجاه  
قرطاج كما كان هو في حاجة إليهم لاسترجاع مملكتيه .  
ولم ينقِ إذ ذاك مستنيسا إلا الوقوف في وجه الدين ابتزوا منه  
عرشه وصوبانه ، وبات يدور في عتات تيسر له سحر  
الخدف وليس له في افرقية قوة نساعده إلا بعض الدين أحلصوا  
إليه من بين القائل التوميدية . أما أعداؤه في افرقية فهم  
كثيرون وقد سقط تحت ضرباتهم دواب أن تسرعى مصالنه  
نظر أي كان .

فلا بُدَّ له إذن من حليف ينصره ويمده بيد المساعدة .  
وما إن شعر فتور الويغيس إياه حتَّى اقترب من الرومان .  
وجاء في السفر الثامن والعشرين من تاريخ تيت لیب أن مستبسا  
وقع اتصاله بضابط روماني يدعى سيلانوس <sup>Silanus</sup> «  
في ربيع سنة 206 قبل المسيح أي غداة انتصار الجيوش الرومانية  
في شبه جزيرة الإيبار . ولم تسفر المحادثات من الرجلين على  
نتيجة ملموسة . إلا أن الأمير الوميدي كان يرغب في مقابلة

المركز الثقافي الفرنسي = بيطرايهسى

شبيون نفسه ولم الاتفاق على ذلك بعد الشاور . ولما حان الوقت طلب الأمير من القيدة البونيقية أن تشرح بحسب عهده ينهب حتى لا يفتقدوا نشاطهم ويكونوا دائما على استعداد لمقاومة العدو ومجابهة الطواري فسمح له بذلك . وهي خطة ماحمة مكنته من الاتصال بشبيون دون أن يفقد ثقته البونيقين . ولما قابل شبيون عرض عليه صداقة وأعرب له عن استعداده لمؤازرة الرومان إذ ما حلوا بأرض افريقية . أم شبيون فلا ندرتي هل التزم بوعوده تجاه الأمير . لم تذكر المصادر .

الفائد لروماني قيلَ ما قدّم به مستنيا . وأنّ الرحلين  
تَكدّا عِزاتِ القسم . ولئن قبضت السلطات الرومانية  
عروض الأمير النوميدي ووعوده فالمرجّع أنّها يشت من ملك  
الاريسيل ، ولعلّ شيون ارتضى مستنيب حليفه لبعث ما  
أعرب سيماكس بأفواله وأعماله عن اختياره لقرطاج .

تمّ الاتفاق إحد بين القائد الروماني والأمير النوميدي وعاد كيلاهماً إلى معسكره . وفات سسبسا بترقباً طرولاً تساعده على مغادرة سسانا والاتحاق بأرض وطنه ومملكته . ويبدو أنه عتتم فرصة غياب القائد البونيقي ليأخذ طريق العودة حفية ، وكان ذلك في خريف سنة 206 وذكر تيت ليف أنه اتصل بأنباء من أرض الماسيل جعلته يسرع بالعودة ،

وجاء في تاريخ<sup>٤١</sup> بيان أن القيادة ابونيقية كانت على علم برجوع الأمير إلى أرض وحنه فأرسلت صحبته فرساناً أمرتهم باغتياله أثناء الطريق على أن هد الخبر مشكوك فيه بتناقض مع مجرى الأحداث .

#### • مستنيسا يعود إلى افريقية :

غادر مستنيسا مدينة قانس متجها نحو افريقية وحل<sup>٤٢</sup> بمملكة بني ماور (42) وطلب من عاهلها يد المساعدة فوضع تحت تصرفه حرسا بعد ألف رجول . ويفضلهم نجاور بمملكة سيفاكس وأدرك أرض أبيه حيث وجد<sup>٤٣</sup> ثلة من الذين بقوا إليه مخلصين . على أنهم كانوا أقل عددا مما كان ينتظره الأمير . وما كان ذلك ليُعْرِضَهُ للقنوط والاستسلام . بل كان يؤمن بالنجاح رغم تواضع إمكانياته العسكرية وكان يأمل أن يدفع نجاحه النوميديين إليه فيلتفتوا حوله ويقابلوا في صفوفه .

وفي تلك الظروف كان عدوه الذي احتل عرشه فاصداً مدينة سيرة لزيارة سيفاكس فارتدى عليه مستنيسا فتجاء<sup>٤٤</sup> وقتل الكثير من جنده ولاد<sup>٤٥</sup> المتمرد بالفرار حتى أدرك عاصمة سيفاكس .

(42) سوف يعود إلى ذلك عند حديثنا حول مستنيسا

وكان لانتصار مستنيسا صدغى عظيم بين قبائل الماسيل حتى كان النوميديون يقبلون عليه أفواجا يمززون<sup>٤٦</sup> صفوفه طالين أن يسترجع الأرض التي كانت تعيش تحت ظل أبيه . وانتصر ثانية على المتمردين وتمكن من الاستيلاء على العرش لكنه نأى يخاف شر<sup>٤٧</sup> سيفاكس وهو أدهى وشركه أقوى . فلجأ إلى طرق سياسية طلبها ناجعة حيث أرسل لابن عمه يطلب منه تجاوز صفحة الماضي وتسامحا فعلا<sup>٤٨</sup> ، كما أرسل للأمير المتمرد صنيعة سيفاكس ووعد<sup>٤٩</sup>ه بالخلم وبإعادة أمواله ، وتم الوفاق فعلا رغم المساعي ابونيقية المعادية .

أما سيفاكس فلم يُعير اهتماماً لما جرى بين أمراء الماسيل ، ولعلته قبل الأمر المقضي ، لكن قرطاج أرسلت إليه تشير إلى الخطر الذي يتضمنه انصباب مستنيسا على عرش بني ماسيل ، مذكرة<sup>٥٠</sup> أنه سوف لن يكتفي ذلك الرجل الطموح بأرض أبويه بل ستراه بعمل على توسيع أراضيه ، وفي ذلك خطر على قرطاج ، وفيه خطر على ملك بني مازيسل . فالتقضاء على طموح مستنيسا أمر بات حتمياً . واقتنع سيفاكس بالنظرية البونيقية وشرع في مطاردة مستنيسا واكتساح الأراضي الماسيلية ، وانهزم الملك النوميدي وترك العرش ولاذ بالفرار صعبة نفر من فرسانه وتحصن بجبل يشرف على مدينة

هيون (43) وهي مدينة عذبة الجرائبة . على أن المؤرخين لم يتمقوا على صيد موقع ذلك الجبل ، وقد سمّاه تيت ليف في كتابه التاسع والمشرّبين جبل بلّوز . (44) قيل : إنه على مقربة من الحدود البونيقية إذ دالك وكان قريباً من البحر يشرف على سهول فسيحة يشقّها نهر كسر . ولعنّ النهر هو محردة والسهول توافق سهول جندوية وبوسالم . وتمكّن مستيسا وأبصاره من اللقاء في تلك المنطقة لخصانة جيّالها ووفرة مروجها ومياهها الخندفّة .

وكان رفقاء الملك انشريد يترّلون ليلا على الأراضى البونيقية يهالون عليها نهيا وتخزيها ممّا كبّد ابونيقين حسائر فادحة ، فطلبوا من سيفاكيس أن يتّصّح حداً لأعمال مستيسا ورفقائه ، فأرسل أحد ضباطه وبدعى بوكار على رأس جيش يعدّ 6000 رجل من مشاة ومرسان مهمته أن يأتي برأس النومبيدي . وانطلق بوكار نحو جبل بلّوز وسقط عدد كبير من رجال مستيسا وأموالهم تحت قصته . ثم أخذ بطارد الملك ورفقائه إلى أن بعوا قسمة اجل فطنّ بوكار أن لا فائدة

(43) ميون مدينة بالقطر الجزائري النقي وهي عانة الحالية انظر مثلا .

ERWAN MAREC, *Hispanie la Royale, Antique Hippo-Regius*, Alger 1954.

(44) فيما يتعلق بجبل بلّوز انظر : CH. TISSOT et S. REINACH :

*Geographie comparée de la Péninsule romaine d'Afrique* T 1 P 28.

في متابعتهم فأشار على معظم جيشه بالعودة ولم يترك لديه إلا كتيبة ليطارد بعض الذين نزلوا من جبل بلّوز .

ولمّا كان يحاصروهم تمكّن مستيسا ورفقائه من الفرار وقد توجّسوا سبلاً عسرة لكن سرعان ما التحنّ بوكار بهم بطردهم حتّى بلغوا بهراً عطيب ، فأبقى الفارّون بأنفسهم فيه وجرتهم المياه وهناك ثنان مهم ، وكان جنود بوكاريظرون إليهم واعتقدوا أن لافترّ مستيسا من الهلاك ولا فائدة في اقتحام حطرمياه . وعاد بوكار وأحاط سيفاكيس علماً بموت ملك الماسيل وشاع النبأ وبلغ قيرطاج ، عى أن الحقيقة كانت عكس ذلك .

فقد خرج مستيسا ورفقائه من رهائه سابين . وأدركوا صيفّة النهر رغم غزارة المياه الجارفة . خرجوا وتواروا بين الأعشاب ثم لجؤوا إلى متدرة حيث قضى مستيسا زمناً يبالغ جروحه ، وكان رفيقه يخرجان كلّ يوم ويختلسان ما قد يسقط تحت أيديهم . وما إن شفي مستيسا من جروحه حتّى خرج من مخبئه والتحق بقائل الماسيل فمدّته بالخنود مشاة ومرساناً ممّا ساعده على استرجاع أراضيه ، بل وتجاسر على مناوشة المازيسيل فأثار غضب سيفاكيس وخرج لمقاومته بكلّ ماله من قوى . قسم جيشه فيلقين ترأس أحدهما وسار بطارد مستيسا . وقلّد ابنه ورمية قيادة الفيلق الثاني ،



والخطة كانت أن يقع التوميدي بين الجيشين ، وكان الالتحام ونهزم مستبسا مرة أخرى ولاذ بالفرار صحة 60 فارسا حتى أدرك مرتفعات طربلس : كان ذلك في سنة 205 قبل الميلاد ومكث بها زمنا . ولما أقبلت الجيوش الرومانية على افريقية التحق بقيادتها وعرض عليها صداقته وإخلاصه . وسوف نعود إلى تفاصيل هذا الحدث .

#### شيبون في افريقية :

لقد حاول شيبون ك أسلفناه حشد بـ سيفاكس وربط علاقات الصداقة والتعاون معه ، لكن عاهل بني مازيسيل أثر ضم صفوفه إلى جيش قرطاج إيماناً منه بخطر الساسة الرومانية وهي ترمي في جواهره إلى التسلط على الأراضي الافريقية جميعها والقضاء عاجلاً أم آجلاً على كل سلطة تنصدي لها وهي سوف لا ترد أمام الجرود والقمع حتى تكون لها السيادة المطلقة في افريقية .

درس الوضع السياسي فبين حتمية التعاون مع قرطاج ، وبالتعاون معها قد ينتصر ويحتفظ بعرشه وقد ينهزم وتكون أنظمة الكبرى . أما ورقة الرومان فهي خاسرة بالنسبة له طال الزمن أو قصر . وذلك أنه إذا تعاون مع الرومان ينهزم بهزيمتهم ويسقط من أعلى عرشه . وبانتصارهم قد يحتفظ

بالعرش لكن الرومان ينتزعون منه كل سلطة وقد يفتكون منه الصولجان إذا أبى الامتثال لأوامرهم . فالتعاون مع الرومان إذن خطر في كلتا الحالتين . فعلى ضوء هذه المعطيات اختار سيفاكس الورقة البونيقية رغم الرياح المعاكسة لقرطاج . كان يأمل أن تنظافر جهوده وجهود البونيقين لتكسر شوكة لرومان .

واتصل ملك بني ماسيل بشيبون كما سبق ذكره وعرض عليه صداقته ووعدته بيمد يده لمساعدة يوم تحل جيوشه بأرض الأماقة . ورجع القائد الروماني إلى وطنه في موفى سنة 206 وانتخبوه نائلاً لكنه وجد معارضة شديدة فيما يتعلق بسياسة الافريقية . وبعل المعارضة لم تنس مجازقة رغولوس أثناء الحرب البونيقية الأولى . وقد فشلت قبلها محاولة أغثوكلاس «Agathoclès» . على أن الطبقات الشعبية كانت مخلصه لشيبون تعزّه وقدره ونساده سياسته ، الأمر الذي جعله يحظى بولاية صقلية مع إمكانية الانطلاق إلى أرض افريقية . وحل شيبون بالجزيرة الإيطالية سنة 205 قبل ميلاد عيسى ، وقضى غالب تلك السنة في إعداد العدة للمجازفة الإفريقية ، على أنه نادر يراسل أحد أعوانه وكان يدعى ليلوس «Laeius» على رأس أسطول حربي مهمته تهبط سواحيل هيبون وتخريبها وهي مدينة عتبة الجزائرية ، ولعلّه وقع الاختيار عليها لأن

لمظنة بعيدة عن المراكز البونيقية وعن القوات المازيسيلية ، بعيدة باعتبار صعوبة التنقل إذ ذاك في تلك الربوع ثم إن مدينة هيون توجد في أراضي بني ديسيل وكان الوضع فيها متقلباً والسلطة ضعيفة لا تسيطر على القبائل جميعها بل من التوميديين من كانوا مناهضين لسياسة الاختلاس ويسعون في صالح ملكهم الشرعي مستبسا . وأوردت بعض النصوص القديمة أن القيدة البونيقية لم تكن على علم بالحملة الرومانية وغارة ليلبوس . ولما بلغها نبأ الكارثة استولت الدهشة على القلوب سيما ولم يكن في وسع البونيقيين معرفة عدد السفن التي ألقت مراسيها على شواطئ هيون ، كما كانوا يجهلون عدد الخوذة الذين حشروا بالأرض الإفريقية حتى أنه ذهب في اعتقادهم أن شبيون هو الذي زحف بحيشه يريد مقاتلتهم في ديارهم حسب خطته المعروفة . من ذلك أصدرت سلطات قرطاج أمراً يقضى بالعبئة ، وشدت قرطاج مئذنها تنحصر وتنهياً لمجاهدة الرومان وجهز الأسطول وأقلعت السفن بحر هيون . أما الأمير مستبسا فاتصل حالاً بلببوس كما أشرنا إليه منذ حين صحبة نصر من فرسانه وأعرب عن قلقه بسؤال ليلبوس عن سبب تأخر شبيون وبطئه في إنجاء سياسته الافريقية . وأحاط القيادة الرومانية علماً بالوضع الراهن وقتئذ مشيراً إلى حرب كان يخوضها سيفاكس ضد بعض

القبائل المجاورة . وألقت اهتمام حلفائه نحو هاته الظروف المساعدة حيث ينبغي أن تزحف الجيوش الرومانية قبل تخلص سيفاكس من الحرب ، إذ بانتهائها قد يصبح مؤهلاً لمجاهدة الرومان بأشد وطأة وأكثر عنف وأشار في تقريره إلى المساعدة التي يمكنه تقديمها . وتحدثت بإطناب عن أنصاره وأتباعه من مشاة وفرسان . ثم أشار على الضابط ليلبوس أن لا يبقى طويلاً بشراطئ هيون خوفاً من الأساطيل البونيقية ، وعاد الأمير إلى معسكره وأقلعت السفن الرومانية إلى صقلية . لقد وردت رواية هاته الأحداث عن المؤرخ تيت ليف . على أنها تشير بنا بعض التساؤلات : فلما أقبلت السفن الرومانية على أرض افريقية كان مستبسا شريداً لجأ إلى مرتفعات طرابلس فكانت تفصله عن ليلبوس مسافة "تربوعن 600 كلم . فكيف يجاسر على قطعها وخطر السقوط في أيدي البونيقيين أو في يدي سيفاكس يهدده . ثم قطع تلك المسافة يتطلب زمناً . من ذلك يرى المؤرخ الفرنسي ستيفان اقزل (45) «Stéphane Gsell» أن الأمير لم يكن بليبيا كما تزعمه النصوص القديمة ، بل من المرجح أنه كان متحصناً بالجبال التي تشرف على مدينة هيون ، فيكون من اليسير عليه إذ ذاك الإحاطة بحلول سفن ليلبوس والاتصال به عاجلاً

(45) ستيفان اقزل الكتاب الآنف الذكر الجزء الثالث ص. 196 .

#### • شيون بإفريقية :

أما الحلف الذي حققه اسونيقيون مع سفاكس فلم يكن عائقاً في طريق شبيون ، وقد أمر العزم على تنفيذ سياسته الافريقية . ولما أعدت العدة وأُخمدت الصيف رياح البحر وعوضه خرج بأسطوله من مرفأ ليليبي Lilybée وكان يتركب من أربعين سفينة حربية وأربعمائة ذقنة . أما عدد مشاته فقليل 10000 وقليل 16000 . وكان عدد القرسان يربو عن الألفين . وأمر الملاحين بالالتجاء نحو حبيح قابس . لكن الرياح أتت إلا أن تقود السفن الرومانية إلى رأس سبادي على المكسي ، ويبدو أنها ألفت راسيها قرب مدسة غار الملح حيث أقام شبيون معسكره (46) وأمر باحتلال المرتفعات وأشار لحياته أن تنهب وتراقب تطوّر الوضع في تلك الربوع . وسقطت مدينة العالية (47) تحت أيدي الرومان فأستروا سكانها ونهوها ، ولم نمض أيام حتى انطلق شبيون نحو مدينة أوبيث وقام معسكره على قسم جبل منزل العول . وقبل مستنسا على شبيون صحة رساله الوسائل واحلف المزرّعون في ضبط عددهم . فقالوا : مائتان وقالوا : ألعان . على

(46) Casiru Cornelia رجع المصدر منه من 219 - 220 .  
(47) مدينة العالية لم يقع الإجماع على صط اسمها الصحيح وإن يكون ذلك إلا بوجود بقية تثبت

أنا نجهل متى غادر مقرر إقامته وكيف تمكن من جمع الفرسان والالتحاق بالجيوش الرومانية . واث بقائل البونيقين معزّزاً صفوف روما . فلما بان الجيش البونقي أمر شبيون الأمير مستنسا أن يتقدّم نحو المعسكر القرطاجي ، على أن يتقلص أمام العدو فور الالتحام معه . بذلك تطارده الحياتة البونيقية فتتعد عن مراكزه وعندها يفاجئها بفرسانه بعد أن يالها التعب .

وأعجز الأمير الحطة حيث ظهر بفرسانه قرب المعسكر البونيفي فحملت عليه القوسان أفواجاً فعرف كيف دبّ ويحرمهم على مطاردته حتى وصل بهم إلى مرتفعات كانت تخفي درسان شبيون ، وعندها كان الالتحام وانضم الأمير إلى ساحة القتال وتكبّدت الحياتة البونيقية حقائق حسيمة في الأرواح .

وقد احتلف المزرّعون في سرد . هاته الأحداث : قديرون كاسيوس (48) «Dion Cassius» أورد أن الأمير البومبي كان إذ ذاك قد تحالف مع شبيون دون أن يكون البونيقيون على علم بذلك ، وباتفاق مع القائد الروماني اتصل بالسلط البونيقية ونصحها أن تحمل على الجيش الروماني ففعلت ميماً جعل الجيش القرطاجي يسقط في كمين تطلّعه (48) مؤرخ يوناني عاش في القرن الثاني والثلاث بعد المسيح .

السيوف الرومانية وارتمى عليه مستيسا من خلف . ويضيف ديون كسيوس أن القيادة الوثيقة كان يقاسمها حنون وعزّز بعل . وسقط حنون أسيراً أثناء المعركة وأُسر عزربعل أمّ الأمير لوميدي مستيسا . ولما تمّ الاتفاق بين الخصمين لتبادل بعض الأسرى عاد حنون إلى ذويه وعادت أمّ الأمير إلى معسكراتها . وورد عن المؤرخ أبيان أن مستيسا تقابل خفيّة مع شبون وأشار عليه بنصب كمين قرب برج كان قد أممه أعتوكلاس «Agathoclès» أديم زحمه على أرض أفريقية في أواخر القرن الرابع قبل المسيح . ثمّ اتصل مستيسا بالقائد البوني عرر بعل وحمله على الخروج من المعسكر قصد الاستطلاع ومراقبة أهل أوثيك . فخرج حنون على رأس ألف فارس من نخبة الفرسان وعرض عليه الأمير أن يرافقه صحبة جنوده . ولما أدرك حنون البرج الأنف الذكر وتوجّه نحو مدينة أوثيك ظهر نفر من رجال العدو . فصيح الأمير لوميدي القيادة أن تأمر بالهجوم على الرومان . ولما وقع الالتحام ارتدى الأمير على الجيش البوني من خلف وكان فرسان قرطاج بين شقيّتي ارحى وكان الأسر مصير الذين لم يسقطوا في ساحة الوعى . ويضيف أبيان أن مستيسا لم يتردد بعد المعركة في الالتحاق بحنون . وقبض عليه وحمله أسيراً لمعسكر شبون

ويذكر المؤرخ تسادلّ الأسرى ويشير إلى أمّ الأمير لوميدي تلك التي عوّضوها بحنون . ولئن لم يتفق المؤرخون في تفاصيل الأحداث فليس فهم من بشكّ في الدور العظيم الذي لعبه مستيسا في تلك الواقعة . فهو الذي يبرّر عمل شبون ولعله هو حاك الخطة وله الفصل في تنفيذها ونجاحها . وإن لم يشر المؤرخون لذلك بكلّ وضوح .

الباب الثالث  
مَسْنَدُ  
والعشر التوميري

بات مستنيسا يقود الجيش النوميدي تحت راية الرومان .  
ولمّا كان الشتاء نصب شبيون معسكره قرب مدينة أوتيك ،  
وقيل في المكان الذي نشأت فيه مدينة قلعة الأندلس .  
وخيمت بالقرب منه جيوش قرطاج وكانت إذ ذاك تحت قيادة  
عزربعل . وأمر سيفاكس بإقامة خيامه في موقع يُوفر  
له إمكانية الاتصال بحلفائه ومراقبة العدو وتحركاته .  
وكان ربيع سنة 203 وبدأ كل من الخصمين يتأهب للقتال ،  
فنظم شبيون جيوشه حسب الطريقة المعمول بها عند الرومان :  
فوقفت المشاة صفوفاً في الوسط وحفّتهم الخيالة الإيطالية من  
الجهة اليمنى ، وكان مستنيسا وفرسانه بالجناح الأيسر ، وما أن  
وقع الاصطدام حتّى أدبرت صفوف البونيقيين وعاد سيفاكس  
إلى أرض مملكته وعاد القائد البونيقي إلى قرطاج .

#### • سقوط سيفاكس :

كان النصر إذاً حليف شبيون ، فحشع بأعدائه من ضيقتهم مستنسا واتفقوا على تقسيم الأعمال والجيش ، وكان للأمبراسميدي أن يفقد صحبة ليليوس كثنائ التوميديين وبعض الكتائب الرومانية رسد ضرباته نحو سيفاكس حتى لايشكن من تصيد جرحه وإعداد العدة لقتل من حديد . فاتجه إذن مستنسا وليليوس نحو الغرب لكنهما عدلا في الأخير عن متابعة سيفاكس لأنهما أيقنا أن لاسيل إلى الانحرف به ، وبعد خمسة عشر يوماً مصت وليج القائدان أرضاً بني ماسيل فرحبت بهما القبائل واستقبلت أميرها أحسن ما يكون الاستقبال وقضي على الجنود والولاة الذين سلطهم سيفاكس بالديار الماسيلية .

وما كان ملك المازيسيل ليعرف بالوضع والخزيرة سيما وكانت زوجته صفوربه «Sophonisbe» تحترق على البش والانتقام وهي قرطاجية الأصل تزوجها سيفاكس قصد توطيد العلاقات بينه وبين قرطاج ، وقيل : إنها كانت حبيبة مستنسا أيام كان من حلفائهم وقضت السياسة كما قلنا أن تتزوج ملك بني مازيسيل .

ومهما يكن من أمر فقد عمد سيفاكس إلى جمع جنود يعززون صفوفه وذهب لمقابلة الرومان وحليفهم النوسدي .

وكان العسكريون قرب مدينة سيرة من الجهة الشرقية . وخرجت طلائع الكتائب يتعمهون على أسرار المنطقة من حيث السبل والتضاريس فوق الاصطدام . حتى كان على الحيلة أن تتدخل ، وكان لسيفاكس عدد كبير من الفرسان فحملوا بسرعة ، وكاد الرومان يذهبون ضحية كراتهم لو لم يأت المشاة بتصدون لضرباتهم وكانتهم سدود من حديد يعطلون تحركات الفرسان فكلما اقتربوا منهم أو قفوا خيلهم حشرون ثم أدبروا مكان الكر والفر ، وفي أثناء المعركة صادف أن سقط سيفاكس من جواده في طرف غامضة وأقبل عليه حذو وهو صريح الأرض فقتلوه وحملوه إلى ليليوس . كان ذلك في لربيع والعشرين من شهر جوان سنة 203 كم أورده الشاعر أوفيد «Ovide» (49) والمعلوم أنه لم يقع الاتفاق بين المؤرخين حول هاته الأحداث : لقد أوردها تيت ليف اعتماداً على رواية بوليب وأوردها أيتان مع بعض الاختلاف في النص : ذكر أيتان معركة دارت بين مستنسا وسيفاكس . ذُبرت جنود المازيسيل وجرح حصان سيفاكس فسقط راكبه وعندها أسرع مستنسا وقض على علوه وعلى أحد أبنائه وأرسلهما فوراً إلى شبيون . وهناك رواية أخرى تقول :

(49) وفيدي Ovide شاعر روماني عاش في القرن الأول قبل لمسيح وفي بداية القرن الأول بعده فهو دد من السفنرين

إن سيماكس كان ممنطباً عيلاً فرماه جندي روماني برمح  
فسقط . ومهما كثرت الروايات واختلفت في بعض تفاصيلها  
فالناظر أن البطل المازيسلي سقط أسيراً تحت قبضة الرومان  
وسقطه تالتي نجم مسرعة في سماء إفريقية حيث انتشى  
بالصر وتابع طريقه نحو عاصمة سيماكس قصد فتحها  
والتسلط عليها ، وتم الاتفاق أن يتقدم حتى جدران المدينة  
ولما أدركها أمر بمناداة أعيانها وأحاطهم علما بمصير  
ملكهم فلم يثبوا بصحة النية وقابلوا القائد الوميدي بالصمت  
لكنهم سرعان ما استولت عليهم الدخنة والحيرة لما  
أبصروا سيماكس مغشوداً مغلاً بالسلاسل مهنولاً تحت  
وفتحوا أبواب المدينة فدخلها مستنسا وأسرع نحو القصر حيث  
وجد الأميرة صُفُونِيزْبَة (Sophonisbe) تلثقت الأبناء ،  
فلما فوجئت برؤية مستنسا خربت على الأرض تنصرع إليه  
وتسأله أن لا يتركها لعة بين أيدي الرومان (50)

#### • صفوة زنه :

ويس لقلب مستنسا أن يبقى جامداً كالبحر أمام  
دُموع الجماد ، بل تأثر منه تأثر واشتعلت نار الحب الذي

(50) فيما يخص الأميرة البونيقية ومستنسا انظر  
Séphane Cisel Histoire ancienne de l'Afrique Nord T. III P. 187, 238 et 239.

ما افك يكتنه لأميرة حالت دون حبها ظروف قسية  
فوعدها أن يعمل ماتريده مالكة قلبه . ورأى من الأنسب  
والأفضل أن يتزوجها في اليوم نفسه إذ بزواجها به تنبعث عن  
شبح الأسر ، ومصير الأسرى متعلق بمشية القيادة الرومانية .  
وتذكر المصدر الأدبية أن مستنسا كان يحتفل بزفافه لما  
وصل ليلوس إلى مدينة سيرة ، فلم يخف غضبه عما فعله  
الأمير التوميدي بل وفكر في القبض على البونيقية حتى  
يرسيها وسيماكس إلى معسكر شبيون فاستعطفه مستنسا قبل  
على أن يكون الحكم لشبيون في هذا الأمر .

وبم وصل سيفاكس إلى المعسكر الروماني يجرّ أذبال  
الخبية مثقلاً بالسلاسل كان الجنود والضباط يترحمون لإشاهدوه  
من قرب ويتعرفوا على الظروف التي أسقطته تحت أيدي  
أعدائه . وتحدث المؤرخون عن تأثر شبيون بما رأى للملك  
مغشوداً ، وتذكر أنه كان ضيفه سنة 206 قبل الميلاد في  
قصره ، فرق خاله وأشار أن يعاملوه بطف وإنسانية .  
ثم سيفاكس فحاول التماس المعذرة ملاحظاً أن  
سياسة كانت أملت عليها عليه زوجته البونيقية . وقد افنكت منه  
عقله ورشده ، وأضاف قائلاً حسب ما أورده تيت ليف : إنه  
ارتاح لنبا زواج بك امرأة الخطيرة بالذات أعدائه فلا شك أنها  
ستمرده إلى المهلكة . ونجد نفس الرواية في كتب ديودور



الصقي وأبيان وغيرهما . عى أنه من العسير أن نُثبِتَها . بل من المرجح لدي أنْها رواية وُضِعَتْ لأهداف سياسية دعائية . فيه تشويه للملك افريني حيث يبدو في مطهر دسّي لافيمة له ولا سلطان إذ غامر بمُلكه تحت تأثير امرأة . وفي تلك الرواية تعلن لموقف شيون إزاء زواج مستيا بالأميرة الأرملة .

فمنّا أقبل مستيا على شيون صحبه ليليرس أثني عليه وبعثه أطنب في تقديم عبارات الشكر إليه أمام اجنود ، ثم احتل به رعب عليه زواجه بالمرأة تكنّ العدوة لروما ، ولاحظ أنه بفِعَلَتِهِ يجوز الحدود واستولى على حقّ من حقوق الشعب الروماني . وأيقن مستيا بالخطر . ورّجع إلى خيمته مُسْتَسْلِمًا لِلَّهِ ثُمَّ أُرْسِلَ أَحَدُ غُصَّائِهِ وَحَمَلَهُ كَأْسًا مُمِئِي سُمًّا وأمره بتقديمه لصفونزية . ففعل . وبأناها الغلام فهمت صفونزية فأخذت الكأس وشربته دون خوف ولا تردّد . ولنا عن هذا الحدث روايات كثيرة . منها التي ذكرناها لتيت ليف ويتفق في ذلك مع ديودور الصقليّ على أن هذا الأخير يثبّت أنّها أي صفونزية أعدت كأس الموت من يد الوميدي نفسه . أمّا في روايه أبيتن فالبوقية لم توافق زوجها الثاني إلى معسكر شيون بل مكثت بقصرها تترقب مجرّى الأحداث . ولما انتهى مستيا بشيون واستمع إلى تقريره عاد إلى سرتة صحة نفر من الرومان كلّفوا بأخذ

البوقية ، لكنه تصل بها شخصيّة وقدّم له السمّ وقفّل راجعاً إلى معسكر شيون .

ومن الصور التي رسمت على جدران مدينة بُمبَي (Pompei) وهي التي ذهبت ضحية انْفِجَارِ بُرْكَانِ الفِيْـزُوفِ Vesuve بالقرب من مدينة نابولي (Napoli) استيقظ البركان سنة 79 بعد الميلاد ونفخ بناره ورّماده فكانت أكواماً فبرت تحت عبتها سديه بمباي ثم كشف العطاء على أنقاضها وتواصلت الحفريات إلى القرن العشرين ، وهي الآن من أشهر المعالم الأثرية بالقطر الإيطالي ، فمن الصور التي رسمت على جدرانها إذن صورة قد تمثّل موت صفونزية إذ نرى امرأة فوق سريرها وقد مسكت يدها كوباً وإلى جانبها رجل قيل : إنه مستيا . على أن ستيفان اقزال لايسند هذا التفسير .

ومهما يكن من أمر فلقد انتهت أيام صفونزية ، وفي يوم التالي جمع شيون الجنود وحطّب فيهم شاكراً مستيا وأسد إليه رسمياً لقب الملك .

لقد وردت هاته لأحداث في السمر الثلاثين من تاريخ تيت ليف وإن دلّت روايته على شيء فهي تنسئ سياسة اضمنة التي قررت روما ترحيبتها مع لأنارة . لقد عاتب شيون مستيا لما تزوج بالأميرة البوقية ، وبذلك أظهر له أن

لاحقاً له في شيء إن لم ترضيه السياسة الرومانية . وفي معانته  
 لمسيحاً دوس لحقوق الأفارقة ، لكن روما كانت لانيالي بهم  
 ولا بحقوقهم . ثم أتت شيون لقب الملك لمسيحاً وأشعره  
 بذلك أن لاحقاً له في العرش إلا برضا الرومان . فكان  
 شيون كان يريد السيطرة على أفريقية بواسطة الأفارقة أنفسهم !  
 بل وأورد نيت أن مسيحاً أورد رسلاً يطلبون  
 تركية مجلس الشيوخ بروما حتى يصمتين على عرشه ويسترجع  
 الأراضي التي كانت تعبر تحت صولجان أبيه . وهذه الرواية  
 تثبت إن صححت امتداد مسيح طينة الرومان ، وكأنه قد  
 أصبح هو الآخر يعتقد أن لاستييل لوحوده إن لم ترضه  
 روما ملكاً . الأمر الذي جعله يبنى مرضاتها . وبذلك داس الملك  
 النوميدي حقوق أفريقية وصحى بها في سسل حته للعرش  
 وإن سلمه الرومان من حبيح موده مبدئي . أرادته رُوب  
 ملكاً لأنها كانت تأبى محاببة المناكل مباشرة ومصلحتها  
 تقتضي إذ ذلك أن تبقى أفريقية بين يدي أحد الأمازيغ . بشرط أن  
 يكون مخلصاً متحابياً يدُوبُ أمام ارادة الرومان . وعلى  
 مسيحاً كان تبين كل ذلك لكنه غض الطرف وارترك  
 الحياه العظمى ، إذ بابتاده عن مدأ حرية المملكة النوميديّة  
 ونفوسه مدأ المحبته الرومانية ، شارك في سقوط الأراضي  
 الاممية تحت ريقعة الاستعمار الروماني . فلما عاتبه

شيون في شأن صُورُوبة وأسد إليه لقب الملك كانت الخطوة  
 الأولى في التسلط على أفريقية على كل ذلك ما يبدولنا على  
 صوره النصوص الرومانية ، وكثيراً ما يذكر نيت ليف أو  
 صلتوسيت أن العرش النوميدي هو ملك روما وقد أعطته  
 لمسيحاً جزء الأعمال التي قام بها في صالحها أيام الحرب  
 النوفيقية الثانية ، على أنه من العسير علينا دائماً مراقبة الرواية  
 التي يقدمها لنا المؤرخون في هذا الشأن

سقط إذن سيفاكس ومثل مغلولاً بين يدي شيون  
 ولقب مسيحاً بلقب الملك فكانت ضربة قاسية بالنسبة  
 لقرطاج حتى أنها طلبت الهدنة قصد المنحرف في مفاوضات  
 تؤدي لوضع حد للحرب . فاعتنم مسيح قيام الهدنة وعاد  
 إلى مملكته لتدعيم مركزه فيها ، وأرسل شيون معه ثلثة من  
 أعوانه يقودون كتائب من المشاة والخيالة . أرسلهم كي يساعدوا  
 الملك النوميدي على توطيد مكانته بين القبائل الأمازيغية  
 والتسلط على همكة سيفاكس . وعلق المؤرخ الفرنسي ستمان  
 انفرال «Stéphane Gsell» بقوله : إن شتيون لم يرسل  
 لقموات الرومانية صحبة مسيحاً باعتباره حليف الرومان  
 فحب ، بل أرسلهم ليُشعِره بديه لزاء روما وجيوشها .  
 فكان الكتائب الرومانية هي التي فتحت المدن الأفريقية  
 رُسحت الأراضي وأخضعت القبائل ، فهي إذن ملك روما

اعتبار حق المنتص . ومن حقوق الرومان أن يضعوا مستنسا على عرش الأفارقة ، وفي ذلك إشارة ضمنية لحق روم في استرجاع العرش الأفريقي والاحتفاظ به أو إيساده لمن تريد . فالهدية التي قدمها شيون لمستنسا نكن خطراً عظيماً على الملك الترميدي نفسه وعلى البرقية حماء . بذلك تحصل الرومان على شرعية التدخل في شؤون البرقية متى أرادوا وباطرق التي يترتب عنها .

#### • واقعة زامة :

كان مستنسا يوجب الأصقع التومدية لم أرسل إليه شيون يدعو إلى الانحاق به فوراً إذ كانت المعركة على وشك الاندلاع ، وقد رجع حنبل من إيطاليا (51) وجيهر جيشاً وأخذ يتقدم سعياً وراء الالتحام بالجوش الرومانية . فأسرع شيون صحبة 10000 رجل من أنصا نوميديا ولما كان وقت انشغال وطمست الصفوف على مقربة من مدينة زامة (52) (Zama) كان مستنسا على رأس جيشه يعمرز صفوف

(51) لما أقبل شيون على البرقية أرسلت قرطاج القائد حمص فأمره بالعودة إلى أرض الجوش . إذا أردت التاميل انظر : STEPHANE GSELL, T I I P 170.  
(52) زامة : انشأ هذه المدينة بالمعركة التي دارت بين جيوش شيون وجيوش حمص . لم يقع الاجتماع حول صبط موضع زامة ولكنه من المرجح أنها كانت تقع في المنطقة التي تعد بين ميني الكاف وككر ولعل ما ياما مجرد بحث بدلت مددة جمة .

شيون بالحناح الأيمن ، وقد لعب دوراً هاماً في القضاء على نرسا انونيقيين : هجم عليهم ، بشجاعة ، ولما أدبروا طاردتهم وقتل الكثير منهم ثم ترك القارين وارتمى على مؤخر الجيش النوبيقي صحبة الضابط الروماني ليلوس فكانت ضربة حاسمة قضت على جيش قرطاج . كان الجنود ينساقون كأوراق الخريف حتى غطت جثثهم ساحة الرعي . أما رجال مستنسا فقط منهم ما ينيف عن ألفي رجل حسب الأرقام التي ذكرها المؤرخون القدامى .

دس سين وسنوا واحة زامة حذر الإشارة إلى أيان وقد نقل عن أنصاري زوماني لم يحتفظ التاريخ باسمه ، وجاء في روايته أن شيون تصارع هو وحنبل أثناء المعركة : ألقى كيلاً صارحه تجاه عدوه فأدرك رمح شيون ترس القائد البريقي وأدرك رمح حنبل فرس شيون فسقط ، لكنه سرعان ما اعتلى حصاناً ثانياً ورمى حنبل برمح فأخط مرماه ، وعند ذلك أسرع الملك مستنسا تجاه حنبل ورماه برمح فتصدى له بالنرس وسد حنبل ضربته نحو حصان الملك النوميدي فأسقطه وسقط الملك غير أنه وثب واقفاً واتجه نحو القائد القرطاجي خلال مطر غزير من الحيراب والسهام كان يتلقاها برسه وهو من جلد قبل . ولما كان يتنقل حربة من جلد ترسه رمده حنبل فأخطأ المرمى ثم

رماء ثانية فأصابه في فرائسه حتى أن شيون خاف عليه وأسرع نحوه لكن الملك صمد جروحه بسرعة وامتنطى حصناً وعاد إلى المعركة .

ويشك بعض الباحثين في صحة هاته الرواية ، ولم يذكرها بوليب أبداً في مؤرخيه القديس ، وكثيرهم نقدها وقد عرفت مسبقاً ومنه تحدثت مدة حول أحداث الحرب البونيقية الثانية

وتسخر الرومان ويسبب حرب وورها وشترط شيون على قرطاج أنه قد يسبب كل ما سيعتد عليه وأجده . من أن هذا من المعاهدة كان يكتشفه الموصف مينا حصل من شترط في ابوسية درية أنه كان لأجده في رأس ما بوليب . شترط حتى شهر حتى وإن كانوا مظلومين فكان مينا يتحدث قرطاج وهو في نفس من رمود حتى وتضع حده ملكه ابوسية وتضحت مدينة بونيه عصبه له . وكانت قد مها له شيون كما هاجت روما الملكة ديبسة بعد خسه عن صمد سيدك . وشهرهم "كوتريز" وقد حكم قنائل - ريبيل حتى منتصف القرن الثاني قبل مسيح وكان به حشر مهن

كذلك منذ في أسر وأمر وسرر منسب . حكمة في

افريقية ، وكانت ملكته تمتد من الحدود البونيقية إلى نهر الملوية . تباراً العرش وتنتج كما تبت القود التي صرحت بأمر منه . ويدرأه عمل على تركيز دولته على أسس اقتبس مباديها من عالم اليونان . دولة لها خزائنها وأموالها حتى تتمكن من خلق جيش عتيد منظم في إمكانه خوض الحروب حسب التقاليد والقوانين العسكرية . وأصبح جيشه يعتمد على الحياتية والسياسة وأماه وكان يستخدم القيلة حسب الطرق البونيقية ، كما كان له أسطول لا يتردد في مجابهة الأمواج وتعاطي القرصنة كما "وردة" مسرور (1) "Licinius" أما في "شترط" - إبرة فيس لذب ما بطلما على ذوابيها ، ويرجع أنه كان من أنائه والمخلصين من ذويه في تنبذ القوانين ومراقبة "قبره" الجيش . فكان يرسل أبنته للتدروس مع دول الأخرى كقرطاج وروما . وكان يسيطر على القبائل بونيه عن طريق شيوخها وأمرائها : تمثل القبيلة بممثال أميرها ، وبشترط عصا الطاعة رأيتها تخرج هي بلورها عن طاعة الملك . فهذا أمير نومبيدي يدعى أفشار "Afar" تعمد وشترط فيته حوله ، فما كان من مينا إلا أن يرسل إليه جيش بدومه . فيبدو أن القبائل البومبيدية كدت لا تتردد في خروج عن الطاعة

الباب الرابع  
مَسْنَدُ نَبِيِّ الْمَلِكِ

### \* سياسته الاقتصادية :

كان جلّ الأفارقة أقواماً رحلاً يجوبون الأرض سعياً وراء المراعى ، وكانوا ينتقلون من صقع إلى صقع حاملين بيوتهم الخفيفة يستخدمون الجلد والشعر لصنعها ، وإذا استقروا في ربع من الربع تراهـم يشيدون بيوتهم أحياناً من القش والطين تلك التي تسميها المصادر القديمة « مابليّا » (Mappalia) (54) . ينتقلون دافعين أمامهم حيواناتهم وهي التي تـسـنُّ عليهم بجلودها ولحومها ولبنها . وكانت القبائل أشياء انتقاهـا من مكان إلى آخر وتفتيشها على المراعى تنضدى حروب عديدة قاسية للذود عن حريتها والدفاع عن ديارها

(54) غيبا يتعلنى بالمساكن الأفريقية انظر :

STEPHAN GSELL. *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord* T. V. P. 214-231

وتروي... يسي...  
من... جيش...  
في... حرب...  
احترق السروس

ههي صروف...  
والساعة... من...  
يؤمن... بضرورة...  
وتوفر... لشدة...  
الاقتصادية... كد...  
أسس... دولة...  
وتستقبل... على...  
مشاكل... يوم...  
بين... و...  
المعروف... لم...  
من... باب...  
وحسن... على...  
قواها... ملك...  
من... يد...  
ولقد... لا...  
تشارك... في...  
لدولة

مادامت تحرب البلاد ، لاتعرف الاستقرار ولا تنسب لمدينة  
أول قرية معينة .

إن حياة الرحل مظهر من مظاهر الاقتصاد ، بل هي  
نتيجة اقتصاد يعتمد تربية الحيوان . فلن نعرف القبائل  
الامريقية الاستقرار إلا إذا وقع تحويل في اقتصادها .  
كذلك نرى مستنسا يعمل على تشجيع الفلاحة وتلقين القبائل  
أنجع الأساليب الفلاحية ، حتى يصح الإفريقي محباً  
للأرض ومتوجانها ويعبر عن حبه لها بالحراثة والزراعة  
وغرس الأشجار ، ليتنقذ لذة الحياة القارة بما تمن به  
عليه من يسر وطمأنينة . وعمل مستنسا جاهداً لبلوغ هذا  
الهدف ، وكانت سياسته ناجحة إن صدق المؤرخون في ما  
أوردوه ، وقد وجدوا سياسته في الحقل الفلاحي ، ومن الذين  
نوها بعمل مستنسا تجدر الإشارة إلى بوليب : كانت نوميديا  
عاجزة بطبعها عن الإنتاج على حد قول المؤرخ اليوناني .  
فلما نبأ مستنسا عرش الملك أقام الدليل بأعماله على أنها تثمر  
وتمن بكل ما تنتجه الأقطار الأخرى وكان يخدم الأرض  
ويعمل على حراثتها وزراعتها حتى أثمرت ، فكانت أنجع  
أساليب الدعاية للاستقرار ونعاطي الفلاحة . ذلك ملخص  
ما ذكره بوليب في هذا الصدد (55) .

(55) بنو سببا عمل على سبيج الفلاحة انظر 8 - 7 ، 16 ، Polybe XXXVI.





وعبرها من الأشياء . و سياسة تقليدية عرفها القدماء في الشرق واسرب من وادي الرمان إلى المدن اليونانية ، كما عرفتها قرطاج وشملت بها قروناً دسيرة رغم تنقصها مع مقتضيات التجارة ، (58) وبقي ملوك الأمازيغ مشبهين بهناته لظرفية الاقتصادية البدائية كما يتعجب بعض الأخصائيين .

على أن انحدود النحاسية لوميدية كانت نافذة المفعول داخل حدود المملكة ، ولعلها كانت تستخدم خارجها أيضاً . وتبدو مشيرة إلى ذلك بمرء كشف المطاء عنها في بلاد البلفار : (59) عثروا على كسرة في مدينة « كولا » بالقطر البلعاري ، وعثروا على كسرة في مدينة « مازين » بالبلاد اليوغسلافية ، وبعد هذا الأخير 328 قدماً لكننها صربت في القرن الأول قبل المسيح ، أي لعلقة لها بالملك مستيما . وتحدّر الإشارة كذلك إلى نقد نوميدي عثيرة عثيرة منقطة الأرتمورك (Amouque) بالبلاد المرسية . كانت بعض مدن والأقطار لاتاجر إلا بالسلسة الذهبية أو الفضية ، وما كان مستيما ليجهل تلك الظروف ، فكان يسبح البصاعة الافريقية كالفسوح والعاج ويرش النعام

(58) سببا تعلق بالاساسة القديمة البرينية اخر : G. et C. Ch. PICARD :

« la vie quotidienne à Carthage au temps d'Hannibal », Paris 1958 P. 182-183.

(59) نقد نوميدي عثيرة عثيرة في بلاد المدن بطر :

G. CAMPS, Mousnissa, P. 207 208.

وبعضها والحيوانات كالقردة بقود فضية أو ذهبية ، ويحتفظ بها سدّ حاجته . فبتجارته كان يجمع العملة الصعبة حسب تعبيرنا المصري .

أما الضرائب التي كنت تدفع لبيت مال المملكة فكانت من القمح والحيوانات . ذكر سترابون « Strabon » أن مستيما كان يصدر كل سنة أمراً يقضي بإحصاء الخيل وهي عملية تُيسر ضغط الضرائب التي تفرض على أرباب هاته الحيوانات . وكانت المدن أيضاً تدفع ضرائبها عيناً ، وكانت تلك الضرائب قسمة بالنسبة للمدن التجارية كالتي توجد على الخليج بالجنوب التونسي .

على كل فاللانت أن سياسة مستيما في ميادين الاجتماع والاقتصاد كانت تهدف خاصة إلى تخفيف وطأة حياة الرحال ، وذلك بتشجيع الفلاحة وتنشيط التجارة في الداخل والخارج .

#### • سياسته تجاه قرطاج والحضارة البونيقية

ليس لأحد أن ينكر إشعاع قرطاج في الديار النوميديّة ، وليس مؤرخ أن يتجاهل السور الذي لعبته مدينة حنبعل في تحضير القبائل اللوية الافريقية . فكان ملوك الأفرقة ينظرون إليه بعين الاعتبار والإكبار ، وقد أتى إليه بعضهم

ونفس فيها مبادئ الحضارة ، أساليب الحكم ، وكثيراً ما تزوجوا ببنات سوثيات ، لقد تعرضا منذ حين إلى الأميرة صفرزبة ابنة عرعر ملك التي رزما أبوها سيما كس بعد أن وعد بها مستنياً على أنها تسلمت كأس الموت من يد عشيقها الأول . وكان مستنياً من عشق مدينة علية وتوسع بمبادئ حصارها ، وقد قضى فترة من شبابه في المدينة وقضى أخرى مع أبائها في المعسكرات ، وباتل في سبيلها حتى ألفت به ظروف حيلارة في أحضان الرومان وأصبح من أعداء قرطاج وقاتل حيوشها ، على أنه بقي متعلقاً بالحضارة لونيكية . فتمنّ أود النظر في موقفه ، تيّساً تجاه قرطاج وحب عليه التبصر والتعصم حتى يترك بين الوجهة السياسية والوجهة الحصارية .

فمن حيث السياسة لم رأينا الظروف التي عملت على حفر الخندق بين مستنياً وأرباب السياسة في المدينة لونيكية رصعت الحرب أوزارها وتوّج مستنياً عرش الملك ، لكنه ما انك بكشع الأراضي لونيكية ، ولعله كان يريد القضاء سياسياً على قرطاج بانتصاب دميها ووضع يده عليها كان يبتز أموالها ولا حق له سوى القوة التي كان يستمدّها من صدائه لروما . فكان لا يتردد في الخواسة والوشاية لقرطاج كلما أوجبت ذلك سياسته التوسعية ففي سنة 174

قبل المسيح أحاط روماً علماً بمحادثات كانت تدور بين قرطاج وملك مقدونيا . وجاهزه روما فكان : أن يكسح سبعين مدينة لونيكية على حدّ قول نيت ليف . وتدع الملك النوميدي سياسته التوسعية حتى اندلعت حرب بينه وبين مدينة حنعل في سنة 150 . وقد استعنتها روما لشنّ الحرب لونيكية الثالثة .

كانت قرطاج إذ ذاك تقاسي ضِعْفاً شديداً ، ليس في إمكانها مجابهة الكتائب الرومانية العتيدة . وما كان الرومان يجلبون ذلك الصعف ، بل كانوا واثقين أن لا خطر في بقائها . ولئن عقدوا العزم على تحطيمها فذلك حتى لا تسقط في يدي حليفهم مستنياً . وكان في رأيهم يفتدى أمل التسلط عليها حتى تكون عاصمة لمملكته الشاسعة . تلك التي يريدونها أن تمتدّ من مرفأ قرطاج إلى عباب المحيط . والمعلوم أنه كان ينادي سياسة توحيد الأماقة تحت صولجانه . وكان له في قرطاج نصيباً حزب يدعو إلى التعاون مع ملك النوميديين لكنه أنفق . بل حكم على أنصاره سنة 150 قبل المسيح وقد أوفد الملك إذ ذاك ابنه ميستيا وغلباً إلى قرطاج للدفاع عن المصطهدين . (60) ودلفياً عند أهل قرطاج سوى التكرار والمعارضة فاسمداً الملك من ذلك ذريعة الحرب وحمل على

(60) انظر : S. E. GSELL, *histoire ancienne de l'Afrique du Nord* T. III P. 323

عصر مدي . مكر سيا . حوص القديمة مدينة الزا شكون  
 «adaptes» بالشماس . عسى أن اسورغيس  
 لم يسحو في مستد موقعه . وقد نكون في حال حجير على  
 حنة قور حرائيل كد .

الثالث أن الحرب البونيقية الثالثة قد شتت لرومان  
 لاحوب من قرطاج كما نأيه أسطورة كاتون (61) من كانت  
 حراً ستهدف وصبح حد سلطان مستبسا دون القضاء عليه .  
 وقد شعر لرومان بخطر سياسته الافريقية إذ بنحاحها ثمرقل  
 سياسته روما التوسعية . على كل سياسته مستبسا جبال  
 قرطاج كانت خطيرة تريد استعاضاها من الحقن السياسي . بل  
 كان يأس أن تكون عداية لسلطته الافريقية الشسعة  
 ويتصرفاته إزاء قرطاج . برقة سياسي طموح . لكنه  
 أخطأ في تخميناته حيث لم يتر حساباً للواقع إذ ذلك . كان يريد  
 القضاء على قرطاج وشرح في نظير خطته ، لكنه جهل أو  
 تجاهل ما في بقاء قرطاج من حصانة عرشه إذا رام له البقاء .  
 أثبتت أحداث أنه كان من مستبسا أن يسعى في لتعاون مع  
 قرطاج إثر نهاء الحرب . رقية الثانية ، وقد استرجع عرشه  
 وصوحاه بين وتسمت بمدحت . فالتعاون مع قرطاج يكون  
 من المسير أن ترض روما عليه سياستها ، وببقاء قرطاج والتعاون

(61) فما سلق نية كاتون اسر . Plin l'Ancien XV 74-75

سب كد يستطيع التخلص من التبعة ، من ذلك يبدو أنه  
 أحد الحساب . حيث أمرته السلطة الآتية ولم يفكر في  
 سحة ميسه وهي القضاء على الملكة التوميدية . وفتح باب  
 رينية إلى الكتائب الرومانية وجروتها . فاقضاء على  
 فرطاج أمضى الملك مستبسا وثيقة تضمنن بتسط نفوذ الرومان  
 على افريقية من السواحل التونسية إلى أسواج المحيط .

وبقدر ما كان الملك يريد موت المدينة البونيقية من حيث  
 مبره سياسية ، بقدر ما كان متبسا ببقايتها ومنشأها ،  
 ولعله كان ينوي حمل القبائل الافريقية على استيعاب الحضارة  
 يونانية كما استوعبها هو نفسه . من ذلك أنه اتخذ لغة قرطاج  
 لغة رسمية له وقد تعلمها وأتقنها منذ صغر سنه . ففي أثناء  
 حركته عن القود التوميدية أشرنا إلى الحروف البونيقية التي  
 منشرت عليها تفسيراً لبعض ما تتحلى به من صور . وقرأنا  
 من ذلك مستبسا على بعضها . أليس ذلك دليلاً قاطعاً على  
 استخدام لغة حنبعل في قصر مستبسا ؟ وإلى جانب القود  
 نحت لإشارة إلى النقائش التي خصتها اليد التوميدية في أيام  
 مستبسا وأحفاده ، وقد أزيح التراب عن أكثرها في نحات معبد  
 الحرة قرب قسنطينة بالجزائر . وتجدون هاته النقائش معروضة  
 في متحف هاته المدينة .

وفيما يتعلق باستعمال اللغة البونيقية في قصر مستبسا

ب شهادات أدبية وروائية مسيرورة «Cicero» أن  
أسطول ملك أثينا مرأسية برية في أحد ملاحى حرية مالمية ،  
ونفس أن ركع أمير البحر معبد الإلهة عشتروت (62) وإد  
بنى بين يمين تحت «...» كان قد مهم بعض الزائرين  
قريباً ، وأعجب أمير البحر دامين وقرر أن يأخذهم ويقدمهما  
هدية للسلطان . وأعجب الملك بالهدية فعلاً أيتها اعجاب ،  
لكنه لم يعلم قصتها أمره . فطلع سبعة خيالية نحو جزيرة  
لإرجاع الدين إلى مكانهم المقدس . وأوصى بتطير قبضة  
بوينيه الخروف نصمتن الملك تسلّم اثنين ولا علم له  
بمصدرهما وأمر بإعادتهما إلى المعبد فوراً لحاطته بالحقيقة  
... يسر علينا مراد هاته الأحداث سيما ولم نرد  
إلا في مصوص سيبرو - «Cicero» لكتها رواية  
تشير إلى الملك مستتب وسحبته . فهي تذكر أسطول  
المملكة انوميديّة ، وما «...» قادراً على حوض مياه البحر  
الأسير المتوسط بعدة زره أو القرصنة . ثم نسي هاته  
الرواية بروج مستبها إركد يحترم المعابد حتى أنه لم يتردد  
في إرجاع الدين إلى مقدس عشتروت ، وعبد إلى تجميع سبعة  
حماية لشوم بنت المهنة . حشرة في نظره وقد تشير القبضة إلى

(62) بما يخص معبد الآلهة عشتروت بجزيرة مالمية انصر :

« Visione archeologica » Malta

اللغة البريقية واستخدامها في دوليب الدولة النوميديّة . كان  
المسد بريقياً وكانت جزيرة مالمية من الأصقاع التي اكتشفتها  
حضارة قرطاج فهذه ظروف قد تحتّم استعمال لغة قرطاج  
حتى يكون مصمون النقيشة في متناول الزائرين . على أن  
الكاتب لم يتعرض لهاته التفاصيل ولعله قال « نقيشة بونيقية »  
لما كان يعلمه عن خطأ اللغة القرطاجية لدى الأفارقة في  
القصور والمدن والأرياف .

لقد رجت الحضارة البريقية قلوب الأفارقة منذ عهد  
نديم كما نلّسه في حقل الديانة خاصة . كانت لهم آلهتهم  
الدية وأدموا لها النصب كالتي نحتها في متحف باردو ،  
وأشهرها نصب «...» وجدوه قرب مدينة باجة . وذكر  
المؤرخ اليوناني هيردوت «Hérodote» (63) أن الأفارقة كانوا  
يبدون الشمس والقمر وإلى هاته المعتقدات الأفريقية أضافوا  
معتقدات أخذوها عن أهل قرطاج ، فكان مستبها بعد  
الشمس ، وكان يهاب آلهة قرطاج ، وأقيمت النصب في  
أبامه قريباً لبل حنون ولتأنت ، فهو لم يشخّ بوجهه عن  
معتقدات مدينة قانس وحاول جاهدة القضاء عليها . بل  
تمكنت الحضارة البونيقية لغتها وديانها وتقاليدها في  
قرب النوميدين ، وثبتت قروناً بعد موت ق... وأرتحالها

(63) انظر . هيردوت «HÉRODOTE» السفر 4 - الفقرة 188



ملاديا وصنّف معجما له . اليونانية وأورد في ذلك المعجم  
فترات عديدة انتمسها . كتب القدماء . وإلى جانب رواية  
سيوداس ييني ذكر «إيرير صنعت بجزيرة رودس كما  
تشهد به حوائثها . وثلاث هاته القوارير مدى لتبادل التجاري  
بين جزيرة رودس والبلاد الافريقية في عهد مستيب .

ولم تكن تلك الرابطة وثقا على جزيرة رودس ، بل  
كان مستيب أصدقاء في عاصمة لبلاد اليونانية : أثينا . فهذا  
تسمر يوناني كان . يرمى بالصدقة لني بكتتها له ملك  
الأناقة . وأقام تمثالا . جزيرة ديلوس «Délou» تقديراً  
وإحلالاً لصديقه التومبي . الحميم ، وكان التمثال مصحواً  
سقيشة (66) يونانية تمسوها باسم الحادي عشر من مجمع  
التمثلات البرابية تحت . رقم 1، 15 . ويدوأن التمثال والمقيشة  
يعودان إلى سنة 170 قبل ميلاد عيسى . وممن أحب مستيبا  
للحاصرة ابونانية أن اسمه مستيبال «Mastanabal» تعلم  
لغة افلاطون وكروع . من حوص الأدب اليوناني حسب  
ما أورده تيت ليف . (67) وشارك مسطيبال في ألعاب أثينا  
وعاري سبق الجبل ذكر ذلك امس مستيب 168 و 169

ومن بين الصداقات التي كانت لمستيبا في بلاد اليونان

(66) ايلير : G. CAMPS Mastanabal . Paris 1960 P 199.

(67) كان مسطيبال من ميسيا «من اللغة اليونانية انظر Tit-Live Epitome du livre L.

تحدث الإشارة إلى ذكر أحد ملوك الأقطار اليونانية بآسيا  
الصغرى . أحاطه مستيبا بمطفه وعنايته وقام له تمثالا  
في جزيرة ديلوس ، وكانت هي الأخرى مصحوبة بمقيشة  
يونانية . (68) وفي خرائب هاته الجزيرة كشف النطاء عن  
نقشة سطرت حروفها على صفيحة من رخام ، وممت  
تنصته القيشة اسم غنوسا «Gulussa» وهو أحد  
أبناء مستيبا . (69)

وأحاط كرم مستيبا بمعابد الجزيرة حيث أرسل إليها

سنة 169 كمية من القمح تبلغ 11600 قنطار بيعت لفائدة

معبد أبولون «Apollon» أفلا يشهد كل هذا حب مستيبا

للحضارة اليونانية ؟ إن الهدية لني قدمها لمعبد أبولون  
«Apollon» تشير إلى شعوره نحو الديانة اليونانية . لقد  
ألمنا إلى ورعيه وتمنواؤه أثناء حديثنا عن جزيرة مالطة ومعبد  
عشرت . كان يتعبد للآلهة الافريقية اللوية . وكان يتعبد  
لآلهة قرطاج ، وها نحن نراه يقترب إلى أبولون إله الشمس عند  
اليونان . وحول بعض المؤرخين أن يشنوا دور مستيبا في نشر  
الحضارة البرابية في بلاده ، وما دخول إلهني الدلاحة

(68) انظر

P ROUSSEL et J HATZFELD, fouilles de Délos, inscriptions - Dedicate du roi Nikomède au roi Massinissa Bull. de correspondance hellénique T. XXXIII, 1909. P 473-522

(69) نظر عدد 15 .

ديبتر «Dünat» وكُور «Coré» المعابد الأفريقية إلا نتيجة تلك العمل الجبار ذلك ما يثبته المؤرخ الفرنسي جيروم كركبير (70) «Jérôme Carcopino» في مقال نشرته المجلة التاريخية سنة 1928 ، والمعلوم أن عددًا من النقائش المتعلقة بالهني الفلاحة كشف عنها العطاء بالديار النوميدية . وأورد القدماء أن الأفارقة كانوا حريصين على عادة هاتين الإلهتين ، ويحتفلون دعيًا بها حسب الطقوس والمراسم البرابية . اهتمت ديبتر بدنياً آفة قرطاج منذ بداية القرن الرابع قبل المسيح ، ولعلها دعت بيوت الأفارقة منذ ذلك العهد . لكن مستنسا شخج تلك السادة بأعسارها عنصراً من عناصر الحضارة اليونانية التي كان يريد إدخالها في قلوب الأفارقة ولعلته من الأرجح أنه كان يرمس بفاعية تلك العادة من حيث هي صلب الحصب ووفرة المحصول .

دخلت إذن حضارة سكان بيوت الأفارقة وقلوبهم في عهد مستنسا وأقبل بعض رعيين على سرقه عاصمة المسكة النوميدية واستقرّوا بها وأبشروا آثارهم في سد الحفرة حيث عثر على نصب أثبتت قرباناً لتاسيت وسمل حنون ، لكنها حطت بلغة برنانية وأحرف برابية مناً بشت أن تلك اجالية

(70) انظر «Jérôme CARCOPINO. Le culte des déesses etres Numides» Revue historique T. CLIX 1928 p. 115

دخلت مجتمع الأفارقة فتأثروا به وأثروا فيه . وكيف تحدثت عن بني ايونان في عاصمة مستنسا دون أن نشير إلى نصر الملك حيث كانت تقام الولائم والحفلات والموسيقى اليونانية تشب الآذان حسب ما أورده بعض القدماء . فكل ما أسلفناه من مدى تعلق مستنسا بالحضارة اليونانية وجبه لفنونها الحسيلة كد ثبت إشعاعه وسمعه في ديار بني اليونان .

#### • مستنسا والحضارة النوميدية :

ندور أن اسم الملك مستنسا يتركب من عنصرين لوبيين : أولهما «مس» ويعني «الأمير» والمصر الثاني «أسن» ويعني الجميع . فاسم الملك يعني إذاً «أمير الجميع» . وأوردت ليف أن الملك كان يردّد «أفريقية للأفارقة» غير أن رومًا لم يعقل عن طموح مستنسا وخطر سياسته ، وعملت على شن الحرب النونيقية الثالثة قصد القضاء على سيادة تمرقل خطاها على أرض أفريقية ، ونجّلت هاته السياسة الرومانية بعد موت الملك سنة 148 حيث قسمت اسلكة من حيث السلطة على أبنائه الثلاثة . فكانت الشؤون الإدارية لمستنسا (Micipsa) وكلّف غلوسا «Gulussa» بقيادة الجيش . أما المدلية فهي من مهام الأمير مسطنبال «Mastanabal» ولقب كل واحد منهم بلقب الملك .

سواء في بعض الصوص القديمة أن مستنيسا هو الذي  
 فرض أسر الخلافة لصديقه شبيون ، لكنها رواية يعسر  
 على مراقبتها ، بل يرجح أنها من وضع الرومان أنفسهم ،  
 وضمروها على ضوء مقتضيات سياستهم . وقد ارتدت الصوص  
 القديمة آتواناً دعائية حين أقبل شبيون على سيرة عاصمة  
 المملكة السومرية إثر وفاة ملك . وعمد إلى تقسيم الملك بين  
 الإخوة الثلاثة طبق سياسة تع تحطيطها في روما قبل وفاة  
 الملك وهي سياسة تختصر في قولهم « فرّق تسد » ولاشك  
 أنها تهدف إلى بسط المصلحة الرومانية على أرض الأفارقة ،  
 وقد نحا الرومان الخطوات الأولى في هذا السيل عداة الحرب  
 البونيقية الثالثة ، وسبق أن ذكرنا بواكر هاته السياسة الرومانية  
 الموسمية أثناء حديثنا عن الحرب البونيقية الثانية حتى أن شبيون  
 هو الذي لفت مستنيسا بلبب الملك في حمل حضره الجنود .  
 حاب مستنيسا في الحقل السياسي وأنشأ أنه لم يحسن النظر  
 في عاقبة الأمور إذ تورط مع الرومان ولم يعرف الحد الذي  
 ينبغي التوقف عنده . سياسة الملك السومري تحمل في طياتها  
 بسط نفوذ الرومان على أرض إفريقية من مرفأ قرطاج إلى سه  
 المحيط ، ولكن فلنساءل عن موقفه تجاه الحضارة الإفريقية  
 التوميدية . نجد في كتب التاريخ قديما وحديثا أن إفريقية  
 كانت منسوبة في ظلمات ما قبل التاريخ لمتأ أقل عليها

الفينيقيون في منتهى الألف الثانية قبل المسيح . كان الأفارقة  
 - حسب أقوال بعض المؤرخين إذ ذاك - قبل تعيش مندمجة في  
 الطبيعة قد لا تشعر بوجودها حتى أرست السفن الفينيقية على  
 سواحلهم ومدتهم بنور الحضارة فاستناروا . على أن الحقيقة  
 التاريخية تبدو لنا غير تلك .

إن الأساطير المتعلقة بحلول السفن الفينيقية وتأسيس  
 قرطاج تشير إلى وجود نظام سياسي تخضع إليه القبائل  
 الإفريقية . والنظام السياسي وإن كان بدائياً ينبغي بتطور  
 المجتمعات البشرية . فلم تمكن عبيسة من تأسيس قرطاج  
 إلا بعد تفاوض أجرته مع ملوك الأفارقة ، وبشرط أن تدفع  
 ضريبة سنوية ألعت إليها الصوص القديمة دون مامرة .  
 ويجد في أسماء المدن ما قد يثبت أن الفينيقيين لم يحدوا  
 بإفريقية رصماً تحيف به ظلمات ما قبل التاريخ ، بل كانت  
 تسير نحو لتحصن والتطور . فغاب المدن أسمائها لونية .  
 فالمرجح أنها إذن من تأسيس أهل البلاد نشأت قبل حلول  
 الفينيقيين . من تلك المدن نكتفي بذكر لبة لصغرى - لطة -  
 وسقّة (Sicca) وهي مدينة الكف وطبسة وتوناس  
 وغيرها كثيرة . ويبدو أن الفينيقيين اكتفوا بتنمية المدن والقرى  
 الإفريقية الأصل دون أن يغيروا أسماءها . والمعلوم أن  
 المدن والقرى ظاهرة تجسم كيان الحضارة . وبالمدينة والقرى



تفصّل ضمت ما قبل التاريخ ، زمن الدين يؤمنون بالحضارة اللوية وشخصيتها وطرائقها يمكن أن نذكر حيراثيل كاميس ، وقد أشار بإلحاح إلى عاصرها السياسية والفنية والعقائدية والنظرية خاصة .

بدأت دراسة لمة يتمحور بها كلاماً وكتابة . وأي عنصر حضاري أقوى من الكتابة . فإن الحروف اللوية تشير إلى مستوى الحضارة الذي أدركه الأفارقة ، وفي لحروف توفيق "بحر سلك شخصية حضارية . لقد تحدث الأسقف فلوخاس «Fulgence» وهو افريقي عاش في عهد الفندال عن الكتابة اللوية ، وذكر أنها تستخدم ثلاثة وعشرين حرفاً لكنّه أخصا حيث بان على سوء الفائق أن عدد حروفها أكثر مما نشر إليه الأسقف الافريقي وكشف اسطاء عن هاته النقش في كثير من المدن الافريقية منها : دمه وكثير وقسنطينة وغيرها . وجمع شانو «Chabot» ثلثة من هاته النقش في كتاب أحزوه ثلاثة ، وذلك سنة 1940 . وتحدث الأستاذ جامس فيفيري «James Févner» عن الكتابة اللوية في كتابه «تاريخ الكتابة» . وأما نيسا بتملق بأحد هاته الكتابة فيرى بعضهم أنها أتت من الكتابة البربرية العتيقة ، وكان الفرنسي ربي دوسو «René Dussaud» من أنصار هاته النظرية ،

ونشأت نظرية ثانية تعيد الأحرف اللوية إلى كتابات سامية وركزوها على أمرين اثنين : أولهما عدم وجود الحركات في كل من هاته الكتابات ، والأمر الثاني تشابه بين أحرف الكتابة اللوية وأحرف بعض الكتابات السامية كالسيفية وكتابات أخرى بجنوب جزيرة العرب ، وينجسم هذا التشابه في الصوت والتصوير ويرى الأستاذ فيفيري «Févner» أن الكتابة اللوية تأثرت بالكتابة البونيقية .

مدد الكتابة اللوية بنظام عمودي ، وهل نشأت هاته الظاهرة وجود الكتابة عند اللويين قبل تغلغل الحضارة البونيقية في ديارهم ؟ سؤال تعسر الإجابة عنه ! على أن أقدم النقش اللوية التي عثر عليها حتى يومنا لا تتجاوز حدود لقرن الثالث قبل المسيح . فمنها قيشة لوية بونيقية تذكر معبداً أقامه سنسا «Micipsa» إجلالاً لأبيه سنة 139 قبل الميلاد . ومن المؤرخين من يرى أن الكتابة لوية نشأت أيام الملك سنسا وبايماز مه . ولكنها نظرية لاعتماد لها ، بل في سياسة سنسا ما يفندوها إذ يتخذ اللغة البونيقية لغة رسمية كما تشهد به النقش والقود . فهل يحق لنا أن نعيب عليه عدم اكترائه بمناصر الحضارة اللوية حيث كان يؤمن بتفوق الحضارة البونيقية ويرى فيها أوعب الطرق لتحضير القبائل التي تعيش تحت صولجانها ؟

الباب الخامس

بوعز طبر

طفولت و شبابه

## • موت مسنيسا :

التحق مسنيسا بعالم الأموات سنة 148 قبل المسيح ، وكانت نار الحرب البونيقية الثالثة قد شبت بعد . لكن صمتا عميقا يحفُّ بالمكان الذي احتضن بقاياها . فلم يذكر القدماء عن ذلك شيئا . وفيما أن ذكروه فلم تصلنا أصداء أقوالهم . على أنه يوجد بضواحي مدينة قسنطينة على بعد أميال قليلة رسم بنية أطلق عليها سكان الجهة اسم « صومعة الحرب » (71) قالوا صومعة لأنها تشبه الصومعة من حيث

---

(71) صومعة الحرب : ضريح شيدوه من جنادل مفصلة نلمس في بنيته تأثير الفن اليوناني . توجد بقاياها على بعد أميال من مدينة قسنطينة وقيل انه ضريح مسنيسا انظر :

STÉPHANE GSELL «Monuments antiques de l'Algérie» I 65-61. BONNEL, Monument Greco-punique de la Soumat (près le Constantine) Rec. les Not. et Mém de la société archéologique de Constantine T. XI.IX, 1915 P. 167-176.

المهندس «بنا لقطعة» الحرب» فهي تشير إلى حالة البنية المتداعية الحرة .

ولقد أعارها الأثريون والمؤرخون اهتمامهم منذ بداية هذا القرن حيث كلف الأثري «بونا» بدراسة الصومعة بما في ذلك من تنقيب وترميم حتى نشر مقالا في شأنها سنة 1915 في المحلة التي كانت تصدرها ثلثة من أحياء الآثار بمدينة قسنطينة ضمن عددها التاسع والأربعين . وأبرر بونا في خصائص تلك البناية حيث شاركت عناصر فنية مختلفة في سبك جمالها . فيها عناصر يونانية الأصل وعناصر فيرجيرية . فالأساطين لدرية نذكرنا احضارة اليونانية و «الحلق المصري» «La gorge égyptienne» بذهب بنا إلى مصر التراعنة ومزج ماته العناصر الفنية المختلفة في بنية واحدة ، ظاهرة من أبرر بلزاهر الفن الفينيقي البونيقي نلسمها في ضريح دقة في المدراس وهو ضريح يتباهى بحماله وروعته حوارجبال المدراس . وشيد «المدراس» في القرن الثالث قبل المسيح . شكله مستدير وقطر دائرته 59 مترا رسامت - كما أشرنا منذ حين - في سبك جماله أساطين يونانية يشرف عليها «الحلق المصري» ونجد هاته العناصر اندسية مقوثة عن نصب التوفات .

وأتت أن «صومعة الحرب» ضريح احتضن رفات

شخصية لامعة من عظماء الأفارقة . وبرهان ذلك ما وجدوه بالبناية من قوارير وأسلحة مختلفة مقبورة في سرب شيدوه تحت «الصومعة» . فمن هاته الشخصية الافريقية اللامعة التي دفنت بهذا الضريح ؟ قد يكون مستيسا 1 ولعل الرماد الذي كانت تحتويه القوارير الالفة الذكر هوكل ما بقي من جثمان ذلك الرجل لعظيم . فهل أمر الملك بإقامة ضريحه وهو على قيد الحياة ؟ أم ترى أقاموه لإجلالا للملك بعد موته ؟ ليست لنا وثائق تساعدنا على معرفة ذلك ! كما ليس لنا «بنايت» قطعا أن الضريح ضريح مستيسا ، بل قاله المؤرخون ويقولوه على سبيل الافتراض فحسب . وقد أناموا هذا الافتراض على تاريخ البنية نفسها وهي تعود إلى القرن الثاني قبل المسيح ، ولأشك أن مستيسا هو أعظم الملوك الأفارقة الذين ارتحلوا إلى عالم الأموات في ذلك القرن . توفي كما أسلفنا سنة 148 قبل ميلاد عيسى . ولكن كيف يشيدون ضريح شامخا ويدمنون فيه بقايا أعظم ملك عرفوه دون أن يخطوا نقيشة تذكر اسم التقيد وتنوه بأعماله وأيامه ؟ فهل وجدت تلك النقيشة وأتى عليها الدهر ؟ ذلك مالا سبيل إلى الاجابة عنه حاليا .

لقد كشف الغطاء في خرائب مدينة دقة عن نقيشة بونيكية لويية مضمونها أن أهل المدينة شيدوا معبداً جلالاً

مسيحاً في السنة المباشرة من ملك ميسنسا «Micsa» وترجع ماته النفيسة في محب بردو ولها قيمة عظيمة من حيث المكافأة التي كان يتمتع بها الملك التوميدي في نفوس رعاياه مدينة دقة ، ولعلها تشير أيضاً إلى تعاليد دينية منها أن الأبارقة اللربين كانوا يسدون موكبهم بعد موتهم . ولطاته النفيسة قيمة تاريخية إذ هي من لوائح التي ثبتت مذكرته المسار الأدبية من أسر ميسنسا حيث كان حلفاً لأبيه وانفرد بالحكم بعد موت أخويه .

ولم ير الرومان حرجاً في ذلك ، وهم وانقون من إخلاص ميسنسا ومودته وقنائه في خدمة مصالحهم . فكان لا يحل عليهم بالجنود والقبيلة ، كما كان يساهم في تجهيز جيوشهم بالنسرح والذخيرة الحربية ، مما جعل الرومان يصيئون إليه ولا يضايقونه . غير أن شبيون فرض عليه أن ينتهي أحد أسماءه وكان يدعى يرسرطة . وبذلك أصبح لميسنسا ثلاثة أبناء يتقاسمون العرش بعد موته .

« يرسرطة :

مس حر يوغرطة وما هي شخصيته وما هو الدور الذي لعبه في حقل السياسة ؟ ذلك ما نريد التعرف عليه في هاته الصفحات التالية المتواضعة ! ولكن ما هي المصادر التي تساعدنا

على معرفة هاته الشخصية الافريقية الالامعة ؟ كل من يريد الحديث عن يوغرطة لابد له أن يعود إلى كتاب صنفه مؤرخ روماني عاش في القرن الأول قبل المسيح وهو يدعى صلتوست «Saluste» أنشأ الديار الافريقية وأقام بها زمناً وهو يوس شؤون نوميديا في عهد يوليوس قيصر . ويبدو أنه كان أثناء إقامته بعريفية يفكر في تاريخ الحرب التي شبت بارها بين الرومان ويوغرطة ، على أنه لم تتح له فرصة القيام بذلك العمل إلا بعد رجوعه إلى روما ومغادرته الحياة السياسية . واختار العزلة قصد الانغماس في ميادين الفكر والأدب . فالكاتب الذي ألفه صلتوست حول يوغرطة وبطولته يشكل وثيقة أساسية لمن تعلقت همته بمعرفة هذا الرجل العظيم ، وبالتعرف على أحوال افريقية في منتهى القرن الثاني قبل المسيح . ومن الوثائق التي قد تعود إلى يوغرطة تجدر الإشارة إلى نقود من ذهب وفضة نسبها إليه ، وهي التي ذكرها يحنى مزار ضمن كتابه حول نميات نوميديا ومريطانيا من الصحيفة الرابعة والأربعين إلى الثامنة والأربعين منه . على أننا سوف نعتمد في بحثنا على كتاب صلتوست رغم تعدد مواطن الضعف فيه ، فقيمه أدبية أكثر منها تاريخية ، ولا يوجد فرق بين الأدب والتاريخ في العصور القديمة وحتى في القرون الوسطى ، مما يدعونا إلى الحذر

والنص . سيما ولم يتحدث المؤرخ عن يوغرطة والأفارقة قصد التعرف عليهم والتعريف بهم . بل صوّف كتابه ليبرز فقط السبب ومواطن الخلل التي اعتري مجتمع الرومان في عصره ، ولعله كان يريد من وراء ذلك توعية معاصريه ولست منهم نحو أخطار كانت تحدث عنهم ، ومهلكة كانوا منها ينتربون .

وتنت افتتاحية الكتاب الروماني هذا الرأي حيث قصّت أمكراً فلسفية حول إشرية وما قد يعثر بها عندما تصارع الرملة الصيلة . وترت المؤلف يرفع في مقدمة كتابه من شأن العقل والروح وما يتولد عنهما من أعمال خالدة . وأكثر هاته الأعمال سماً في رأي المؤلف هو التاريخ . ويضيف ستروست في آخر هاته الافتتاحية أنه أراد وصف الحرب التي شنت بارها بين الحبيوش الرومانية وجيوش يوغرطة ملك الوميديين . وذلك لسبب اثنين : كانت الحرب ضروساً مثيرة الأحوال ، وهو السبب الأول . أما الثاني فهو التصدي لراحة الأشراف أنه تلك الحرب .

ومل أن يستغل ستروست في صلب الموضوع ناول عرض الأحداث التي حدثت حول مسينا عرش الملك . ثم ذكر مسينا وأفراداه بالحكم بعد موت أخويه ، وبثبت أن يوغرطة درجة مسصال أحد أبناء مسينا من امرأة لم يتزوجها

بالطرق الشرعية . (72) بل كانت أمه جارية عرفها مصطنبال «Masanabal» في ظروف لم يتحقق التاريخ . ينتمي يوغرطة إذن إلى العائلة المالكة من جهة أبيه دون أن تكون له حقوق أفراد العائلة الشرعيين بل اكتسبها لما تبناه عمه مسبا ببيعاز من شبيون كما أثبتت صلوات في الفقرة الخامسة من كتابه . ولطاته التفاصيل قيمة تاريخية عطسى إذ تبرز التقاليد اللوية حول الزواج والعائلة وشرعية الأبناء .

على كلٍ فلقد ولد يوغرطة وجدّه مسينا على قيد الحياة ويبدو صغير السن بعد وفاته .

#### • طفولة يوغرطة وشبابه :

لاشك أن مصطنبال لم يهتم تربية ابنه ، ولعله كان باتصال مع أمه ويمدّها بما كانت تحتاجه للقيام بواجباتها نحو لطفل الصغير . أو هل سلّمه مصطنبال إلى مرّضعة تسهر على طفولته ؟ ليس لدينا وثائق تمكّننا من البت في هاته المشاكل التاريخية ، ولم يعرّها مؤرخنا عناية بل مرّ عليها صامتاً ولم يتعرّض لها ولوليبيجز . فهل عسرت عليه الإجابة

(72) بما يتعلق بالعائلة عند البربر انظر : Stéphane Gsell Histoire ancienne de l'Afrique du Nord T. V, P. 35 - 38.

عن سبب الأستة ؟ كيف ذلك والحال أنه كان من البسير عليه البحث عنه ، وتسلسل الأضواء لكافية عنها بلرواية والكتب ؟ لقد كان في مقدوره أن يسأل عن بوغرطة وصفولته الأورن بعض أمراء الأفارقة من الذين يتسمون إلى عائلة مستبسا من قرب أر سيد ، غير أن المؤرخ الروماني أمسك عن ذلك لأسباب نجهلها . بل يرجح أنه لم ير حاجة في ذلك . سما والأخلاق التي يرمي لها من وراء كتابه لاعلاقة ها ببوغرطة - شر . من هو لايتحدث عن بوغرطة إلا إذا كان في ذلك نريب بالاحتشاح الرسمي في القرن الأول قبل المسيح ، والتدبير ببيرويه . ترون إذن كيف لانعرف عن صفولة بوغرطة سوى أن عنه مسسا تكفله بعد موت أبيه . وبضيف صلوت أنه أي مسسا حسن ، به كما كان يحسن لابنيه . ولما بلغ بوغرطة سن المراهقة أصبح قوي البنية جميل الخلص ، وكان به في الخلق والذكاء . فلم يل منه الدخ ولم تنس منه السلطنة ، بل كان تتماطى ركوب الخيل حسب التقاليد النوميدية ، وقد عرف أهل افريقية بحذقهم لركوب الخيل . وكان يركب بوغرطة شعراً بالريضة يهوى رمي الحراب والعدو ، وكان يتدرج في ذلك مع أقرانه ويتنصر عليهم جميعاً مما جعله مقدراً من أعدائهم . وإلى جانب الرمي والعدو كان بوغرطة مولماً بالصيد يصطي فيه غالب أوقانه ، والصيد رياضة جديرة

بالمملك والأمرام تغذي جسم الإنسان قوة وتغذي روحه شجاعة سيما إن كان الصيب في أرض مليئة بالوحوش والضواري كما كانت عليه أقطار مغربنا في العصور القديمة . لقد كانت تأري القبيلة والأسود وغيرها من الحيوانات المفترسة ، وفي الكتب القديمة ، يونانية كانت أوروبانية ، شهادات كثيرة تثبت قولنا . فكان بوغرطة يحب الصيد ويهوى مطاردة الأسود . ومما ذكره صلوتست في هذا الشأن حرص الأمير النوميدي على أن يكون من الذين يبادرون بضرب الأسد إن لم يكن هو أول من يستد له صرياقه .

ومن حصال الأمير الشاب أنه كان سريع العمل يكره التفاحر والتباهي بأعماله ، حتى كان يجمع بين الخلق والشجاعة وقوة الجسم والتواضع مما جعله محبوباً بين رفاقه ينظرون إليه بعين الاعتبار والتقدير ولا يضربون له البغضاء وشر الحسد .

أما مسسا فقد استبشر بادئ ذي بدء بما كان يتحلى به بوغرطة ابن أخيه من قوة وجسار وخلق وشجاعة ومكانة بين أترابه ، وكان يرى في قيمة بوغرطة ووزنه شرفاً له وللوويه . ولما شعر بثقل شيخوخته وتأمل في صغر سن أبنائه أيقن بخطور بتحتسم في وزن شخصية بوغرطة ، تلك التي كانت ترداد كل يوم قوة ومكانة في النفوس . أوجس مسسا خيفة

من ... .. تنفري عليه طبيعة الإنسان من  
... .. ساء أهوائها ونحسب  
... .. نر بوعرطة يضاهي شبحوخته  
... .. منشط يمل الجراة وينسي  
... ..  
... .. يعيش الحيرة وعدم الاطمئنان  
... .. في السماء على بوعرطة كبة  
... .. ككة حدة ... .. نظراً لتعلق الوميديين  
... .. لا يترددون في ... .. والاضم له إذا أصاب  
... .. رلة مزما دحضر ندي يشك  
... .. مع ذلك لا يتصع ... ..  
... .. وهم لا يحشون لشدة  
... ..  
... .. أهل شدة بوعرطة وحب  
... .. حمر ... .. حمر الحرب سنه ... ..  
... .. ذلك بحرسو حرب  
... .. وكنت ... ..  
... .. رومان كثة من حياته  
... .. وأمله أن يقتضه الموت أنه  
... .. إلا أن حجب ... ..

يوغرطة وإن كان جسوراً مقداماً فهو لا يلقي بنفسه في المعركة  
إلا بعد تفكير وتخطيط يضمن له الخروج منها منتصراً  
سليماً . وما كان ليحابه الأخطار حباً للأخطار بل لإجابه  
خطراً إلا إذا حتمته مقضيات المهدف المرسوم .  
ولما التحق يوغرطة بمعسكر شبيون أبدى من الخلق  
واشعاع ما جعل القيادة الرومانية تعجب بطولته وتعلق به  
لما لمسوه فيه من قنآن وإخلاص لروما ولقائدها شبيون ، حتى  
أصبح هذا يطمئن له ونكفته بأعسر المهمات وأكثرها  
تساعاً ويعتبره من أخلص أصدقائه ، بل وتمكن يوغرطة  
بتفوقه وتواضعه من إغراء الذين كانوا يعيشون معه في المعسكر  
واكتسح قلوبهم ، ومن بينهم ثلثة من شباب روما البيل  
كانو لا يعرفون شيئاً سوى التكال على الثروة والجاه فساهموا في  
تعذية ما في نفس الأمير الوميدي من طموح ، وكانوا بمدونه  
يبد المساعدة ليكون ملكاً على افريقية بعد موت يسبا .  
ونصر الرومان في اسبانيا ووضعت الحرب أوزارها  
وعاد النوميديون إلى وطنهم . وقد نال يوغرطة حزيل لشكر  
من شبيون الذي أثنى عليه في خطاب ألقاه أمام الجلود ، ثم  
اختلى به في حيمته ونصحه بأن يقتني بصدقة الرومان  
ويغذيها بأعمال وأقوال تشاهدها وتسمعها الجماهير الرومانية  
مذكراً أن العلاقات الشخصية لا تكفي مؤونة رغم منافعها



واوصد أب يمرض عن قنود  
في الحيرة . رواية ذات الحلية  
بروميس . من فئة .  
رصد . برب . نال . بير .  
روما . . .  
ربما . . .  
هبت . . .  
شيوخ . . .  
شدأ . . .  
شاعة . . .  
ثها . . .  
عينا . . .  
شعور . . .  
عيب . . .  
حق . . .  
مر . . .  
رو . . .  
من . . .  
ولت . . .  
ري . . .

لدايا إلى الذين عرفوا بوزنهم  
في رغبة اشتراء ما يملكه الشعب  
سواء سوى مصاءها الشخصية .  
إد تحفكت عني صدقة  
سجد وتبؤأت عرش الملك .  
سبل أي نحو الملحد والعرش  
مترك في المهلكة ثم سلك  
سبيلها إلى مساجد هـ  
ب نوميس  
شوى أرقها إليك ولا شك  
لطة من الخصال ما جمعه عزيز  
ب لربنا بحس شيوخ هـ  
بروميس . هـ أني قد كنت  
رصد سنا . . .  
سبيل . . .  
برسلة اني بعث هـ  
لشرب هـ لرومان من سبصره  
قنود . احتل شيون بيوغرطة  
دون مرصاة روما وشعبها  
سبا عبر شيون عمت تريرده

روما . عبارات عذبة ونهائي تضمنت أوامر تتعلق بسياسة  
بسبا تجاه يوغرطة . ولعل شيون كان محبطا بتخمينات  
بسبا وخواطره التي أشرنا إليها منذ حين . والمرجح أن القائد  
الروماني كان يرى في يوغرطة ضماناً لهيمنة روما على الديار  
الأفريقية وأنوميديا منها خاصة .

ولما تسلّم الملك الرسالة وأحاط بمحتواها أيقن أن لاسبل  
إلى إبعاد يوغرطة وإقصائه عن العرش ، وذلك رغم خطورته  
ودعائه . بل شعر بسبا أن روما توصيه حيراً بيوغرطة إن لم  
تقل : إنها تأمره بسياسة التجميل والتقدير لإزماءه . وتكيف  
الملك حسب مقتضيات الظروف ، وبعد التفكير في الإقصاء  
لربالكيد والاعتقال أصبح يفتش عن مسلك يتدّنه إلى نيل  
عظمت يوغرطة وإخلاصه ، من ذلك أنه أوصى مؤكداً أن  
يتمتع يوغرطة بحقوق الوراثة بما فيها العرش على غرار ابنه  
أيزبل ويمبال ، على أن الوصية لم تكن في حقيقة الأمر  
إلاّ حضرة لمشينة الرومان ، وقد تضمنتها رسالة شيون  
كما أسلفناه .

وكان إذ ذاك مسبها شيخاً طاعن السن ، فلم تمض إلا سنون  
قليل حتى وافاه الأجل وارتحل إلى عالم الأموات . وجاء  
في رواية أوردها هيلوست أن مسبا دعا يوماً - وهو طريح  
انفراش - ذويه وأصدقاءه وأبناءه وخاطب يوغرطة بحضورهم

قديلاً كنت طفلاً صغيراً يبيعاً عديم المال والأمل فأخذت بيدك حتى رمتك إلى ورتة العرش. فعلت ولا رغبة لي سوى أن نكرر سحتك لي نسوي المحبة التي بكنها لي أدربعل ويسار. رُئيت الأحداث أنني لم أكن مخطئاً، فبعت، حيث أكسبني وأكست عرشي عزته بعد رجوعك من قبة نوماس «Nomas» مصلاً عن خصالك الأخرى السديدة المختلفة. شجاعتك ردت الصداقة التي قرطنا بالرومان متانة لقد ذاع اسم عائلتنا في الديار الآسانية.

أما وقد أبت الطيبة إلا أن تضع حداً لحياتي فباسم هاته اليد التي بيدي وباسم الواجب نحو العرش أتوجه إليك طالباً منك إحاطة مدير سليلي بعطيتك، فهم أنا علك من حيث الولادة وأخواتك سليل إحساني إليك أطلب منك ألا تحرر الاعتماد على غيرهما. فالعرش لانكون حراسته بالحيرش والأموال تل حراسته بالصداقة. ولانكون الصداقة ناجيوش ولا تنشئ بالأموال. س بنظا المرء بالمجاملة والإخلاص، وهل يوجه صديق أجدر بالصداقة من أخ؟ وأي صديق لك إن كنت عدو ذوبك؟ إنني تارك لكم عرشاً قوياً إن حسنت سياستكم. ضعفاً إن لم تحسنوها. فبالوحدة والاتفاق تقوى الدول السميرة، وبالتفرقة تنهار أعظم الدول. أنت يا برعطة أكبر أبائي سناً وأمتهم حكمة، فإليك يعود عبء

المسؤولية في توجيه الأمور حتى تكون في خير الجميع. ذلك أنه إذ شب خصام بين قوم فالقوي يبدو ظالماً وإن كان مظلوماً. أما أنما يا أدربعل ويميسال فعليكما باحترام هذا الرجل العظيم وتوقيره. لكما في شجاعته إسوة حسنة فاعملا حتى لا يقال: إنكما دون يوغرطة قيمة.

ذلك نص الكلمة التي توجه بها يسيسا إلى أبنائه وهو يحصر. رواية أوردها صلوتس دون الإشارة إلى مصدرها. ونحن لم تقدم لكم ترجمة حرفية، بل اكتفينا باحترام المعاني الأساسية. ولا شك أنها تكسي قيمة عظيمة لهم سير الأحداث كما يقدمها المؤرخ الروماني. قلنا وكما يقدمها المؤرخ الروماني، لأننا لانستطيع ثبات تدرجتها، كما لا يحق لنا تفسيدها. على أنه من المرجح أنها رواية من وضع المؤرخ نفسه، وتشم رائحة ذلك من النزعة الفلسفية التي طغت عليها. والمعلوم أن صلوتس كان من هواة الفلسفة، وكان يريد من وراء كتابه درس المجتمع الذي يعيش فيه حتى نبرز أخطأه، وكان يريد مدّ القاري بالحكمة والعظة. أليس ذلك هو معنى التاريخ في نظر القدماء: تعرض الأحداث في كتبهم قصد استخلاص الحكمة منها ولا تماظ بها. والقرون الوسطى نفس النظرية في هذا الشأن حيث يقول ابن خلدون في مقدمته: «أعلم أن فن التاريخ فن عزيز المذهب

حم البرند شريف الغاية ، إذ هو يوفقنا على أحوال الماضين من لاسم في أخلاقهم ، ودينهم في سيرهم ، والملوك في دولهم ومبانيهم ، حتى تتم صورة الانتداء في ذلك لس برومه في أحول لدين والدنيا .

والكلية التي فيها المؤرخ الروماني إلى بسبا في ثوب حقيقة فلسفية . رآته أراد من الأحداث أن تكون مبينة آتيا لتلك الحقيقة فلسفية ، وهذا من العرائس التي نجدت سنت في تاريخيتها ، وتفترض أنها من وضع المؤرخ وأجاب يوغرطة عن كلمة أبيه حسب رواية صلوتس إلا أن المؤرخ اكتفى بإشارة عارة ، ولعله لم يري في ذلك فائدة حيث أعرب عن أفكاره الفلسفية في الكلمة الآتفة الذكر ولم يبر له إلا سرد الأحداث

ه خلاصة ميسير : سا :

توفي بسبا سنة 215 قبل الميلاد وخضعه على العرش أبناؤه ثلاثة طبقا لما أوصى به الفقيد . أقيمت الجنائزة ودفن الملك حسب التقاليد الترمسية ، لكننا نجهل المكان الذي جرى دفنه . على أنهم عثروا على نقيشة بونيقية بين أصلال مدنة شرشال بالقطر الجزائري ، وهي نقيشة قبرية تتعلق بسوت بسبا وبالضريح الذي أقاموه له . وقام الأستاذ

حامس فيفريبي «James Février» بدراسة النقيشة ونشر مقاله في مجلة الدراسات الآشورية والآثار الشرقية في الجزء الخامس والأربعين سنة 1951 . وخطت حروف النقيشة على صفيحة من المرمر كانت مرشوقة على أحد جدران الضريح . لكن أي ضريح ؟ وفي أي مكان يوجد هذا الضريح ؟ فهل كان في مدينة شرشال ؟ ولكن كيف يدفن الملك في مدينة تعد عن عاصمته بما ينوف عن أربعمئة وخمسين كلم ؟ أما الأستاذ فيفريبي فهو يرى أن بسبا دفن بمدينة سيرنه «Cirta» وأخذت النقيشة منها وحملت إلى مدينة شرشال في ظروف نجهلها ، على أنها نظرية لم يقع الإجماع عليها ، وقد ناقشها جبرائيل كامس وحاول إبراز مواطن الضعف فيها

ولما انتهى الإخوة الثلاثة من دفن بسبا أبيهم عقدوا أول اجتماع لهم قصد النظر رسميا في شؤون المملكة . وشنت بعد ذلك أول مشكلة بينهم . كان الأفارقة في ذلك العهد السحيق يولون قيمة عظيمة لمكان الجلوس حيث يتبوا المقعد الأوسط أعظم القوم شرفا ، ولما ولج الإخوة قاعة الاجتماع وجلس يوغرطة أتى أدربعل وجلس على يمينه . أما يمسبال وهو أصغرهم سنًا فلقد أبى الجلوس إلى جانب يوغرطة بل أخذ مقعده وجلس إلى جانب أخيه أدربعل

حترق رعدان يوغرطة . ما أي على مقعد الشرف . وكان  
يسير . رسوا نسمة . ان يحتقر يوغرطة باعتبار دماء  
مودة من جهة أمة . و . ان يوغرطة ليجهل ذلك النقص ،  
ولعل من الشعور من . صقله وجعله يسمو ويتفوق  
على من يشعرون بشر . المراد . وكثيراً ما يكون الشعور  
بالنفس من ما يسمع من . استلوك ذلك النقص ويساعده  
على . ر . واستتبع . حاد . إذا كان له من الجأش ما يكثر  
الخورس ويحدث في الوسط . حتى يكون القضاء على الظروف  
التي قد تزدني النقص في . نفس لتذيب الشخصية .  
أنا انقل يسار . ثمه وجلس يمين أحبه أدربعل  
أحسن يوغرطة سهم . بدني ، ولعله تألم من الطعنة  
لكنه كنه عظمه ولم يد . بي ، على أن أدربعل عصب من  
معه آخيه ودعا أن يد . س . يوغرطة ، وامتل يسار  
عن مسير وحسن منه . بيد وجلس إلى يسار يوغرطة  
وهو يكاد يتبهر من له . كان ذلك ويوغرطة متمسكاً  
بالفتى . وفي عييه يد . الهكتم والازدراء ، شأن رجل  
رعي من نجاه شاة . رعيه عراطف فطرية . ويوغرطة  
وإن لم يه بشي يسار . بقوله : مهلاً يسبال . إنني  
أترقبك في مسرح الطريق . ون أنرك فرصة القضاء عليك  
ننت من أنهم نحاو . الأزمه وشرعوا في درس الوضع

فصد حل بعض المشاكل التنظيمية والإدارية . عرض يوغرطة  
مشروعاً يتعلق بإلغاء الأوامر التي أصدرها مسباً في السنوات  
الخمس الأخيرة . وذلك باعتبار شيوخه التي نزعته منه  
بعض إدراكه . وقد أصدر أوامر خطيرة لاتتمشى وصالح  
العرش ، على أن صلتوست لم يذكر شيئاً من تلك الأوامر بل  
اكتمى بالإشارة إليها حتى أنا نجهل محتواها . فلو  
تعرض لها المؤرخ الروماني بشي من التفصيل لكادت فائدتها  
عظيمة لمن أراد البحث عن سياسة مسباً في الداخل والخارج .  
ولفهمنا العرض الذي كان يوغرطة يستهدفه من مشروعه  
الآنف انذكر . فلماذا اكتمى صلتوست بالإشارة إلى تلك  
الأوامر ولم يعرها اهتماماً كبيراً ؟ فهل يعود ذلك إلى عدم  
اهتمام المؤرخ بشؤون المملكة النوميديّة حيث لا يهتم بتاريخها  
من حيث هو بل يستخدمه وسيلة لتدعيم أفكاره السياسية  
وطربانه الفلسفية الخاصة بالمجتمع الروماني في القرن الأول  
قبل المسيح ؟ لذلك تراه يقتطف من تاريخ يوغرطة أحياناً  
تساعده على بلوغ هدف رسمه مستقاً وهو التعريف بالأوضاع  
السياسية في روما وقتئذ .

وليس من الغريب أن يكون مشروع يوغرطة من وضع  
صلتوست حتى يتمكن من تقديم مسرحية تدور بين أبناء  
مسباً وفيها يتفوق الأديب على المؤرخ . ثم أنها وسيلة

تجسّس المُرّخ يواصل بحثه في الحصام الذي شتّ بين بوغرطة وأخيه يسبال . نحن نعلم لكم هاته الافتراضات حتى عرب عن استرازاها تجاه صلتها وما جاء في كتبه من روايات وأحسر . واحترازنا لانه التفتيد قطعاً بل نتيجة عجزنا عن سوابه أموله ، ولا تكرر المراقبة إلا بتوفر الوثائق ، أدبية كانت أو أثرية نقاشية

من أنّ يسبال به المصادقة على مشروع بوغرطة بل ونسب له إيدّ فيه شرّ ساسيه : ذلك أنّ يسبال أصدر أمره بسنّي بوغرطة ومنحه الوراثة قبل موته بثلاث سنوات ، فسفتش المشروع بصير بوغرطة بعيداً عن العرش لاحق له في الوراثة ، وتأزم الوضع . حديد وحزّ موقف يسبال في نفس بوغرطة حتى بات لا يندب إلا في الانتقام من رجل تكرر وتعدّنت . تجاوز يسبال حدود ، فما بقي لبوغرطة إلا البحث عن أدجع الوسائل لتنص عليه والصلك به .

من بين التناهم بدر يمتنع . فلجأ الإخوة إلى تضييم المال . والأموال . وعرد على واحد منهم بإقليم حسب قرار وقع الإنسان عليه . وقد است الأموال واتجه كل واحد منهم إلى قلعة تأويهم وأمواله . وأن كان الملك يسبال بمدينة ترمدة «Tirmidh» وهي قلعة توحد قرب مدينة دقّه ، وضاء - يصدف أن يكرّ - في القلعة ضابط من أنصار

بوغرطة وأصدقائه ، وسكن يسبال منزل الضابط . ولم يخف ذلك على بوغرطة فأقبل على صديقه وطلب منه أن يطلعه على خفايا المنزل وأقفاله ، وعلى ضوء ذلك أمر بوغرطة بتفليد المفاتيح حتى يتيسّر له ولوج القلعة ومنزل الضابط عند الحاجة . وكان يسبال يوصد الأبواب ليلاً ويحتفظ بالمفاتيح خرف من الأخطار .

أما بوغرطة - وكانت له المفاتيح الضرورية - فقد بات ينتحين الفرص لتفليد خطة تستهدف القضاء على يسبال . وأقربت ذات ليلة كوكبة من جنود بوغرطة ودخلوا المنزل وبادرنا بالتفتيش عن الملك بعد قتل الحرس . وظلّ جنود بوغرطة يرتعون في الدار ويعيون فيها فساداً حتى وقعوا على يسبال - وكان قد التجأ إلى كوخ أحد العبيد - فقطعوا رأسه وأتوا به ، سيدهم . وردت هاته لأحداث في الكتاب الثاني عشر من تأليف صوّست حول حرب بوغرطة . ولا تخفى علينا قيمة تنصيصها . فهي تبيننا بوجود قلعة قرب مدينة دقّه ، كما تبيننا بوجود نظام إقطاعي في عهد ملوك البرابرة . فهذا ضابط نويميدي يملك داراً في قلعة ترمدة ، ويدوأن لدار كانت محصنة توصل أبوابها بمفاتيح ، وكانت أبوابها عديدة حيث تمكن يسبال من الفرار والتجأ إلى كوخ أحد العبيد الذين يعملون بالصيعة أو حقل فسيح ، ويحيط بالدار المحصنة أكواخ

نجل المؤرخ بواصل - يته في الخصام الذي شب بين يوغرطة وأخته سسال . نحن نعلم لكم هاته الافتراضات حتى نعرف عن احمرارنا تجاه حلة ست وما جاء في كتبه من روايات ونسب . واحترارنا لا يد . التفتيد قطعاً بل نتيجة عجزنا عن مراقبة آثاره ، ولا تكسر لمراقبة إلا بنوفر الوثائق ، أدوية كدت أو أثرية نقائش

على أن يمسال د . بالمصادفة على مشروع يوغرطة بل وتحسس له إذا فيه شر . صاحبه : ذلك أن ميسا أصدر أمره بتشي يوغرطة ومنحه ح . الورثة قبل موته بثلاث سنوات ، فستشئ المشروع يصيب يوغرطة بعيداً عن العرش لاحق به في الورثة ، وتأزم الوضع . جديد وحز موقف يمسال في نفس يوغرطة حتى بات لا يفر إلا في الانتقام من رجل تكبر وتعتت . مجاور يمسال الحدود ، فما بقي ليوغرطة إلا البحث عن أنجع الوسائل للقبض عليه وافتك به لم يبق للشاهم بار . بفتح . فلحاً الإحرة إلى تقسيم المال والأموال ، وأورد كل واحد منهم بإقليم حسب قرار وقع الاتفاق عليه . وقد ست الأموال واتجه كل واحد منهم إلى قلعة تأويه وأمواله . وإذ أن كان الملك يمسال بمدينة ترمدة «Thirmda» وهي قلعة نوحده قرب مدينة دقة ، وشاءت الصدفة أن يكسب في القلعة ضابط من أنصار

يوغرطة وأصدقائه ، وسكن يمسال منزل الضابط . ولم يحف ذلك على يوغرطة فأقبل على صديقه وطلب منه أن يطلعه على خفايا المنزل وأقواله ، وعلى ضوء ذلك أمر يوغرطة بتقليد المفاتيح حتى يتيسر له ولوح القلعة ومنزل الضابط عند الحاجة . وكان يمسال يوصد الأبواب ليلاً ويحفظ بالمفاتيح خوفاً من الأخطار .

أما يوغرطة - وكانت له المفاتيح الضرورية - فقد بات يتحسب الفرص لتنفيذ خطة تستهدف القضاء على يمسال . وأملت ذات ليلة كوكبة من جنود يوغرطة ودخلوا المنزل ونادروا بالتمشيش عن الملك بعد قتل الحرس . وطل جنود يوغرطة يرتعون في الدار ويعثون فيها فساداً حتى وقعوا على يمسال - وكان قد اتجأ إلى كوخ أحد العبيد - فقطعوا رأسه وأتوا به إلى سيدهم . وردت هاته الأحداث في الكتاب الثاني عشر من تأليف صلوت حول حرب يوغرطة . ولا تخفى علينا قيمة قصصنا . فهي تنبئنا بوجود قلعه قرب مدينة دقة ، كما تنبئنا بوجود نظام إقطاعي في عهد ملوك البرابرة . فهذا ضابط نويسي يملك داراً في قلعة ترمدة ، ويبدو أن الدار كانت محصنة توصل أنوارها بمفاتيح ، وكنت أبوابها عديدة حيث تمكن يمسال من الفرار والتجأ إلى كوخ أحد العبيد الذين يعملون بالضيعة أو حقل ميسح ، ويحيط بالدار المحصنة أكواخ

المب. الذين يعنون بالضبيعة ، ويرجّح أن تكون الدار والضبيعة من أملاك العرش . لكنّها اقتطعت بضابط مقابل أعمال يتضمّن منها خدمة للسك ، فالضابط يساعد الملك على بسط نفوذه في تلك المنطقة ويحرّر صنوفه عند الحاجة .

نَرَوْنِ كَيْفَ تَوْصَفُ هاتِهِ الْفَقْرَةُ مِنْ كِتَابِ صَلَواتِ عَنِ النِّظَمِ الْإِدَارِيَّةِ لَدَى الْأَنْدَلُوسِيَّةِ فِي الْقَرْنِ الثَّانِي قَبْلَ الْمَسِيحِ .

وَلَا شَكَّ أَنَّ الدَّارَ الْمُحَصَّنَةَ الَّتِي أَشْرْنَا إِلَيْهَا مِنْذُ حِينَ تَذَكَّرْنَا بِمَدْرَ عَصَةِ نَجْدِهِ عَلَى أَلْوَحِ الْقِسْيَمَاءِ الَّتِي كُنْشَفَ عَنْهَا الْغَطَاءُ فِي بَعْضِ الْمَدَنِ التُّونِسِيَّةِ الْمُتَقَدِّمَةِ ، وَمِنْهَا لَوْحَةٌ تَرْجِدُ مِمْتَحَفَنَا الْقَوِيَّ بِبَارْدُو وَتَعْرِفُ اللَّوْحَةَ بِاسْمِ « دَارِ الْأَمِيرِ يُولِيُوسِ » .

أَبَابُ الْمَدِينِ  
سَيَاسَةُ التَّحْقِيقِ

### • يوغرطة وأدربعل :

شاع مقتل يمسال بين القبائل الافريقية ، وكان له وقع العظيم في نفس أدربعل وتسلط الخوف على قلوب الأفارقة وانقسموا حزينين متفاوتين . فلقد التفت الأغلبية حول أدربعل ، لكنّ أبطالاً آثروا الانضمام لصفوف يوغرطة وأخذ الخلاف بين الأخوين يتفاقم ممّا جعل يوغرطة يميل إلى وسائل العنف فيحمل على المدن ويتسلط عليها ، ويدو أنه فكر في التخلص من أخيه حتّى يتفرد بالعرش ويسيطر نفوذه على كامل الأراضي النوميديّة . وظهر أنّ يوغرطة مصمّمٌ على بلوغ هدفه مهما كانت الظروف وقد يعمل بالمبدأ القائل « الغاية تبرّر الوسيلة » . فما كان من أدربعل إلّا أن يحيط رُومًا علما بتفاصيل الأحداث عن طريق رسل أوفدهم



إلى مجلس الشيوخ وكشفهم بإبلاغهم نبأ اغتيال إيمبال ، وبالظروف التي حقت باجرامية لشعاع وأحرقهم بالوضع الذي يسود سكة الافريقية وبالخطر الذي يهدد كبايه .

وبلى جانب هاته الحملة السياسية التي قام بها ضد يوغرطة كان أدربيل يتهيأ لمحاربة عدوه في ساحة الوغى ، وكان الالتحام فعلا بين الجيشين ، لكن النصر كان نصيب برسرطة ولاد أدربيل بالقرار يجر وراءه عبار اهزيمة . رسا أصبح من العسير عليه البقاء في حدود اسلكه التوميدي حا أدربيل إلى المنطقة الرومانية ، وهي شمس الأراضي التي نسبت عليها جيزش شبيون عداة الحرب الوثيقية الثالثة وسرت قرطاج سنة 146 قبل المسيح (73) ، ودخلوه منطقة الرومانية أمكت أدربيل ونحا من خطر يوغرطة . حيث كان من العسير عليه مطاردته فيها وقد أصبح تحت حصة الجيوش الرومانية ، وهل يتحاصر يوغرطة عن مهاجمة الرومان ؟ على أن صلت لم يخزن بالمدة التي قصاها أدربيل بالديار الرومانية ، كما لم يقل شيئا حول نشاطه فيها .

التي حرب الوثيقية الثالثة سنة 146 قبل الميلاد وكانت نتيجةها تحطيم مرسع رسولت روما على الأراضي البريقية باستثناء المدن التي سمحت عن مرسع من انتهاء الحرب وسها اريك وحصر موت (سوسة) وسدة الصعري (المطه) سسلف ماتت بعد بحريها على حد قول التومومي القديمة

لكن أدربيل غدر افريقية وأقلعت به سفينة نحو روما ، غايته الاتصال شخصا بأعضاء مجلس الشيوخ حتى يعرف الشعب الروماني بالوضع الراهن في المملكة التوميدي . أما يوغرطة فقد بات يسود القبائل الافريقية ، لكنه شعر بالخطر . وكان على جرائه وقوة شخصيته يخاف غضب الرومان ، وما ذلك منه إلا اعتراف بواقع مر إذ بواقعة زامة وانتصارهم فيها غدت افريقية منطقة نفوذ للرومان ، ولا بقاء لسياسة أعرض عنها أبناء روما واستكروها ، بل كان العرش التوميدي ملكا لم لا يمتطيه أحد إلا برضاهم مزوم يوغرطة أن يعترف بذلك الواقع ريثما تبدل الظروف ، على أنه ما كن ليجهل وزن الذهب في أعين الرومان والأشراف منهم بخاصة . فلا شيء بقيه شر عصب الرومان أمتن وأنجع من الذهب .

وهنا يادر يوغرطة بإرسال ثلثة من أصدقائه متقين بالهدايا ، وكلهمهم بتقديمها إلى الذين قد يتبنون سياسته ويدافعون عنه في مجلس الشيوخ بتفتير موجة الاستنكار التي نحتت عن أفعاله التعسفية . موجة استنكار وغضب نفذت يهما دعاية يقوم بها أدربيل منذ حلوله بروما . وكانت سياسة يوغرطة ناجعة ميماً يبي بحذقه ومعرفته الجيدة لما كانت عيبه روما من ضعف حلفي وتحلل . فلقد تمكن

دوره أن يغير عرى السياسة الرومانية الأمر الذي كان يغير حسب صلوت واستنكاره ، حتى عمد إلى تدوين حرب يرمحها لأنها تزيج النقاب عما تكنه نفوس أرباب سياسة في روما من عيوب . فهم في رأي صلوت لا يمتكرون في مضير الوطن وصاخ الشعب ، بل لاقياس لهم في السياسة سوى جمع الأموال . فالتقارير اسياسية عندهم تباع وتشتري ، ومهم يوغرطة ذلك فهما كاملاً وحيياً فكانت حطته مرسومة حسب مقتضيات الواقع السياسي في روما .

حضر أدربعل مجلس الشيوخ وحاطب أعضائه فاستمعوا إليه ثم حاء دوراً وقد يوغرطة فأخذوا الكلبة وأصت بهم أعضاء مجلس الشيوخ ، لكن يوغرطة من رسائل الإنصاع ما لم يهتد إليه أدريس ، ورجحت كفة يوغرطة دعم خطاب طويل ألقاه أدربعل حاول فيه الاستعاضة والتأثير مندداً بأعوان أحبه التعسفية وأشار إلى خطر الجيروت في مرتبة . لاشك أنه خطاب من وضع صلوت وهي طريقة مألوفة لدى المؤرخين القدامى ، فلقد تونحاهما نت ليف في الخطاب التي نسبها ليجبعل ، ونجد هاته الطريقة عند مؤرخي العرب في القرون الوسطى . فهذا مؤرخ قدّم لنا مثلاً نص الرسالة التي بعث بها المؤمن إلى ملك روم ، ولاشك أنها من وضع المؤرخ نفسه . فهل يسكن

والحال كذلك أن نعتبر تلك الخطب والرسائل كتابات مزيفة لاصلة له بالتاريخ ؟ إن في هذا الحكم شططاً لا لئله كانوا يضعون تلك الخطب والرسائل على ضوء ما بينهم في الرجاء المعين بالأمر ، وفي الظروف الخاصة بمحتوى خضهم ورسائلهم . فلا تاريخية لها من حيث اللفظ والمبنى لكسها قد تضمن بعض الحقائق التاريخية في محتواها .

وضع المؤرخ صلوت خطاب (74) أدريس لكس خطاب" يحتوي على حقائق قد يعسر الشك فيها . لقد برزت في ذلك الخطاب نظرة روما تجاه الملكة النوميديّة وبان تشيع أدربعل لسياسة روما القاضية بالسلط على فريفة ، واستخدام ملوك أفارقة يتمتعون بوزن الشرعية في أعين لقبائل . ذكر أدربعل في بداية خطابه أن أباه قبيل موته أوصاه ألا يعتبر نفسه أكثر من وكيل على الملكة النوميديّة ، وأكد له أن عرشها ملك للرومان دون سواهم . وأضاف أنه لم يجد عن تلك النصائح لأبوية ، ثم عاد ثانية إلى التنويه بفضل الرومان على الأفارقة ، وقد ساعدوهم على التخلص من طعيان سيفاكس وتعسف قرطاج . وذكر أدربعل أن عائته لم تخل بإخلاصها لروما ، ولم تتردد في مدّها يد المساعدة أثناء حروبها ، وختم كلمته بالتوسل إلى شيوخ

(74) انظر : صلوت - حرب يوغرطة الفقرة 14

نسبة طالبا منهم أن يسدّوه بالمجدة ، وأن يفتحوا في وجهه . ثم لما صب حتى لا يسقط عرش المملكة النوميديّة - وهو ملك لهم - تحت عبء الجريئة وحتى لا يتلطمخ بدم الأفارقة . يكتسي هذا الخطأ قبة عظيمة إذ يوقفنا على الأسباب ، حقيقة التي ستجزم عبء « حرب يوغرطة » ، وبالخطأ نسس تناقصاً جذرياً بين سياسة ممسا والسياسة التي سيختمها يوغرطة . لم يجد أدربيل عن السياسة التي غطتها أبوه للتعامل ولتتارن مع الرومان ، سياسة كلّها خضوع وتعبئة فيها كفر بالحرية . سياسة تخضع قطعاً للواقع دون تفكير في تحريك الواقع الثقل ، فهي حين " واستلام وحنوط . أمّا يوغرطة فما كان ليجهل ذلك الواقع ، لكنّه آمن بحقّه في تحريكه ، ولعلنا نسس هنا العوامل الحقيقية التي جعلته يبرر رسل أخويه ولا يتردد في مقاومتها بكلّ ما لديه من قوّة وحقّ . ثار عندها لأنها تسادّان أساساً الرومانيّة ويخصمان شخصيّاتهما

مكان يوغرطة يسعى وراء سياسة تحريرية دون إدارة نسب الرومان ، نجد بهم وسوف لا يكون ذلك إلاّ تحت صلب الظروف . بالكلمة التي جاء بها رئيس وفد يوغرطة كتب بوحزه ليس فيها أن الملك يمسك قد ذهب صحبته قمارته وحسروته . طغى مقام عليه النوميديون وقتلوه . أمّا

الحرب التي شبت بين الملك يوغرطة وأدربيل فقد حاول امتكلم اللقاء مسؤوليتها على عاتق أدربيل ، ولم بمنع ذلك من المبادرة بتقديم شكواه . وأضاف لمتكلم باسم الوفد أن يوغرطة أوصاه بالإعراب عن إحلاصه لما كان عليه أيتام نومنس . ويطلب من أعضاء مجلس الشيوخ أن يحكموا في شأنه حسب أعماله لا حسب أقوال أعدائه . فهي إذن كلمة وحيدة وقد بعلموها بعض الغرض ، لكنك عبثاً تفتش عن أثر التملّق والاستسلام فيها . كان يوغرطة يسعى إلى كسب قضيتته دون أيّ التزام فم يفه رسل يوغرطة بكلمة تشير إلى حقّ الرومان في عرش المملكة النوميديّة أو تعترف بسلطانهم .

مّا الذهب (75) الذي أشار إليه صلّوست في حديثه عن رسل يوغرطة قائلاً : « إنهم اشتروا بعض أرباب السياسة في روما » فقد تكون إشارة لاتاريخية لها . أضفها صلّوست طبقاً لنظريته تحده الأوضاع السياسيّة في روما خلال القرن الأول قبل المسيح . ويظهر أن المؤرخ فكّر في هاته الإشارة إلى خضوع السياسيين لسلطان الذهب ، واستعمال الذهب من طرف يوغرطة كوسيلة ناجعة للإقناع والتأثير ، فكّر المؤرخ في ذلك دون اعتبار الواقع التاريخي ، حيث نراه

(75) انظر . صلّوست - حرب يوغرطة الفقرة 13



تمسك يوغرطة . وطالبت بإسعاد أدريمل والانتقام من  
البر سره اعتيل ببسال (76) ونعترض المؤرخ إلى أحد  
نبر سره في انتشهر بأعمال يوغرطة وحرائمه على حد  
قول المؤرخ نفسه . ويدعى ذلك الرجل ماركوس ميبوس  
سيكتسوروس « Marcus Aemilius Scaurus » وهو ينتمي  
إلى عائلة عربية في الشرف وكان ذا حزم وبراعة في حك  
إسبانيس ، شغوفاً بالسلطان والجاه والعزة والمجد والمال . وكان  
من الذين يحسنون تغطية عيوبهم .

ولم تنجح لأدريمل وشهر بأعمال يوغرطة فليس  
ذلك حسب رواية صلوت من ناب الدفاع عن الحق ، بل  
كان حكمة من إسلاء اطروف ، كانت الأقواء بروما تردد  
وتحسّر أعمال يوغرطة وتصرّفاته وعلاقاته مع أعضاء  
مجلس «سبونج» فأوجس ماركوس سيكتوروس حبه من ذلك  
التيار سبت جملة يصم إلى اعداء يوغرطة تلك أحكام  
أصدرها المؤرخ صلوت في شأن سيكتوروس والمرجح  
أنه نشك في الشصط . حصة وكن سيكتوروس يتمتع بسعة  
حبيدة لدى أحد رجال الأدب والباسة في القرن الأول قبل  
المسيح . هو سيبرون « Cicéron » وكان من معاصري  
مؤرخه . فم جاء أحكام سيبرون تاقض التي أعرب عنها

(76) سر : صلوت - حرب يوغرطة الفقرة 15

صلوت . فهذا يدّد به وبشوة سمعته ، والثاني يمدحه ،  
تناقض يدعنا إلى توخّي الحذر .

وبعد مداولات طويلة حول قصبة الأمبرين انوميدين  
كان الفوز في جانب الذين ضحكوا بالحق من أجل المال والجاه .  
وفي ذلك تفوق الشرّ على الخير ، نتيجة كان صلوت يؤمن  
بحتمينها في تلك الظروف السياسية والاجتماعية التي عاشتها  
روما في القرن الثاني قبل المسيح . ونرى كيف كان صلوت  
يدرس لتاريخ ويعمل على إحياء الماضي حسب نظرية  
مسقة . وفي ذلك خطر : فالنظرية إن كانت مسقة قد تدفع  
إلى تعيير احقائق وتشويهها كي تتماشى والنظرية المسقة وعندها  
يصحح المؤرخ عند النظرية المسقة المنيته ، عاجزاً عن النفاذ  
في الواقع التاريخي وإدراكه إدراك شاملا . ومن وجبت النظرية  
فهي التي تولد عن دراسة الأحداث وفهمها فهما عميقاً دون  
أن تلوثها بألوانها الخاصة .

وتعترض المؤرخ الفرنسي سيمان فرال «Stéphane Gsell»

إلى الأسباب التي جعلت أغلبية أعضاء  
معرضون عن توخّي الصرامة تجاه يوم  
الحقيقة نطق بها صلوت حين تحدث  
«لا شك - على حد قول فرال - أن للذ

(77) انظر : صلوت - حرب يوغرطة الفقرة 15

بربريس . لكنه - أي المؤرخ الفرنسي - يضيف أن أشياء كثيرة - ست عن صلت ، وهي تتعلق بخفايا سياسة لرومية وبنظرتها اسيدة . فمن العير على الجمهورية برراب - في رأيه - أن ننسى الخدمات التي قدمها بوغرطة أيام اللحنة في اسايا . أما بمسال وأدربل فلم يتعرف عليهما لشب الروماني ، وليس هما أصداء كالتن تنولند عن ذكر بوغرطة . ثم يلاحظ ستيفان اقزال أن الشرف لا يملئ لانتقام لأمبر يكاد يكون محولا لقي حقه في طروف يكتنفها اسوس . كما لا يسي الشرف مساندة مهروم يخوض حرباً بين الصربيات عديمة المنافع . تلك هي الأسباب الحقيقية التي جعلت الرومان ينوون سياسة الاعتدال وإن لم تكن عادلة . غير أنهم أشعروا الحصين بضرورة بقاء المملكة الوميدية تحت سيطرتهم وأن لا سبل للتطع ولخروج عن طاعتهم . وذا لمجلس الشيوخ أن أحج سياسة يمكن نصيحتها في ظروف الراحة هي تقسيم المملكة الوميدية بين الحصين ، سب ولم تصح لديهم فكره اكتساح لأراضي الوميدية والسيطرة عليها مباشرة لأسباب مختلفة منشئة قد يمر اوقوف عليها نتيجة صست الوثائق حولها . نشأ حزب السياسة التوسعية في روما وسط نظريته من أعلى ممبر مجلس الشيوخ منذ القرن الثامن قبل المسيح ، وهي السياسة التي أدت إلى تحطيم

قرطاج والقضاء على الدولة البونيقية . إن فكرة التوسع قديمة ، ولعلها كانت تستهدف قفطية الدبار الافريقية من قرطاج إلى مياه المحيط . على أن الظروف المساعدة لم تتوفر وقتئذ . كانت روما في عهد بوغرطة لا تريد التسلط مباشرة على المملكة الوميدية إذ في ذلك محارمة خطيرة ثقيل عبؤها ، ممازفة لم تكن روما وقتئذ على أهبة لانتحامها . (78) فعدت ، ذن إلى تقسيم المملكة الوميدية بين الحصين ، وهو حل به يشعر بوغرطة وأخوه أن الأمر بيد روما وليس لسواها حق النظر في السياسة الافريقية .

وتطبيقا لهذا القرار بعنت روما وفداً يتركب من عشرة أعضاء ، وترأس البعثة أحد الذين ينتمون إلى حزب الأشراف وهو أويموس «Opimus» وكان قد لعب دوراً عظيماً في القضاء على الحركة اشعية الثورية ، تلك التي تزعمها فيوس عراكوس «Caius Gracchus» . وعرف أويموس بعداوته ليوغرطة ، حيث كان من الذين شهروا بالخطر الذي يشككه الأمير الوميدي وندد بأعماله التعسفية . على أن الوفد كلف بالتهر على تقسيم المملكة بين الأخوين .

R. CAGNAT, conférence au musée Guimet.

(78) نظر :

«Comment les Romains se rendirent maîtres de toute l'Afrique du Nord» Annales du Musée Guimet, T. XXXVIII de la bibliothèque le Vulgarisation, ( 919). P 129 - 178

١٤٦ . تقسيم المملكة النوميديّة بين يوغرطة وأدربعل :  
 ر . حلّ الركب الروماني الإفريقيّ أسرع بوعرطة  
 واستسلم . حرارة وحنارة ، ولعلّه بالغ في ذلك حيث بشّهم  
 صلّوست برشو أوبيسوس رئيس البعثة وإغرائه حتّى كانت  
 القسمة ضيّقاً ، وكان القوّز لبوعرطة على حدّ قول  
 صلّوست حيث أحرز على المنطقة الغربيّة المتاخمة لإقليم  
 موريطانيا . ويتحدّث عنها المؤرّخ الروماني قائلاً إنّها  
 أعى الربوخ النوميديّة وأوفرها سكّاناً . وكانت المطقة  
 الشرقيّة من نصيب أدربعل وقد نعتها المؤرّخ الروماني بقوله  
 عديسة القيسة وإن اشتهرت بوفرة ثمرورها وناءاتها .

وميسا يتعلّق بتقسيم المملكة النوميديّة بين الأميرين  
 فالملاحظ أنّ صلّوست أخطأ الحكم ولعلّه خطأ أرده ، بل  
 صنه عليه نصيبه التي أشربا إليها ، القائلة تشكّر الأشراف  
 سحق وحشهم لدمهم حتّى كذبوا يبعون ضمايرهم ولا يرون  
 حرجاً في تمزيق يوغرطة عن أخيه بمنحه المنطقة الثريّة .  
 أحصّ سترست الحكم . وقد يكون خطأه من باب التزييف  
 وإحتساح لواقع النصره المبيته . وقد يكون خطأ أعرب عنه  
 دوس . بحث وثبّت . وسهما يكن من أمر فاسطرية المبيته  
 نمرص عليه الإشارة إلى تفوّق يوغرطة حتّى لا يقع حلل

مضني

وإن قلنا بخطأ صلّوست فذلك لأنّنا نعلّم بمالنا من  
 الوثائق والشهادات أنّ المنطقة الشرقيّة أغنى وأوفر عمراناً  
 من الربوع الغربيّة ، وقد ازدهرت الفلاحة بالمنطقة الشرقيّة  
 منذ القديم وعمل فيها المحراث البونيقي وأخصبها . ولئن  
 منحت روما المنطقة الشرقيّة من المملكة النوميديّة لأدربعل  
 فذلك لأنّها كانت لا تطمئن لمجاورة يوغرطة . ولعلّها شعرت  
 بخطر طموحه وحقه للسلطان . أمّ أدربعل فهو رحل أعرب  
 عن حضوعه لروما ، وهو المؤمن بأنّ العرش النوميدي ملك  
 الرومان ، ثم إنّه ضعيف الإرادة لاطمّوح به سوى التمتع  
 بالعرش والصلولجان ، ولا يرى حرجاً في تطبيق أوامر تأتيه  
 رأساً من المدينة الرومانيّة . يبدو من الأرجح أنّ هاته الملاحظات  
 هي التي كانت قاعدة لتقسيم (79) فيست من باب الصدف ولا  
 من باب تفويق أحد الأخوين على أخيه .

كانت روما إذن تخشى يوغرطة وطموحه ، وما كان  
 يوغرطة ليرضى بتقسيم . يبرز فيه حبث السياسة الرومانيّة ،  
 على أنّه تظاّهر بالامتنال والرضى ، وهو يفتكر في التخلص  
 من محتوى حكمه جبار . فيه التعسف ودوس الكرامة .  
 ولما أعدّ العدة واطمأن العدو زحف يوغرطة فجأة على

(79) تقسيم المملكة النوميديّة بين أدربعل ويوغرطة . انظر :  
 STÉPHANE GSELL, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord* T III P 145-146.

ممسكة في سبي محبتي عظيم وانقص عليها نهباً وحرقت ثم  
 في ربيع سنة ١٠٠٠ حيث نفي : أمنيته أن يلتحق به أدريبل قصد  
 الانتقام مكره بذلك مرضه سبيده لتمام حرب شرعية بينهما  
 لكن أدريبل أيقن بصعده وتفوق أخيه عسكرياً ، فكتفى  
 بإرسال وفد إلى يوغرطة يشكي إليه أعمال العنف والجرائم  
 التي ارتكبتها جنوده . ومثل الوفد بين يدي يوغرطة فقال لهم  
 بالشتم والارذراء ، وعادوا إلى سيدهم يجرّون دماء الخزي  
 والعار . وما كان لأدريبل إلاّ تحسّل ذلك المدون اسافر خلسة  
 اندلاع حرب ثانية

أما يوغرطة فقد عضت حرأته حتى عمّد إلى القيام  
 بزحف يشل أرض أخيه ويسهّد انتزاعها منه قهراً .  
 وكانت خطته تتضمن التوغل في البلاد ، وتخريب المدن  
 والأديان مدنها واستباحة أموال سكانها . أعمال وجد فيها  
 جنود يوغرطة العنيفة ونشوة الانتصار مما زادهم ثقة  
 وعزماً وحزماً . وتمكّن الرعب بقلوب الأعداء . وبقي  
 أدريبل يتأرجح بين أمرين : إما أن يغادر المسكة ، وإما أن  
 يحسب السلاح ليدفع عن حوزتها . واحمار الحرب فسادى  
 بالتمتدّد وانطلق نحو يوغرطة وكان الجيشان قرب مدينة سيرة  
 «Cirta» لما أذنت الشمس بالغروب فلم يمكن الالتحام .  
 وبعد مضي هزيع من الليل أمر يوغرطة بالحمل على

معسكر أدريبل - وجنوده مستسلمون إلى النوم - فتوغّطوا  
 نائمين وذاقوا شرّ الهزيمة ، ولاد أدريبل بالفرار إلى عاصمته  
 سيرة مع ثلة من فرسانه . على أنه لم يمتكّن من الخلاص  
 والنجاة في رواية صلّوست إلاّ بفضل جالية من الإيطاليين  
 كانوا يقيمون بالمدينة يتعاطون فيها لتجارة ، فهم الذين  
 وقفوا في وجه العدر ومنعوه الدخول إلى سيرته . فأمر يوغرطة  
 بضرب الحصار عليها . وبات يعدّ العدة لحرق جدرانها والتسلّط  
 عليها ، وكان يودّ فتحها قبل عودة الوفد الذي أرسله أدريبل  
 إلى روما لتوضيح الوضع اراهن وتقديم شكوى ضدّ أخيه  
 المتعنّت المستبدّ على حدّ قول مؤرّخنا .

وما إن أحيط مجلس الشيوخ علماً بالحرب افاقامة بين  
 الأخوين حتى أوند رسلا ثلاثة أنيطت بعهدتهم مهمّة  
 الاتصال بالأميرين وإشعارها رسمياً بأن روما - حكومة  
 وشعباً - تأمرهما بوضع حدّ للحرب والمادّة بإيقاف كلّ  
 العمليات العسكرية . كما تأمرهما بحلّ مشاكلهما بالطرق  
 الشرعية السلمية . ألقت سفينة الوفد الروماني مراسيها على  
 شواطئ افريقية واتصلوا فوراً بالملك يوغرطة فلم يجدوا فيه  
 سوى اطاعة والتقدير لهم وللدولة التي يمثلونها . ولم يتردّد  
 في الإشارة إلى ماضيه والأيام التي عاشها في معسكر شبيون  
 بلديار الإيبارية . كما لمّح إلى رويط الصدقة والعطف التي



نصبه القائد شبيون وحاشيته . وأضاف أنه إذا زحف على دير أخيه فلم يكن ذلك إلا بعد نفاذ صبره حيث ما انفك أدريجل يسح المكائد قصد اغتياله فهو وإن حاصرت جيوشه سيره لكن في حالة دفاع شرعي وأردف قائلا : إن الشعب الروماني يكون قد راغ عن الحقيقة والعدالة إذا حرسي حق الدفاع الشرعي وختم كلمته بالإعراب عن عزمه على إرسال وفد إلى روما قصد توصيح الوضع ودرس المشاكل القائمة بينه وبين أدريجل والنظر في كيفية حلها ومدو حسب قول بعض المؤرخين القدامى أن يوغرطة لم يسمح لأعضاء البعثة الرومانية بالدخول إلى مدسة سيرة وهذه رواية ناقص ما قيل عن طاعة الملك النوميدي وتقديره لروما . فكيف يتحلى على إثارة العاصفة ومرفقه من الحرج سكان لاشك أنه كان يرى إلى استعطف محس الشيوخ فيكون من البراءة أن يلوي العصا في يد وفد روماني رسمي . وانتابت على صوء رواية صلوسست رعم نشيعة لأدريجل وسخطه على يوغرطة أن المملكة النوميديّة تظهر في مقام حماية رومانية ، على مشاكل السياسة والعسكرية لا يقع البت فيها إلا بتزكية الرومان بل تعرض المشاكل وتحل في مجلس الشيوخ بروما . وكان يوغرطة معترفاً عملياً بذلك الوضع حتى أنه لا يتردد في إرسال وفد إلى روما مهمته بسط المشاكل

السياسة النوميديّة والنظر في كيفية حلها . ليس في إمكانه الإعراض عن ذلك ما دامت المنطقة الشرقية تحت سلطان رجل لا يؤمن إلا بسلطان روما . غادر الوفد الروماني أفريقية وباتت مدينة سيرة محاصرة . وفي نهاية الشهر الخامس شعر أدريجل بحظر الفاقة وتأكد لديه أن لا أمل يرحى من القبائل النوميديّة ، فلم يبق له سوى توجيه ندائه ثانية إلى روما عليها تساعده وتُنقذه من المهلكة . وتطوّع اثنان من رجاله وخرقا حطوط العدو بيلا وأدركا الساحل وأتلعت بهما سفينة تحده روما وقدما إلى مجلس الشيوخ رسالة تفصّلت شكوى أدريجل وطلبه المساعدة . على أن أعضاء المجلس لم يجمعوا على حل : سكان بعضهم يرى من الضروري أن تجهز روما جيشا وترسله إلى أفريقية لتحرير أدريجل وعاصمته من حصار يوغرطة وربما يقع النظر في شأن المعدي . وكان من بين أعضاء المجلس الروماني أنصار ليوغرطة يهاضون أقواف الأوثان ويدحضونها بكل مالدتهم من قوة ودهاء . وسأند هذا التيار بعض الذين يكرهون الحرب . وطار القافش وتعاقد الخطاء ، ثم انتهى الأمر لإرسال بعثة ثانية إلى المملكة النوميديّة وتم اختيار أعضاء الوفد من بين الشخصيات الرومانية اسززة ، وترأس البعثة رجل ذو مجد وجاه وقد عرف بجدده وخبرته في حل مشاكل

السياسي وهو الاستعمار المتقن حيث قد تعمل الدول على تنصيب حكومة أو ملك ، ولا تبخل في الدفاع عن ذلك النظام وتسهر على مصاحبه مهما كانت التكاليف ، لكن بشرط أن يتبنى ذلك الملك أو تلك الحكومة مصالح الدولة التي سلطته ودافعت عنه بأموالها وبنيتها . لقد لعبت الجالية الإيطالية إذن دوراً عظيماً في الدفاع عن مدينة سيرة ، وتصدت لجيوش يوغرطة وحالت دونه وفتح المدينة حسب ما أورده صلوتس في المقرة الواحدة والعشرين من كتابه الآنف الذكر . بل ثبت أن الحرب كانت تنتهي بانتصار يوغرطة وتضع أوزارها في يومها لو لم تتصد الجالية الإيطالية للذين كانوا يطاردون أدربعل .

نُ هذا الخبر المتعلق بالجالية الإيطالية ودورها في الدفاع عن مدينة سيرة قيمة عظيمة ، وبه يجوز افتراض أن أهل المدينة كانوا ينظرون للأحداث بعين الفتور ، ولعلهم كانوا متشيعين ليوغرطة ولا يرون في الملك أدربعل إلا أحد عملاء الرومان . وبعد هذا الافتراض عماده في سكوت المؤرخ الروماني ، فهو لا يذكر شيئاً عن مساهمة أهل المدينة في الدفاع عن ملكهم ومدينتهم . فالمرجح أنهم كانوا يؤيدون سياسة يوغرطة ، الأمر الذي جعل الملك أدربعل يعتمد على الجالية الرومانية . ولئن وقفت هاته الجالية في وجه يوغرطة وحبوشه فلأنها كانت تؤمن بالخطر الكامن في انتصاره ،

السياسي وهو الاستعمار المتقن حيث قد تعمل الدول على تنصيب حكومة أو ملك ، ولا تبخل في الدفاع عن ذلك النظام وتسهر على مصاحبه مهما كانت التكاليف ، لكن بشرط أن يتبنى ذلك الملك أو تلك الحكومة مصالح الدولة التي سلطته ودافعت عنه بأموالها وبنيتها . لقد لعبت الجالية الإيطالية إذن دوراً عظيماً في الدفاع عن مدينة سيرة ، وتصدت لجيوش يوغرطة وحالت دونه وفتح المدينة حسب ما أورده صلوتس في المقرة الواحدة والعشرين من كتابه الآنف الذكر . بل ثبت أن الحرب كانت تنتهي بانتصار يوغرطة وتضع أوزارها في يومها لو لم تتصد الجالية الإيطالية للذين كانوا يطاردون أدربعل .

نُ هذا الخبر المتعلق بالجالية الإيطالية ودورها في الدفاع عن مدينة سيرة قيمة عظيمة ، وبه يجوز افتراض أن أهل المدينة كانوا ينظرون للأحداث بعين الفتور ، ولعلهم كانوا متشيعين ليوغرطة ولا يرون في الملك أدربعل إلا أحد عملاء الرومان . وبعد هذا الافتراض عماده في سكوت المؤرخ الروماني ، فهو لا يذكر شيئاً عن مساهمة أهل المدينة في الدفاع عن ملكهم ومدينتهم . فالمرجح أنهم كانوا يؤيدون سياسة يوغرطة ، الأمر الذي جعل الملك أدربعل يعتمد على الجالية الرومانية . ولئن وقفت هاته الجالية في وجه يوغرطة وحبوشه فلأنها كانت تؤمن بالخطر الكامن في انتصاره ،

حضره - د - إن عاجلاً أو آجلاً - مصالح روما في الديار  
 لإمريّة با - دافعت اجالية الإيطالية عن شيء فقد كان  
 صيب رسا عن مصالحها ومصالح دولتها في المدينة  
 الومبية . فدافعها عن الملك أدربعل يندرج ضمن سياسة  
 نوحته روما تجاه امريقية لأن أدربعل كان من الذين  
 يكتسبون بالحلوس على العرش ويتركون حقيقة الحكم  
 والسلط بين أيدي أرباب السياسة في روما حتى يكون الأمر  
 في امريّة - حسب المصالح والمطامع الرومانية . ولئن وقفت  
 الحالية الإيطالية في وجه يوغرطة بذلك لأنه كان يأبى النعمة  
 ولا يكتفي بعرش ضعيف الحكم ولسطان . كانت سياسته  
 تأبى لتعاون مع الرومان لكنها تأبى التحلي عن حقوق  
 امريقية ولا تتردد في الدفاع عنها مهما كانت الظروف .  
 حاصر يوغرطة إذن مدينة سيرة وقصدت له الجالية  
 الإيطالية لأسباب سياسية واضحة وإن لم يذكرها المؤرخ  
 لرومي صيرست ودام الحصار خمسة أشهر . ولما شعر  
 أدربعل بسلط الناقة ولم يسن له بالمدينة مؤونة تقيها شرّ  
 المحاربة - د - رسولين كما ذكرناه منذ حين إلى روما رحلتها  
 رسالة نسنت شكواه وطلب الإسعاف .  
 رساء في رسالته أن يوغرطة يريد القضاء عليه بملك  
 دمه دور - ببالاة بالأوامر الي أصدرها مجلس الشيوخ . وجاء بها

أن يوغرطة يريد القضاء على المصالح الرومانية في امريقية  
 بالقضاء على أدربعل . وأصاف أن الملكة التي يريد يوغرطة  
 اكساحها عنفاً بقوى المواضي هي ملك لروما ، وأدربعل  
 هو ملك نصته روما على العرش . وحتم الملك رسالته طالباً من  
 الرومان إسعافه عسكرياً إذ لاشي في رأيه يخيف يوغرطة  
 سوى الأسلحة الرومانية وذكر ثانية أن الملكة الومبية  
 هي في حقيقة الأمر مملكة رومانية ، فلرومان أن يفعلوا بها  
 ما يشاؤون . ذلك هو محتوى الرسالة باختصار .  
 لقد نسبها صلتوست إلى أدربعل ويعسر علينا إثبات  
 تاريخيتها كما يعسر علينا تنفيذها . فهل أطلع المؤرخ  
 الروماني على الوثائق الدبلوماسية المتعلقة بهذا الأمر ؟  
 لاسيل لمراقبة ذلك ا ومهما يكن من أمر فدرسالة تكتسي  
 قيمة عظيمة بالنسبة لمن أراد فهم هاته الأحداث وتعليلها .  
 فسبي توقفنا على الرأي العام الروماني تجاه امريقية في  
 القرن الأول قبل المسيح ، ولاشك أن السلط الرومانية هي  
 التي كانت تغذّي ذلك الرأي العام بأخبار تروّجها بطرق  
 شتى ، وليس لأحد أن يجهل دور المؤرخين والأدباء  
 في ترويج الأخبار وتلوين الأحداث . وقد توقفنا لرسالة على  
 موقف أدربعل تجاه روما ، وهي وإن كانت من وضع  
 المؤرخ قد تنصّمت الخطوط الرئيسية لسياسة الملك النوميدي .

[illegible]

١٠٠ (وحتى صبح) رسالة في معرفة شئ حقه  
 ١٠١ (وحتى صبح) رسالة في معرفة شئ حقه  
 ١٠٢ (وحتى صبح) رسالة في معرفة شئ حقه  
 ١٠٣ (وحتى صبح) رسالة في معرفة شئ حقه  
 ١٠٤ (وحتى صبح) رسالة في معرفة شئ حقه

بضمير عدوانية مدنيّة تحاه الرومان ، على كيان "مدين" لندنا  
ونتيجة ننشأ . كما لاتنتم مواهب السياسة عن ذلك . ولئن كن  
على وعي كامل بضرورة التعاون المتشبع مع الرومان ، ولئن  
كان على وعي كامل بقوة سلطانهم في تلك الفترة من الزمن  
فكان مع ذلك يكره سياسة الرأس المصاطل ، ويأبى أن تدار  
كرامته ، بل ولا يتردد في الوقوف موقف الصلابة تجاه من  
قد تحدّثه نفسه بالنسب في إفريقية باسم القوة والجبروت ،  
ومهما يكن من أمر فلقد أدخلت لأوضاع اسائدة إفريقية  
إدراك فلما على أرباب السياسة الرومانية .

نعرصنا منذ حين إلى قطنحن السيسيين الرومان في شأ ن  
يوغرطة وأدرمل . طلب غلاة التختل في شؤون إفريقية  
يساف أدرمل ، طلبوا من المجلس أن بسط على يوغرطة  
عقاباً لعدم امتثاله وتطاوله . غير أن أنصاره عرقلوا جهود  
العلاء وحالوا دون إدانة يوغرطة وتم الاتفاق على إضاد  
يس إلى مدينة أوتيك .

وما إن وصلت أقدم موم أرض المدينة حتى أرسلوا إلى  
وعرطة بطالونه بالقنوم ، مما يفعل إلا بعد هجوم عنيف  
شنته على المدينة بدون جدوى . ثم التحق يوغرطة بالوفد  
لروماني ، لكنه لم يتنزل لأوامرهم وأبدي عناداً في سياسته  
نحاه أدريس . ولما سمع الإطاليون المقيمون بمدينة

صبرته أن مساعي الوفد فشلت طلبوا من أدريس أن يسلم  
نفسه لبرغرطة ويفتح له أبواب المدينة على أن يؤمنه . وكانت  
الجالية الإيطالية تعتقد أن" يوغرطة لن يتجاسر على إلحاق  
شر بها خشية غضب الرومان . لكن" التبيحة كانت عكس ما  
توقعوه . سلم أدريس نفسه فأمر يوغرطة بقتله ثم دخلت  
جنوده المدينة في صائفة سنة 112 قبل المسيح وقتلوا كل الذين  
كانوا يحملون السلاح ، ولم تنج الجالية الايطالية من تلك  
المجررة . كذلك قدّم لنا صلّوست هاته الأحداث إلا أنه  
لم يوضح الظروف والملابسات التي حفّت بها

الباب السابع  
نشوب الحرب  
بين روم و يوغرطة

### \* نتيجة مقتل أدربعل :

ما إن بلغ روما نبأ دخول يوغرطة إلى مدينة سيرقة وتقتيل الجالية الإيطالية القاطنة بها (80) حتى انعقد مجلس الشيوخ وتناول درس الحالة الراهنة إذ ذاك بالمملكة النوميديّة بما تتضمّنه من اغتيال أدربعل والكارثة العظمى التي انتابت الجالية الإيطالية بالخصوص .

ويبدو حسب قول صلّوست أنّ ثلاثة من أعضاء المجلس عملوا على تمطيط المداولات حول الوضع بإفريقية والمملكة النوميديّة ، غايتهم تفتير موجة الغضب التي اندلعت إثر أعمال يوغرطة التعسّفية . لكن هؤلاء الذين ارتشوا - كما يدّعيه المؤرّخ الروماني - لم يتمكنوا هاته المرّة من عرقلة

(80) انظر صلّوست « حرب يوغرطة » الفقرة 26 .

أشعار المنحس . وكان سحق الشعب الروماني لزاء يوغرطة وتمسكه وتحدثه لروما ودومه لكرامتها وهيئتها بلغ أقصاه حتى أصبح المجلس مجوراً على مجابهة الوضع تتدخل عسكري مباشر في شؤون المملكة النوميديّة. من ذلك أنه أصدر قانوناً يتعلق بتعيين قسطين ، والتعثة العسكرية ، والاعتسادات الضرورية لاقتناء الأسلحة ودفع مرتبات الجنود . وسأ أحيط يوغرطة علماً بهاته الأحداث أوفد ابنه (81) صحنه رسولين إلى مجلس شيوخ روما . وأناط بعهدتهم مهته تخييد النار ودفع خطر العاصفة بعيداً عنه ، وادعى صلّوست أن يوغرطة زودهم ذهباً قد يساعدهم على كساح القلوب واشتراء الضمائر ميماً قد يعمل على تحويل الوضع الراهن . اقترب وفد يوغرطة من الديار الرومانيّة فإذا بالفضيل بسّتيّا «Bestia» - وقد كلف بقيادة الجليتي نافرقيّة - يطلب من شيوخ روما : هل يسمح لرسل يوغرطة باللدخول إلى المدينة فأجابه : أن لن يدخوها إلا إذا أتوا لتسليم المملكة النوميديّة ووعد يوغرطة تسليم نفسه لهم والمثل بين أيديهم . ففعل الوفد راحماً من

(81) يسرد يوغرطة فروح مرتين على الأقل - نعمي رواحا شرعياً - وكان له ابنه تحدر الإشارة إلى ابنه الذي أرسه إلى روما عداة مقتل أدربيل . انظر

STÉPHANE CSELL Histoire ancienne de l'Afrique du Nord T. VII p. 54

حيث أتى ، وأعست روما الحرب على يوغرطة وإن لم يقع الإجماع على ذلك في الأوساط السياسيّة الرومانيّة . ومن الرومان من كان يكره الحرب لا لأنه باع ضميره بسائك الذهب بل وعيا منه بما قد ينجرّ عن تلك الحرب من خسائر في الرجال والعناد ، ميماً وقد كانت الجيوش الرومانيّة إذ دلك تخوض حروباً عديدة عنيفة ضدّ الشعوب الأوربيّة وميت بالهزيمة مراراً في بلاد الغال . أليس من الأخطاء السيّة والعسكريّة أن ترسل روما جيوشها إلى افريقيّة ، إلى أرض بعيدة آهلة بقبائل عرفت بشجاعتها وحدتها لحرب العصانات ، ترى جنودهم يتحركون بسرعة ، يجوبون الأرض ويراقون العدو من بعيد وينصبون له الكمين بعد الكمين وينقضون عليه من حيث لا يدري . وقد يتحرك العدو ويجوب الأرض سعياً وراء الانتقام مع الجنود الأمارّة ، لكنهم يخفون ولا يظهرون إلا في ظروف تساعدتهم . وإذا لم يفجئ الأفاقة عدوهم تراهم يسمعون في القضاء عليه عصشا وحوماً . وإن مسرّ العدو بأرص وحدها قفراً لا شيء فيها وقد خلت من ثمارها وحبوبها وحيواناتها وساقاتها . أمّا عيون الماء والآد فقد تظلمس أو تُسمّ مياها . تلك هي الاعتبارات التي كان يعتمد عليها هذا الحزب المعارض للحرب في افريقيّة .

هـ. يوسرلة والقائد بستيا

غير أن المحرك أخذ يدور وجندت روما جيشا عظيما  
نحسب في حربية صقبة ، ومنها أعلت السفن نحر الولاية  
لرومانية بامربية ، ركلف بستيا (Bestia) بقيادة الجيش  
وقد استنسى ماعديه من بين الذين عرفوا بالشجاعة والحق .  
حلّ الجيش الروماني بإفريقية واطلق بكشمج المدن والقرى  
النوميدية مهيب وحترت وأسر . لكن سرعان ما حمل  
الملك يوغرطة بأمواله وذهبه على حدّ قول صتوت وكان  
يستيا شغوفاً بالذهب فتأثر وحترت وحدثت نار الحرب  
بعد رأس الفصل وكرار ماعديه . وتصل يوغرطة بالقيادة  
الرومانية مباشرة وأوضح موقفه محاولا إبراز براعته وأظهر  
استداد لبطاعه والامثال . وانتهت المفاوضات بمقابلة سرية  
دارت بين الملك الموميدي والقائد الروماني . وفي اليوم التالي  
أعلت القيادة خضوع يوغرطة حيث قبل شروط الرومان  
وسلم كل ما طلب منه كالقبيلة والخيول كما سلم ضريبة مالية .  
نسب الاتفاق ، ومصوبه . أن تضع الحرب أوزارها  
ويحتفظ يوغرطة بملكته سوى مدينة لبدة الكبرى . وقد  
اختارت الانفصال عنه منذ بداية الحرب وأوفدت رسلا إلى  
القيادة الرومانية ثم إلى روما نفسها حيث أعربوا عن استعداد  
المدينة النيقية للتعاون مع الرومان تحت كنف الصداقة .

انتهت الحرب إذن وعاد الفصل بستيا إلى روما ومكث  
الجيش الروماني مرابطا بإفريقية ريثما تصادق السلطات  
الرومانية على الوثيقة التي أبرمت بين بستيا والملك يوغرطة .  
وطال الزمن عليه حتى عملت فيه البطالة وأصبح الضباط  
لا يفكرون إلا في جمع الأموال . هذا يرتشي وهذا يبيع  
الأسرى وآخر يؤثر نهب السكان .  
وبدأ صتوت - إلى جانب كل ذلك - أن المعاهدة  
التي أبرمت بين القيادة الرومانية ويوغرطة لم تخل من  
المحسوس مما جعل أعداء القائد بستيا يستغلون الوضع  
ويشيرون إلى ذلك المحسوس قصد تحريض الجماهير الرومانية  
ولإثارة غضبها تحه سياسة القيادة الرومانية بإفريقية . ونخبة  
لوترو والافحدر دفعت المجلس إلى رفض تلك المعاهدة وقصده  
بستيا وتعيين قنصل آخر بكلّف بقيادة الجيش في الأياد  
الموميدي . ومما أسفحت عنه المدولات إرسال أحد أعضاء  
المجلس إلى يوغرطة يطالبه بالخضوع بين أيدي شبوخ روما  
حتى يقع استنطقه وإحلاء الغموض لمحيط بالمعاهدة .  
فلا ماص ليوغرطة من قبول دعوة الرومان وقد أعلن  
عن حضره لروما . كيف يمتنع ، وقد تنجم عن امتناعه لقطيعة .  
وتكلّفت السلطات الرومانية رسماً بحراسه وسلامته .  
ومضلا عن كل ذلك فقد تمهّد الرسول الذي أوفدته روما



الأمير في ذهابه وإيابه خلال المدينة حتى أتيت له  
فرصة القبض عليه واغتياله (82) على أن أحد الذين شاركوا في تنفيذ  
المكيدة وقع في أيدي السلطات الرومانية في ظروف لم يذكرها  
المؤرخ صلّوست ، ولما استنطقوه اعترف واصفاً تخطيط  
المؤامرة وذكر أسماء الذين كلّفوا باقتراف الجريمة .  
وشاع في المدينة خير الجريمة واندلعت موجة غضب  
عارمة ضدّ يوغرطة ذلك الذي تحدّى الرومان في عقودهم .  
لقد تحدّاهم ولاخوف عليه إذ هو يتمتع باضمانات الرسمية  
التي تعهدت له بها السلطات الرومانية . على أن المجلس  
أمره بمارحة أدبية حالاً ، ففعل . ونسب إليه بعض المؤرخين  
كلمة قالها عند خروجه من روما : « مدينة للبيع ومصيرها  
الانهيار إما وجدت شارياً يتاعها » .  
لا شك أن مقتل مسيوا يعدّ هفوة لا تغفر إذ بذلك  
تحدّى يوغرطة روما وداس كرامتها وشوّه هيبتها . كيف  
يرضى الرومان أن يأنّي مدينتهم من بيع فيها فساداً  
ويرتكب المحارم مزدرياً أهل البلاد ؟ إنه لمن لعار أن تقبل  
روما هاته انتصافات ولا يتجاسر أحد على الدفاع عن أصحابها  
مهما كان شغفهم بالمال . أضحت الحرب إذن حتمية . وبادر  
القنصل ألبنوس « Albinus » سنة 110 قبل المسيح بإعداد

الأمير في ذهابه وإيابه خلال المدينة حتى أتيت له  
فرصة القبض عليه واغتياله (82) على أن أحد الذين شاركوا في تنفيذ  
المكيدة وقع في أيدي السلطات الرومانية في ظروف لم يذكرها  
المؤرخ صلّوست ، ولما استنطقوه اعترف واصفاً تخطيط  
المؤامرة وذكر أسماء الذين كلّفوا باقتراف الجريمة .  
وشاع في المدينة خير الجريمة واندلعت موجة غضب  
عارمة ضدّ يوغرطة ذلك الذي تحدّى الرومان في عقودهم .  
لقد تحدّاهم ولاخوف عليه إذ هو يتمتع باضمانات الرسمية  
التي تعهدت له بها السلطات الرومانية . على أن المجلس  
أمره بمارحة أدبية حالاً ، ففعل . ونسب إليه بعض المؤرخين  
كلمة قالها عند خروجه من روما : « مدينة للبيع ومصيرها  
الانهيار إما وجدت شارياً يتاعها » .  
لا شك أن مقتل مسيوا يعدّ هفوة لا تغفر إذ بذلك  
تحدّى يوغرطة روما وداس كرامتها وشوّه هيبتها . كيف  
يرضى الرومان أن يأنّي مدينتهم من بيع فيها فساداً  
ويرتكب المحارم مزدرياً أهل البلاد ؟ إنه لمن لعار أن تقبل  
روما هاته انتصافات ولا يتجاسر أحد على الدفاع عن أصحابها  
مهما كان شغفهم بالمال . أضحت الحرب إذن حتمية . وبادر  
القنصل ألبنوس « Albinus » سنة 110 قبل المسيح بإعداد

لعدة فجمع مؤرنة وحملها إلى امريقية ثم التحق بالجيش  
وندلست الحرب ثانية لكن بقاء مميل حتى اتهم السنوس  
بتواطئه مع يوغرطة . وثابت أن الملك النوميدي كان يناوش  
الجيش لرومانية أحياناً ويعير من أمامها أحياناً أخرى مما  
كان يدخل عليهم القلق واليأس . وأقل ففصل الشتاء دون أن  
تسفر الحرب عن نتيجة ملموسة وعادت الجيوش إلى معسكراتها .  
أما القائد البتوس فكان عليه أن يلتحق بروما قصد السهر  
على مصالحه السياسية وترك عصا القيادة لأخيه أولوس «Aulus»  
كان ذلك في شتاء سنة 110 قبل ميلاد عيسى .

توقفت العمليات الحربية إذن ورابط الجيش بالمعسكر ،  
لكن القائد أولوس كان طموحاً فموض المكوث بالمعسكر  
والسهر على شؤون الجيش فضل الخروج ليهاجم يوغرطة . وأمله  
القضاء عليه . وكان ذلك في شهر جانفي من سنة 109 قبل  
المسيح ، شهر نكث في الأمطار ويشتهر فيه الرد . أخذ  
الجيش الروماني يتقدم بسرعة مرهقة رغم قساوة الشتاء حتى  
أدرك مدينة سثول «Sathul» حيث كانت أموال الملك  
وكنوزه . كانت هذه المدينة حسب ما أورده المؤرخ صلوس -  
بأقصى جبل وعرة المنحدر ، وكانت سهول تحيط بالجبل  
طننت عندها الأمطار فأصبحت وحلاً تعوق سير الجنود ، على  
أن أولوس لم يمر تلك العراقيل قيمة وأمر أن تنابع الجيوش

سيرتها نحو المدينة المحصنة ، ولعله كان يريد بذلك إرهاب  
الملك ، ولعل رغبته في فتح المدينة والتسلط على كنوزها مما  
جمل على قلبه غشاة ، فبات لا يفقه بالخطر ولا يقدر  
العقبات .

وتبين يوغرطة غرور القائد أولوس (83) وعجزه ،  
فظل يعمل على تغذية الغرور فيه حتى يطمئن لسياسته  
المهجومية ويؤمن بفوقه على عدوه مما قد يجعله يتوغل  
ويتحدى العقبات وقد لا يراها . من ذلك أن يوغرطة كن يرسل  
إليه الرغد تلوا الوغد متظاهراً بالتملق والاستعطاف كما كان يتظاهر  
بعدم استعداد له لجاهة الجيوش الرومانية بل يتعد عنها متجهاً  
نحو الأجمات العسير دخولها . كذلك تمكن يوغرطة من حمل  
القائد أولوس على مغادرة ضواحي مدينة سوتول ، وسار خلفه  
إلى مناطق بعيدة كأنه يطارده ، وكان دعاة يوغرطة يستثمون  
كره فرصة للتسرب في صفوف الرومان كي يقتلوا حتى أسرارهم  
كما كانوا يحاولون اشتراء من قد يريد إعانة الملك ، وقد ارتشى  
فعلاً ثلة من اصطاء ، وتم الاتفاق على أن يلتحقوا بصفوف  
يوغرطة أو يتركوا مراكزهم عند الإشارة .

وفي ليلة ظلامها حالك فاجأ يوغرطة الجيش الروماني  
وطرقه فاضطرب جنود أولوس ، فهرول بعضهم إلى  
(83) نظر صلوس : حرب يوغرطة ، الفقرة 37 .

دراى أنسوس من الصالح أن لا ينامر وحفظه في الانتصار ضئيل  
ولم يكن الملك التوميدي ميّلا إلى الحرب في ذلك الوقت  
رغم تنوّعه لأنّه يؤثّر الحول السياسية فبت يترقبها بكلّ أمل .  
على أنّ الرومان كانوا لا يفكّرون إلّا في الحرب ولا انتقام من  
يوغرطة ومن ساعده ، فكّوا على العناصر الذين اتهموا  
بالتعاون واسواطوا مع الملك التوميدي . أمّا جيش الروماني  
المعسكر بإفريقية فقد أسدت قيده إلى إحدى الشخصيات  
السياسية البارزة في ذلك العهد ، وكان يدعى ميتلوس «Métellus»

## الباب الثامن يوغرطة وميتلوس

كُلّف القنصل متلّوس (84) بشنّ حربٍ منظمة هدفها القضاء على الملك النوميدي العنيد . كان ذلك في سنة 109 قبل المسيح . وما إن سلّموه سيف القيادة حتّى بادر بالتجنيد وجمع المؤونة والأموال الضرورية للقيام بواجبات الحرب . ثمّ أخذ طريق افريقية وحلّ بها في منتصف الربيع من سنة 109 حيث تسلّم القيادة فعلا وكان الجيش في حالة يرثى لها وقد فقد النظام واعتاد الفوضى بل وأصبح لا يكثرث بأوامر الضباط . وتلك الحالة هي نتيجة حياة البطالة والتبرف التي عاشها الجنود زمنا طويلا حتّى انحلت أخلاقهم وكفروا بمبادئ الجيش الروماني وباتوا لا يتوقون لشيء سوى النهب وجمع الأموال مهما كانت الطرق ومهما كانت النتائج . كان الجنود يخرجون

---

(84) متلّوس : ينتمي الى عائلة من اشراف الرومان . وكان من السياسين المحافظين

وتستلزم عن ابرار لآسة ينهبونها ويبيعون حيواناتها  
وسميت إلى ندر يأتونهم بنحور وعيرها من الملمات .  
دور عسل قدم به انفصل مثلوس نظراً لذلك الوضع  
مر سترجع النظام في صفوف الجيش . وأصدر أوامر  
تسلطت بحية المسكر . منها مع بيع الخبز والخمر وغيرها  
من المأكول والمشرب . ومنها منع الجدي البسيط من اقتناء  
المبيد وحاملات الأثقال . كما أن هناك أوامر صدرت تضع  
حداً للتهتك وتعاطي الموبقات . تمكن مثلوس إذن  
من السيطرة على الوضع ومسك عيان الجيش بيد من حديد . من  
ذلك أنه كان يأمره بالخروج يومياً ونقل المسكر من مكان  
إلى آخر ونخصيه بحصص اخلاق مثلاً . وكنت القيادة الرومانية  
تراقب الأعمال وتسهر على إيجارها كما لو كانت نار الحرب  
مؤججة ، وهكذا إلى أن ترويض وتمرن الجنود على الحرب  
وصدروا على أهبة لحسن على العدو عند الإشارة . ولما أيقن  
مثلوس باستعداد جيشه وقدرته على القتل والضمود ، أمر  
بالانطلاق وخرج الجيش من الولاية الرومانية وتوغل في  
المملكة النوميديّة على أن يوغرطة أعرض عن كل عمل  
عائلي . بل أوفد إلى القيادة الرومانية رسلاً للتفاوض معها  
وكلّسهم أن يستنوها استعداداً لتسلمه على أن يرضيه  
وتضمن له ولأبائه الحياة . وعندها يترك الأمر لروما وشعبها .

ولها وله سديد الرأي

واتصل مثلوس بأعضاء الوفد واستنطقهم الواحد تلو  
الآخر وحاول رشوتهم على أن يسلموه يوغرطة حياً أو  
ميتاً . ولكن كيف يتجاسر انفصل الروماني على الاتصال  
برسل يوغرطة فرداً فرداً ، وكيف يتحاصر على محاولة إغرائهم  
بالذهب واشترائهم ؟ وإجابة عن هذا السؤال يدعى صلّوست  
أن الأفارقة حبلوا على الحيانة ونقل الرأي والإرادة ، وهذه  
من الأحكام التي نحتها عدد غالب المؤرخين الرومان الذين  
تحدثوا عن الأمازيغ . فإذا تعرضت تيت ليف «Tite-Live»  
إلى القبائل الإفريقية وصمها بالخيانة والمكر . ولا شك  
أنها أحكام لقيمة لها . بل وإن دلت على شيء فهي تدل  
على العداوة التي كان يصرها الرومان تجاه الأمازيغ . ولذلك  
أسباب كثيرة : منها إغراضهم عن دنيا رومان ، ولعلهم أن  
لأمازيغ بموا متشبّين بالحضارة البونيقية أيام الهيمنة الرومانية .  
ومنها عدم حضور القناصل لسلطان روما . فلم تعرف سماء  
عربية اسلم في عهد الرومان ، بل ما انفكت لقناصل تنحين  
الفرص لشق عصا الطاعة والوقوف في وجه العدو الناصب .  
ذاق الرومان الأمرين في افريقية منذ عهد قرطاج ، فأضرموا لأهل  
عربية عداوة جعلتهم ينعونهم بنعوت تنال من كرامتهم .  
وفي تلك العداوة دعايه تعليل ما قد يسلطه الرومان على

الآخرة وتشرع منه من جرائم إرغام . أليس ذلك من دواعي الشك  
فيما قاله صلّوست حور ارتشاء رسل بوغرطة ؟

هـ زحف متلّوس على المملكة النوميديّة :

كان متلّوس يكسح الأراضي النوميديّة دون أن تعترضه  
عقبة في طريقه . لقد استولى على المنطقة المسماة وقتذاك  
بالسهول الكبرى . وهي الكائنة بالمجرى الأوسط من نهر  
مجرده . كتب جيوش الرومان نسير آمنة عبر المملكة النوميديّة ،  
وكأنّها في بلاد صديق حتى كان الفلاحون يمزراعهم  
يعملون ، والحيوانات ترتع في المروج ، والمدن مفتوحة أبوابها ،  
ولا شيء فيها ينمّ عن الحرب القائمة بين بوغرطة ومتلّوس .  
بل كانت المدن والقرى توفد الرسل يستقبلون جيش الرومان  
بإذن من الملك بعنه حسب رغبة صلّوست . وكانت الوفود  
النوميديّة حسب نفس الرأيه تعرض على القيادة الرومانيّة  
القنصوح بزيدها ، كما كانت تتمرّ عن استعداد أهل البلاد  
لمزاورة الرومان في نقل الأثقال وتعبيد كل ما نره القيادة  
الرومانيّة صالحاً ، وما يعسر على القيادة الرومانيّة هو على  
أهل البلاد سر .

تسلّطت الجيوش الرومانيّة إذن على مدن عديده وأرياف  
شاسعة كانت تقع بالمطقة الوسطى من وادي مجرده

ومن أشهر مدنها باجة (85) فقد دخلتها جيوش متلّوس دون  
أن تصدّي لها قوات الملك بوغرطة . كانت مدينة باجة  
وتنبر مركزاً من أهمّ مراكز القنصوح . بل كانت سوقاً  
عظيمة يأتيها الناس من كل صوب لبيع القنصوح وبيعها .  
كما كانت مدينة باجة تأوي جالية رومانيّة من كبار التجار ،  
ولا شك أن متلّوس كان مستبشراً بوجود تلك الجالية ، إذ  
سوف تساعد على القيام بمهمته وتمدّه بالميرة وبكل  
ما قد يحتاجه الحندي في بلاد أجنبية زمن الحرب . تسلّط  
القائد متلّوس على باجة وتخذها قاعدةً ينطلق منها جيشه  
عند تحركاته ، واختزن فيها المؤونة واللحيرة الحربية ووضعها  
تحت حراسة حامية من جنوده .

وفي أثناء إقامته باجة أرسل إليه بوغرطة وفداً أوصاه أن  
يعرّ عن استعداده للاستسلام والخضوع المطلق شريطة أن  
يؤمّنه ويؤمّن أبنائه . بيد أن القنصص الروماني أخذ يعمل  
على حمل أعضاء الوفد النوميدي على مخادعة ملكهم حتى  
يسقط في قبضته . ويدّعي صلّوست أن القيادة الرومانيّة  
تحصّلت فعلاً على وعود في هذا الشأن . ورجع الوفد النوميدي  
صفر الأيدي لأن متلّوس كان يريد بماطلة الملك بأجوبة سلبية  
لاتقيد لرفض ولا تفيد الموافقة فيما يتعلّق بالتفاوض . حتى

(85) لدينا وثائق اديّة وأثرية عن تاريخ هذه المدينة العتيقة .

ومع بوسنة عن حقيقته لأمر ، حيث كان مثلثوس كما  
أشرفا - حين - سبطه ويعاصه سبها وقد كانت أعماله  
تتأخر أسرا

كما مثلثوس يشير إلى السم في بصرجاته ، وفي الوقت  
نفسه يصنع جيشا آمدا حتى يكتسح المدن والأردف  
الرومانية ويتسلط عليها سؤارة ايجالية الإيطالية . وتفتن  
برعرة . أيضا لما كان يقوم به مثلثوس من ساع قصد إغراء  
بعض أمراء الرومانيين عليهم بسلامة ملكهم . فمس كل  
ذلك حرم يوغرطة أن لاماص من الحرب ، ولم ين له إلا  
أن يترخى الحذر ، وأن يحابه العدوان بالعدون حتى لا يذهب  
صحية جيش كمر بالحلل السلبية ولا يفكر في شيء سوى  
انقض على ملك لوميديين

أخذ يوغرطة بنهيا لمحبة مثلثوس وحيرته ، فأرسل  
نفرًا من جنوده بمرقون على مواقع العدو ونحر كاته . وجد  
من سائل الرومانية فيالتي وسار بجيشه حتى أصبح على  
مقره من العدو بعدا يترقه بعيدا عنه تواريه المضاب  
وارتدب أشجاره لكثينة المحتله . وفي سبيع هاته  
المرتبة بجري سهر المثلث (Muthul) حسب التسمية  
الشمسية ويرجح أن سهر المثلث هو المعروف عندنا اليوم بواد  
السلامة

### • معركة نهر المثلث :

انتصب يوغرطة إدين بجيشه على تلك المرتفعات  
وأضحى يراقب مثلثوس وهو يتقدم بجيش منظم مستعد  
للاحتام . وما أن شعر مثلثوس بوجود القوات الرومانية حتى  
أمر بالتوقف وأعاد تنظيم الصفوف الرومانية ، ثم أشار  
باسير نحو نهر المثلث ، وكان قد أرسل أحد مساعديه الذي يدعى  
روكيلوس «Rucilius» أرسله صحة بعض الوحدات  
اختيصة وكوكبة من الترسان ، وكلّفه بإقامة المعسكر على  
صفة النهر بمكان حصين لا يخلو من الماء الصالح لشرب .

أما يوغرطة فقد بقي بمكانه مخفيا تواريه الأشجار  
حتى تقدّم الجيش الروماني وتجاوز حنلحه الأيسن المرتفعات  
الموارة للحبوش الرومانية . وعند ذلك أمر يوغرطة ألعين من  
المشاة أن يتصبوا على الجبل الذي كانت ترابط به لجوش  
الرومانية حتى لا يتمكن مثلثوس من العودة إليه ولتحصن به .  
ولما انتصب المشاة على الجبل أشار الملك بالحملة على العدو .  
فانقضّ التومسديون على صفوف الرومان فجأة فكانت البلبلة  
واختل النظام . على أن جنود يوغرطة كانوا يأبون الانتحار على  
قول المؤرخ صلتوس . بل كانوا يقتربون من العدو حتى  
بخافهم ويتأهب لقتالهم ومطاردتهم . فعند ذلك يتعدون عه

سرسر رحيل بعض الوحدات الرومانية عنهم منفصلة عن  
سرسر رحيل بعض الوحدات الرومانية عنهم منفصلة عن  
سرسر رحيل بعض الوحدات الرومانية عنهم منفصلة عن

سرسر رحيل بعض الوحدات الرومانية عنهم منفصلة عن  
سرسر رحيل بعض الوحدات الرومانية عنهم منفصلة عن  
سرسر رحيل بعض الوحدات الرومانية عنهم منفصلة عن

سرسر رحيل بعض الوحدات الرومانية عنهم منفصلة عن  
سرسر رحيل بعض الوحدات الرومانية عنهم منفصلة عن  
سرسر رحيل بعض الوحدات الرومانية عنهم منفصلة عن

سرسر رحيل بعض الوحدات الرومانية عنهم منفصلة عن  
سرسر رحيل بعض الوحدات الرومانية عنهم منفصلة عن  
سرسر رحيل بعض الوحدات الرومانية عنهم منفصلة عن

كلف مساعد روتليوس «Rutlius» - كما أسلفنا - تنصيبه  
على مقربة من النهر في مكان حصين ، وله تكن مهمة  
روتليوس باليسيرة لقد تصدّى له فلبس بومبي كان تحت  
قيادة بُد ملقرط (86) (Bodmelqart) ولكن الرومان  
كبدوا حائز فادحة في الرجال والعتاد حتى لاذ بالفرار ،  
فأتبع لروتليوس أن يقوم بهمة أحسن قيام ، وأتيح لجيش  
الروماني أن يتجمّع في ذلك المعسكر ، ورايط به أربعة أيام  
حتى تصمدت جروحته واستعد قواه

أما يوغرطة فتوغل في مطقة كثيفة الأشجار محصنة ،  
وبها جمع جنوده وأخذ يستعد للقتال مرة أخرى ، غير أنه  
بعد النظر في معركة المثل ودرس نتائجها رأى القنصل متلوس  
لزماً عليه أن يغيّر مباح الحرب . أيقن أن لاجدوى في  
المعارك المنظمة إذا . يتوق جيش على جنود يوغرطة ويحبرهم  
على الفرار دون أن ينتصر عليهم انتصاراً كاملاً . ومع  
الانتصار لاماص من ربع ثمن بامص ، وما الفائدة إن كان  
الانتصار لا خد . فادحة لا يمكن تعويضها ؟

تلك هي الذم التي جعلت متلوس يغيّر منهاج  
الحرب ، فعوض مبارك لمطمة غدا يؤثر الهب والتخريب ،

(86) بد ملقرط ، أحد أعوان يوغرطة وأرجح أنه من قبيلة نوميدية . على أنه يعمل  
اسماً بومبي كما يشهد تأثير أفعاره البوقية على التوسمين .



فكد بينه بئر في الأرض ويستريح خيранته ويحطم حصونها ويصرم اثار فيها ويمتدح المدن الصغيرة الضعيفة ويفسح بجنوده المجال للنهب والتخريب ، وقد كان طاقته الفطائش الرومانية صدى بيد ، فاستوى الملح على قلوب أهل المدن فاستسلموا ، وسلموا القيادة الرومانية رهائن عربون اطاعة وحضور ومدواها بالمؤونة ، وكان لقتل ملئوس لايترو مدينة دون أن يسلط عليها حامية من حوده لأن يرعرب في تلك الظروف يتحين انفرس مهاجمة الجيش الروماني : يخرج ليلا بجنوده ويتص في طريق الرومان وينقض عليهم كلما ساعدته الظروف فيقتل ويؤسر ثم يهود من حيث أنى ثم كان لايترو د في تسميم الأعشاب والميون حتى لا يستشها الرومان سلامة . كذلك كان الجيش الروماني يدرب في مسرته دون أن يتمكن من ضرب عدو يحمل سبه ويأتي الانتقام

— • معركة رامة :

على أن القائد الروماني كن لايمكر في شي سوى الصرب عاجلا والنصاء على جيش سوغرطة ، لأن الزمن كان يعمل في صالح الملك . ذلك الذي كان يأبى الانتقام ، بل يؤثر اللقاء بحث صي الخفاء ولا يحمل إلا في الظروف المساعدة .

فكلما ابتعدت شرومة من الجيش الروماني عن معسكرها تنقها فرسان الملك الافريقي وانهالوا عليها ضربا وقتبلا . كذلك أصبح جيش ملئوس عديم الطمأنينة يعيش تحت عبء الأخطار ، وكان عبؤها يتقل مع مر الزمان حيث كان الجيش لروماني يتلقى ضربات مبددة ولم يكن في إمكانه التكهن بها ولا التصدي إليها .

ولما كان آخر الصيف من سنة 109 قبل المسيح أراد الفصل شن حملة عنيفة وأمله أن تتكسر شوكة العدو قبل حلول فصل لشتاء ، وبدا له من الصالح في هذا الشأن أن يحاصر مدينة زامه حتى يمتحها ويتسلط عليها . ومدينة زامة من أعظم المدن التوميدية ، تقع وسط سهل فسيح تَعُوْزُهُ الحصانة ، وكانت توجد حسب نظرية ستيفن قرال Stephane Gsell في المنطقة الممتدة بين مدينتي الكاف ومكشر . على كُـلُّ قَلْعْد عملوا على تحصينها فأحاطوها بسور ميع . كان القائد الروماني يأمل أن يسرع يوغرطة إلى مؤازرة أهل المدينة فيلتحم جيشه بجيش لرومان في ميدن تكون فيه اعبية للرومان نصراً لتفوقهم في العدد والعتاد . ولسم نكس الحيلة لتطلي على يوغرطة بل اكتشف الخطة عن طريق بعض الذين تركوا صفوف الرومان والتحقوا به لأسباب لم يذكرها المؤرخ ولو فعل لاتصحت لنا بعض المشاكس

المتنفة بدريخ الرومان وتاريخ المملكة التوميدية في الحقن  
السياسي والحمل العسكري .

كتب النطاء على خطة متلوس إذن قبل إنجازها  
تقدمه بوغرطة إلى مدينة زامة (87) ولما أدركها ترجه  
إلى أهلها يناشدتهم الوقوف في وجه العدو صامدين ، حتى  
مدافعوا من حرمة مدينتهم ناشدوا ملديهم من إيمان وأسلحة  
ثم ترد أركك الذي فرّوا من صفوف الرومان وأشار عليهم  
أن ياتلروا حاب أهل المدينة واقفا أنهم سوف يقانلون  
بكل شجاعة خشية سقوطهم بين يدي متلوس ذلك الذي لن  
يشفق على الخونة بل سيعا ملهم بأشد القساوة فيما إذا كانت  
الغلبة له . وكانت خطة بوغرطة أن يبارح المدينة على أن يعود  
إليها وجيشه عدد الأول . وعادر المدينة معلا والتحق بمناسق  
كثيفة لأشجار حيث يستطيع مراقبة العدو وتحركاته خفية

كان جيش بوغرطة محتلداً في الغابة تواربه الأشجار ،  
فدا سيقول : إن أحد ضباط الرومان تقدم على رأس بعض  
الوحدات الرومانية نحو مدينته سقة (Sicca) وهي الكاف  
حاليا وكانت من المدن التي فتحت أبوابها لجيوش روما خشية

(87) زامة : إحدى عواصم المملكة التوميدية ويلغو عن ضرب ما أورده صدرت أنها  
نحس عن زامة تلك التي مشتهرة بالمركة التي دارت بين حتمل وشيون .

القمع إذ كانت اقيادة الرومانية لا تردد في تخريب المدن  
وتقتيل سكّانها .

كان ماريوس (88) أحد مساعدي متلوس يريد  
مدينة سقة لاقتناء القمح . ففاجأه بوغرطة ليلا ومعه  
نخبة من فرسه . وحمل على الوحدات الرومانية أثناء  
خروجها من باب المدينة وناشد في الوقت نفسه أهلها أن  
يتعقبوا العدو ويوقعوا به إذ هي فرصة سعيدة أتاحت لهم  
ليبلى البلاء الحسن ويتحزوا المفاخر . فهي ظروف إن استغلّوها  
تتمكنوا من اسرجاع استقلالهم وسلامتهم . وبها يكونون قد  
ساعدوا ملكهم على الاحتفاظ بمملكته .

وشعر ماريوس بالخطر الذي كان يحدق به فأمر بالخروج حالاً من  
المدينة ، ولو لم يفعل لسقطت الوحدات الرومانية تحت ضربات  
الثومبيين ، وبعد اصطدامات طفيفة قصدت لها أدركت  
وحدات ماريوس (Marius) مدينة زامة ، وكان متلوس  
قد ضرب الحصار عليها (89) واسما للهجوم خطوطه محدداً  
ليكل مهمته . ثم أمر بانزحف على المدينة التي كانت في حصن

(88) ماريوس . يسمى إلى عائلة ثرية لكنها ليست من الأشراف مما جعل ماريوس  
يخص جامعه ليلقي سلم الوظيفة العمومية والعسكرية منها بحدّة .  
(89) معركة زامة : انظر : صلوت : اميرة 57 وما بعدها

حبرنها الشائعة الحصية كما كان لها من العناد الخربي ما يعث  
 عن الأسفل ويستوجب التقدير .  
 كانت الكرة عنيفة لكن المدينة صمدت وتصدى  
 سكانها لصربات العدو وأرجعوه على أعقابهم ، فكانوا  
 يقفون على الراحضين أسحاراً وأوتاداً تكسوها الخرق مطية بالقار  
 الملتصق ، كما كانوا يسطرون عدوهم قطراناً محرقاً مزجوه  
 كبريتاً . كانت قذائف أهل زامة تمد جنود مثلوس ،  
 وبعضهم كان يعمل على تحطيم حدران المدينة من أساسها ،  
 وحروب كبار يستعملون السلاخ بولج المدينة من أعلاها .  
 وأقبل يوغرطة أثناء المعركة على رأس جيش عتيد ،  
 ويرجح أن انفصل الروماني كان يترقبه ليكتحم الجيشان كما  
 أسلفناه على ضوء رواية أوردها المؤرخ الروماني صلّوست .  
 أقبل إذن يوغرطة لكنه لم يحمل على الوحدات التي  
 كانت تسعى إلى تسلي حدران مدينة زامة بل توجه نحو  
 المعسكر الروماني ودخله بحوده فجاء معانوا به مصاداً ، وقد  
 استولى العرب على تلّوب الذين كتبوا بحراسته فلانوا بالمرار  
 ومنقت كثيرهم تحت سيوف التوميديين ورماحهم ، ولم  
 يثبت منهم سوى أربعين رجلاً تحصنوا على روبة كانت قرب  
 المعسكر فتصدوا لعدوهم صامدين وأعدوه عن ربوتهم قوة  
 قذائفهم .

خاض يوغرطة معركة المعسكر ، وانفصل مثلوس  
 منهمكاً في عملة الزحف على مدينة زامة ، واشتد الوطيس  
 وامتلاء الفضاء غباراً وصراخاً . فسمع القنصل ذلك فالتفت  
 وراءه ، فإذا بنفر من جنوده مقبلين نحوه فارتين فتذكر  
 المعسكر فأيقن بالخطر فأرسل الخيالة وأضاف إليهم ماريوس  
 يقود وحدات من الحلفاء لردع العدو وإنقاذ المعسكر فكان  
 الاصطدام ولم يتمكن - على قول صلّوست - رجال يوغرطة  
 من النبات أمام الخيالة ووحدات ماريوس وهربوا نحو أبواب  
 المعسكر فارتين . واكتظت بهم الممرات الضيقة فحاولوا عبور  
 لتارس قفراً وهلك الكثير منهم على أن الملك خرج سالماً  
 وانتف حول حنوده وأنصاره وانتدروا متخذين المنعرجات  
 والطرق المشوية حتى يتواروا دون أن يتعرف العدو على مواقعهم  
 ويتشع تحركاتهم .  
 كان يوغرطة وجنوده يعرفون بلادهم شبراً شبراً ولهم  
 في ذلك قوة على عدوهم إذ كانوا يحملون على الرومان من  
 حيث لا يدركون . وإن قرأوا ترى عدوهم عاجزاً عن تعقبهم  
 ولا تحاق بهم ، وتلك خطة معهودة لدى الذين يقاتلون  
 عدواً جبّاراً يتمتع بالتفوق في العدد والعناد .  
 أمّا المعارك وراء جدران مدينه زامة فقد تواصلت إلى  
 غروب الشمس دون أن تكون النتيجة الحاسمة . وعندها

مر القنصل الروماني جنوده بالكف عن الهجوم والعودة إلى أنهبام . ولما كان الصباح تجمّع الخيالة مصطفين خارج المعسكر وقيمت داخله قوات كفيفة ردع كل هجوم . اطمأن القنصل على حرسه المعسكر وسلامه . ثم سار نحو مدينة زمة وفادر بالكثرة عليها مشيراً أن ادخلوها بسلق حذرهما أو ففتح ملجأ بها .

كان الرومان مهتمين في المعركة مقلبين تارة ومدبرين طوراً . بدد يبرعطة يزحف عليهم على رأس جيش عتيد . فكانت معركة عنيفة وصفها المؤرخ صلتوست وصفاً دقيقاً طعت غايه . حركة والصراع وفرع الحديد للحديد في حو يملوه غار" كتيب . وبرجح أنه اقتبس هاته الألواح من نص الملحمت القديمة . وقد قمتن القدماء في وصف المعارك النحسية - ثائية كانت أو جماعية - وأدوع مالدنيا في هذا الميدان يسرد الفضل فيه إلى الشاعر اليوناني هوميروس (90) «Homère» الذي يبدو أنه عاش في القرن السادس قبل المسيح

وتقرض صلتوست إلى طريقة الترميديين في القتال ، فهم على حدّ قوله يندفعون كتلة حتى أنك ترى الخيالة

(90) هرودوتس - شاعر يوناني يرجع أنه عاش في القرن السادس قبل المسيح وله كتب مختلفة الإفادة والأدبية .

مدعين في صفوف المشاة ، ويتقدّم الجميع دفعة واحدة سماً كان يدهش الرومان ويحيرهم . ذلك أن الخيالة يتقدّمون في الزحف ليكسروا صفوف العدو ويفتحوا فيها فجوة . وعندما تكون الفجوة قراهم يدبرون ويتركون المجال للمشاة حتى يتخلّلوا العدو ويشتتوه أو يقتلوه .

وفما إذا تفرّق شمل العدو ولاذ بالفرر ترى الخيالة تطاردهم لنقتيلهم أو القبض عليهم ، فللخيالة إذن فتح الفجوة في صفوف العدو ومطاردة الفارين منه . وكثيراً ما تسعى الخيالة التوميدية إلى رشّ لقوصي في صفوف الرومان ، ولا يمكن تكبير شوكتهم إلا باختلال انظام عدهم . إنها لطريقة ناجعة وقد مكّنت يوعرطة من تسديد ضربات خطيرة لأعدائه سقط الكثير منهم في ساحة الوغى وداستهم سايك أخين و تناوشتهم سيوف المشاة ورماحهم بيد أن الملك اسوميدي لم يستطع خرق صفوف الرومان .

ومن بين الذين كانوا يدبرون القتال حول المدينة ، نجس الإشارة إلى ماريوس ، وقد لجأ إلى حيلة كادت تفتح له أبواب رامة : ذلك أن ماريوس لاحظ أن الجنود الذين كانوا يتصدّون لحملاته المتوالية ويسلطون على الرومان شرّ فداقتهم لاحظ أنهم كانوا يتتبعون المعارك التي كانت تدور بين يوعرطة وبعض الوحدات الرومانية . وكانوا يتتبعونها بحواسهم

وعراضهم بل كنت نزعهم يعمرون عملاً بخالفهم بحركات وأصوت كنت تصدر منهم تلقائياً من حيث لا يشعرون .  
 أراد عبد ذلك ماريوس أن يتركهم يعمرون في مشامتهم للمعركة التي يقوم بها يوغرطة . فأمر حموده أن يختاراً وطأنهم فكانت النتيجة كما توقعها حيث أصبح أسيراً سرور لا يشكرون إلا في يوغرطة ويعيشون معركته .  
 وانضم ماريوس عن الكر زماً ثم شن حملة عنيفة حتى تسكن بعض حموده من تسليق السلالم فكانوا على مقربة من نية الحدار ، غير أن أهل المدينة أسرعوا وأمطروا عدوهم فذائف عديدة محتلة . فسكن السلالم وسقط أصحابها على الأرض وهم الآخرون . لكن المعارك تواصلت إلى غروب الشمس دون أن يدرك سلتوس الهدف المرسوم . فابتعد عن رامة دسر حبيته حتى أدرك الولاية الافريقية الرومانية لينضم بها فصل الشتاء .  
 تسمر المعارك التي قام بها منلوس عن نتيجة ملموسة بل يحزن لنا أن نقول ببشله . وما قد أقبل الشتاء وسقى الحيوثر تحت حيامه ولن نخوض معارك جديدة قبل حلول الربيع . عن أن الفصل الروماني كان يريد الانتهاء من حرب يوغرطة في أقرب الآجال .  
 مرأى من الصالح أن لا يبقى مكوف اليبين طيلة فصل

الأمطار ، وبدأت يحاول القضاء على يوغرطة عن طريق الحيل والمكائد ، وهي وسائل قد لجأ إليها سابقاً لما كان يوغرطة يرسل إليه وفوداً تعرض عليه التفاوض وإحلول السلمية . وأورد صيرست أن منلوس كان يريد استغلال خث الأفارقة وبقائهم . وهنا يجدر بنا أن نشير إلى العداوة التي كان الرومان يكتونها لأهل إفريقية . فكلما تعرض أحد المؤرخين إلى الأفارقة رأجه بنعمهم بالحب والتعاقد . كقولهم « جس خيث . جس خداع » . وهي عبارات كثيراً ما نجدها في تحارير تيت ليف (Tite-Live) وغيره (91) فقد عمل الرومان جهدهم لتشويه الأفارقة وللطعن في شرفهم فكانتها حملة دعائية كان يقوم بها عملاء السياسة التوسعية لعليلاً للحروب التي كانوا يشتونها لبسط نفوذهم على إفريقية وانتزاعها من أيدي الأفارقة .  
 وكان صلتوس من الذين ساهموا في ترويح تلك الأحكام المشينة ضد الأفارقة ، بل يصيف أن الحب والتعاقد من صيغ الأفارقة . من ذلك نرى أن المؤرخ الروماني يطب في وصف الطريقة التي توخاها منلوس لاستغلال خث الأفارقة وتفاقمهم .

(91) كلما تحدثت تيت ليف عن الافارقة اصافهم فيظنوا على الحب واحدة انظر : Tite-Live, XXX. II.

مدعا فنفس الروماني حالا مساعديه للتشاور معهم  
والسر في شأن يوغرطة وانتهت النوبة بإصدار أمر حسب  
التأليد الرومانية العتيقة مضمونه مطالبة يوغرطة بدفع  
ضريبة قدرها ألفا وزن روماني من القنصة ، كما طالبوه بتسليم  
كل مايديه من القبيلة وتسليم كمية من الأسلحة وعدد من  
الخيول . وما أن تم تطبيق تلك الشروط حتى طالبوا يوغرطة  
بتسليم اخوته أولئك الذين غادروا الصفوف الرومانية ولحقوا  
بحيثر يوغرطة وتم تسليم البعض منهم لكن غالبيتهم  
شعروا بالخطر منذ افتتاح المفاوضات وغادروا المملكة  
النوميدية نحو موريطانيا وكان على عرشها ملك يدعى ككوس  
انضمت لقيادة الرومانية أسلحه يوغرطة وأخذت ماله  
ثم أسرته بالحصور في مدينة سماتها صلتوست تيزديوم  
«Thysdrum» ولم يوفق المؤرخون في ضبط موقعها  
اجبرني ، ومن المرجح حسب المؤرخ ستيفان اقيرال  
«Stéphane Coet» أنها تقع قرب مدينة مجار الباب  
في المكان المعروف اليوم « قريش الواد » .  
أسروه بالإتيان إلى مدينة تيزديوم وفيها ينلقى أوامر  
القيادة الرومانية . على أن يوغرطة أوجس حيلة فغير  
موقعه خشيته الوقوع تحت حكم الرومان وسر العقاب .  
وتم ينأرجح بين الامثال لأوامر عدوه وبين العودة إلى

الحرب . كان ينظر إلى الهوة التي تفصل بين العرش والعبودية  
فاستولى عليه الفلح حتى وقع اختياره في النهاية على الحرب .  
فعاد إليها ولم يأت مدينة تيزديوم .

وبعد الخيرة والاستسلام استرجع يوغرطة قراه المادية  
والمعموية فقام وشده ميتره للحرب . لقد أضعفته القيادة  
الرومانية معلا بشروطها المجحفة . فسلمها أمواله وأسلحته في  
فترة قنوط حلت به ثم عاد إليه توازنه فأظهر من الذكاء  
والحكمة ولنشاط ما جعله يجتد لرجان ويشترى العتاد ويعزز  
حصونه . وكان حسب الظروف يستخدم الوعد والوعيد  
لاسترجاع المراكز التي استولت عليها القوات الرومانية  
حتى يتخاذل متلوس وتلتحق بصفوفه . بل لم يتردد في رشو  
الحاميات الرومانية .

كان يوغرطة نشط إذن والنجاح يكمل جهوده وقد  
تمكّن من استرجاع لأراضي التي اكتسحتها جيوش متلوس  
سوى نقط كانت تربط بها حاميات رومانية مغلصة . وتقدم  
بحيجه أثناء فصل الشتاء وحشد بعض قواته على معركة من  
الولاية الافريقية الرومانية بن قرب المعسكر اروماني بالذات .  
وفي أواخر سنة 109 قبل المسيح انتهت المهمة التي  
أنيطت بعهدة متلوس ، والمعلوم أن القنصلية كانت تسند  
لمدة سنة واحدة . انتهت قنصلية متلوس بنهاية السنة لكنه

رواية شومانية. تسدها إليه مجلس الشيوخ وغندره  
 من مصادره. Perseus. وبعدت كس منتوس أن  
 حدة الحوش رومانية في الديار اوميدية ولشر  
 بعد رومس من رفس الجيش الروماني بوفيقية فليس ذلك  
 من رومس واسبانيا. بل سبها وراء الحدة وتقرت بهاة  
 بعد رومس واسبانيا. بل سبها عن كاهن شعب الروماني  
 رومس رومس رومس : (٩٥)

رواية شومانية. تسدها إليه مجلس الشيوخ وغندره  
 من مصادره. Perseus. وبعدت كس منتوس أن  
 حدة الحوش رومانية في الديار اوميدية ولشر  
 بعد رومس من رفس الجيش الروماني بوفيقية فليس ذلك  
 من رومس واسبانيا. بل سبها وراء الحدة وتقرت بهاة  
 بعد رومس واسبانيا. بل سبها عن كاهن شعب الروماني  
 رومس رومس رومس : (٩٥)

إلى مازلم ليشاركوهم عيدهم فقبلوا . ولما انهكوا في  
 الأكل والشر كانت المهكة وسقط الضباط تحت ضربات  
 مصيقيهم ولم ينج منهم إلا قائد الحامية .

ثم خرج المتآمرون وساروا بأهل المدينة وحملوا على  
 الجنود وهم يتنزهون عبر السوارع آمنين مطمئنين . فاستولى  
 عليهم الخلع والخيرة وقد رجدوا أنفسهم عزلاً لأفائد لهم  
 ولاسلح . وستملى المتآمرون على القلعة حيث توجد الأسلحة  
 وأغلقت أبواب المدينة في حين أن النساء ولأطفال كانوا يلقون  
 القذائف المختلفة على حنود روما قتلوا شر قتلة ولم يخرج  
 على حد قول صلتوست من المدينة سالماً سوى قائد الحامية  
 وهي رواية أقرها الفيلسوف اليودي بلوطارق «Plutarque»  
 لكنه من العير أن يقف عن الأسباب الحقيقية التي مكنت  
 ذلك القائد من الحياة .

ولم يقف صلتوست على حل مرضي لتلك المشكلة ، بل  
 كنفى بالسؤال حيث يقول في الفقرة السابعة والستين من  
 كتابه : إن القائد نرطيليوس «Turpilius» هو الإيطالي  
 الوحيد الذي فر سالماً . فهل كان ذلك من باب العطف عليه  
 أو نتيجة اتفاقية سرية ؟ أم هل كانت سلامته من باب الصدق ؟  
 ذلك ما لا علم لنا به ومهما يكن من أمر فالرجل الذي تحل

به مضحية كهده ويؤثر حياة بلا شرف على سمعه فبته بنغي  
اعتباره من الأشقياء الآنزال .

وترفض الفيلسوف بلوطارق «Plutarque» - عاش  
في القرن الثاني بعد المسيح - إلى مسألة قتريليوس وحياته  
من كارهه باحة وأثبت أنه إذا لم يمسه المتآمرون بشر  
فذلك حسن معاملته لأهل المدينة حيث إنه لم يسلط عليهم  
أحكام الخابرة . تلك هي رواية بلوطارق ، ومن العسير  
عليها أن نرى أنها أوفى . ونحن إذا رجع للاختيار فلا يرى  
معيماً بل أخذ موقف التساؤل في هذا الشأن وهو موقف  
التأني والخبر فلا فائدة في تفسير وتعليل بدون حجة  
نقدمها أو وثيقة يرنكز عليها حديثنا .

مع نبأ الكارثة متلوس وهو مدينة نيرديوم  
«Terdium» فقيل إن نأتم شديد الألم من  
تلك المصيبة حتى أنه اعتكف بحبسه رماً منترداً لا يريد  
مقابلة أي كاد وتلصقت عليه مشعر لونها اعصب والألم  
بث لا يسكر إلا في الانتقام ويفتش عن أسرع الطرق  
ونجح سريع ذلك الهدف شوة التوميدون شرف روما  
ودامسرا كرامتها فالواجب على القائد أن ينتقم لها ويظهر عرضها  
كأن متلوس مقيماً بمدينة تيرديوم ومعه بليق  
من الجيش الروماني وثلة من فرسان سوميدا لاندري الأسباب

والطروف التي جعلتهم يضمون إلى صفوف الرومان ، ومهما  
يكن من أمر فقد أشار متلوس على جنوده بالرحيل عند غروب  
الشمس حتى يكون الليل من حانبه . سار متلوس ورفاقه  
طيلة الليل . ولما كان الصباح أدركوا سهلاً تحيط به  
هضبات وقد أنهكهم التعب . وطلبوا للراحة رأوا أن يقيموا بذلك  
السهل بل وأحجموا عن السير فقام فيهم متلوس خطيباً وشرح  
لهم سيرة المهمة ملاحظاً أنهم على مقربة من باجة لاتفصلهم  
عنها إلا بصعة أميال ، وأضاف أن الواجب بطلهم تتحمل  
الأنساب صامدين حتى يتقموا لمواطنيهم أولئك الذين كانت  
شجاعته في مستوى الكارثة التي حلت بهم . ثم أخذ  
القائد يلوح لجنوده بوفرة لغنائم التي تترقبهم . وهكذا  
بث الشجاعة من جديد في قلوب رفاقه وأعاد لهم قوة عزمهم  
وضرب على أوتارهم الحساسة حتى هبوا يطالبون بالسير  
قدماً واثنا يترقبون المعركة بهارغ . صر

وقبل أن يشير متلوس بمتابعة السير نحو مدينة باجة  
أعاد تنظيم جيشه . فأمر الفرسان التوميديين أن يكونوا بالمقدمة  
وأشار على المشاة أن يسيروا خلفهم في صفوف مرصوصة  
وأمرهم أن يخفوا راياتهم .

شاهد سكان باجة جيشاً يتقدم فأوجسوا خيفة وكانوا  
يتوقعون وصول جيش متلوس فأغلقوا أبواب المدينة . على



أنهم لمّا شاهدوا الجنود يتقدّمون دون أن يلحقوا مزارعهم ساداً ثمّ ما لاحظوا مرساة أفرقة في دليجة لجيش خالوه يوغرطة فمروا يستقبلونه وهم في عمرة من البهجة والاستبشار . ربما راعهم إلاّ أن رأوا جيش مملّوس يحمل عليهم بكلّ قوّة وعنف . وانتهالت الجنود الرومانية على أهل المدينة يقتلهم . وأسرعوا نحو الأبواب والأبراج واستولوا عليها ، وانتصَحَ أن لا ماعلية لتتبع إن كان المرء تحت سلطان الفصّ وحسب النسيمة . وهكذا سقطت مدينة ماسة ثانية تحت يدمتلّوس وكانت فريسة الانتقام .

أما قائد الحامية تريبليّوس «Turpius» ذلك الذي استطاع الحروح سالماً من الكارثة التي دهمّت بالحامية الرومانية فقد طلب منه مملّوس تقديم أعذاره ، كما طلب منه أن يبيّن كيف آثر الحماة على الموت وبأي ثمن اشترى حياته . لكنّ تريبليّوس لم يتمكن من تقرير موقفه فحكم عليه وجلّدَ ثمّ مطعوا رأسه . ولئن جلدوه قبل تنفيذ حكم الإعدام عليه بذلك لآلته كان لا تيسيراً وليست له حقوق المواطنة الرومانية «a civitate romana» فلو كان مواطناً رومانياً لأعفي من الضرب

ويبدو حسب رواية صلّوست أنّ الأمير بدملقوط كان في تلك الظروف مهمكاً يفشّش عن طريقة تساعد على

الإيقاع بالملك يوغرطة . وكان يحاف عاقبة الأمور . ولعله كان يخشى أن يقف يوغرطة يوماً على ما داربسه وبين القيادة الرومانية . وقد أصبح الملك ينظر إلى مساعديه بعين ملؤها الارتياب وعدم الثقة . فاحتار بدملقوط ورأى من صالحه أن يوقع بالملك مهما كانت الظروف وكلفه ذلك ما كلفه . لقد كان يريد أن يسلمه حياً لكن أصبح القضاء عليه محتتماً .

على أنّ بدملقوط كان في حجة إلى مساعده يؤزره في حيك المكيدة وتنفيذها . فاتصل بأمير نوميدي يدعى نبدلسة «Nabdalsa» وكان ثرياً قويّ الجاه يحبّه الملك ويعتزّ به ، وكثيراً ما كان يوبّ الملك على رأس الجيوش النوميديّة . لقد اتصل به بدملقوط وأقنعه بضرورة القضاء على الملك . وتمّ الاتفاق بين المتآمرين وضرباً موعداً لتنفيذ المكيدة دون أن يقع رسم خطة مضبوطة . وبدّعى صلّوست أنّهما اتفقا على رسمها عد الأوان طقاً لما قد تملّيه الظروف .

ثمّ اصرف كلّ واحد منهما في شأنه وكان الأمير نبدلسة إذ ذاك مكثّ بقيادة الجيش النوميدي وقد أمره يوغرطة أن يربط وجيشه على مقربة من المعسكر الروماني . ولما كان اليوم المضروب خاف نبدلسة من يتحق بالمكان المعين . فاحتار بدملقوط وأرسل مكتوباً إلى صاحبه نبدلسة

بعين عمله حننه ويشير إلى وعود القيادة الرومانية وأصاف في مكنونه أن يوغرطة عن وشك هلاك . وإن لم يسقط تحت يد نومبيديس فهو لا محالة ساقط تحت ضربة الرومان . ثم كتب الرسالة ذكرًا أنه بقي لندلسة الخبير بين العقاب والجزاء . تسمي لندلسة مكتوب زمينه وكان على فرشه يستريح ولما فر الرسالة استولت عليه الخيرة حتى أنهكت قواه معدا في سات عبيق . وكان لندلسة كاتب لا يخفي عليه سيرا ما تنق أن ولج الخيسة وسيده يعط في نومه التصل وأخذ الرسالة وأطلع على محتواها ثم أسرع ليحيط بها الملك علما . واستيفت رسالة بعد حين فلم يجد الرسالة وقيل له . إن كانه غادر المعسكر فربط الأمير النوم - ي بين الأمرين واستولى الرعب على قلبه فأرسل رساما ينقبرنه ومهمتهم القبض عليه . لكنهم لم يفلحوا . وعند ذلك امتطى ندلسة حصاه قاصداً يوغرطة أملا في تهدئته وإقناعه براءته . ولما كان بين يديه قال : إنه كان عازما على إحاطة الملك علما بحوى الرسالة . ويبدو على قول صلوت أنه كان يحدثه ويحاول إقناعه مشيراً إلى روابط الصداقة والمحة التي كانت تصل بينهم

وكانت النتيجة أن أمر يوغرطة بإعدام بدمقرط وثلة من الذين شاركوه عمله من قريب أو بعيد ، على أن ظروفها

سياسية واجتماعية حالت دون عقاب ندلسة ، ذلك الأمير الذي ساهم في حبل المكيدة واحجم عن تنفيذها خوفاً . ولما بلغت ألباء هاته الأحداث متلوس استقر أمره على مواصلة القتال . وأخذ يعد العدة للحرب من حديد . وكان يؤمن بالنصر لقرب نظرا لحز يوغرطة وقد أضحي لايتق بمساعدته بعد المؤامرة التي أشرفت به على الهلاك . أليس من العسير عليه أن يحوض حرباً ولا ثقة له بالذين يحيطون به ولا يستعين بهم وقد لا يرى فيهم سوى أناس ينكاليون على الكيد له والقضاء عليه . وكان يوغرطة شديد الاضطراب عديم الاستقرار يتأرجح بين أمر وسواه : تراه يهاجم العدو تارة ويتوغل طوراً في الوادي هارباً وقد دناحه الشك في شجاعة جنوده ووقائهم . تلك هي العواصم التي جعلت متلوس يؤمن بالبصر لقرب ، وفاجأ يوغرطة ذات يوم وأجره على خوض معركة . وانهزم يوغرطة ولم تصمد جنوده في وجه العدو بل تركوا أسلحتهم وراياتهم ولاذوا بالفرار على حد قول صلوت .

#### • معركة تالة :

وتجه يوغرطة إلى مدينة تالة وكانت قلعة حصينة تحيط بها جدران منيعة ، وكانت فيها خزينة الملك (93) (93) يبدو عن شوه المصادر القديمة أن يوغرطة كان يضع أمواله من ذهب وفضة في مدن مختلفة منها تالة وتاعة وفضة وغيرها ولعلها كانت عواصم قديمة .

ومها حصن يقيم به أنناؤه الضار . إنها مدينة ثرية لكن  
صديقه سمرام لاءاء ميبه ولا ثبات وأقرب سهر لها يوجد  
على بعد 74 كلم

سنى نة صورة مينة كما رسمها المؤرخ الروماني  
صسوست لانسب المدينة التونسية التي تحمل اسم نالة  
ومى توجد حوب مدينة بكاف وتعد عنها مسافة طولها 72  
كلم سرت باسم نالة منذ امصور الفائرة . وميما تجدر  
الإشارة إليه هو أن نالة اسم بربري يعني العيس (عين الماء)  
فلا عاربة إن حملت مدناً عديدة هذا الاسم الجفراي . ومن  
ذلك نرى أن المدينة التي يشير إليها صسوست قد تكون غير  
مدينة نة الحالية الأمر الذي جعل المؤرخين يجهلون  
في صسوست موقعها استناداً على ما أورده صسوست في الفقرة  
الخامسة ولسمين من كاه ذكر المؤرخ الروماني أن  
نالة شدة مدينة نصصة وعالجه يرى بعضهم بفتشوب عن  
مومس في الجنوب التونسي حيث توجد قرية نسمى سد  
نصص تقع بين نصصة وحليح قانس . لكنها نسبة عربية  
لا وجود لها قبل دخول العرب إلى دارنا . كما أن الجهة  
لا تسمى النصصيات التي ذكرها صسوست والخاصة بضمواحي  
الدينة التي يشير إليها . فالأجدر بنا أن نترك هاته المشكلة

جاسا إذ لا سبيل إلى فتح أنفألها ما لم ذات معلومات أخرى  
تسير طريقنا .

ولئن عحر المؤرخ اليوم عن معرفة موقع نالة بالضبط  
فالأمر كان غير ذلك بالنسبة لمتلوس . وما بلغه نأ وجود  
يوعرطة بها حتى أقر العرم على الذهاب إليها والالتحاق بالملك  
مهما تكن الظروف والعقبات ولم يكن يجهلها كل الجهل  
بل كان راعياً بحطورة المجازفة حيث ترقبه الصحراء بحرماً  
وعطشها وريحها السموم . وهي عقبات ثقيل ورنها . لكن  
القائد لم يكتف بها بلالة من رباطة جاش وعزيمة .  
وأوصى أن تحمل المشية قمحاً وماء دون أن تتحاوز  
الكية ما يكفي الجيش مؤونة طيلة أيام عشر . وفرض على أهل  
المطقة أن يسلموا حيواناتهم والأنعام منها بخاصة . أحلوها  
لتحمل أنفألهم ويشير صسوست إلى أناني من خشب كان جنود  
متلوس يأخذونها من أكواخ الأفارقة . فهل كانوا يملؤن  
نلك الأناني ماء أو طعاماً ؟ ذلك ما لم يذكره المؤرخ الروماني .  
وم تكتف القيادة بأخذ حيوانات المنطقة بن فرضت على  
السكان أن يزودوا الجيش ماء . ولما كان على أهية أمرمتلوس  
بالميرة حتى أدركوا مكاناً نزلوا به للراحة .  
أنفألوا إذن مسكرهم وحصنوه وقيل: إن السماء جادت  
يومها بأطار غزيرة حتى أصسحت كية الماء نفوق حاجة

اجبود . وقد تيمّرا بلك الأمطار وآمنوا أنّها مياه أرسلتها  
الآفة تشحيما لهم وبشرى بالنصر المبين فقيوت عزيمتهم  
واردادو حماسا . وفي اليوم التالي واصل الجيش الروماني  
سيره حتى أدركوا مدينة تالة . فأخذ كلا الحسين يتأهب  
لمعركة حاسمة

عنى أنّ الملك عادر المدينة صحبة أبانه وكأنته تسأ  
سقوطها تحت أيدي الرومان . فالذين حازبوا بحياتهم وقطعوا  
الصحراء حتى أدركوا تالة سوف لا يخلون صعوبة في  
السلف عليها ونهها . لذلك تركها الملك وشأنها مستترا  
بظلام الليل وقد أخذ من أمواله ما أمكنه نقله .

أما بالنسبة لأهل المدينة فلم يصارحهم بوعرطة بما  
كان يخالجه من عواطف وتخمينات خشية أن يسقط ضحية  
إحدى المكائد . بل عذر أن أمورا تناديه عاجلا . غادر الملك  
النومى تالة وأسرت القادة الرومانية فور وصولها إليها  
بحجر حديق يحتذى السور وكلّفت حوذاً نالسير بحوالجودان  
لنفسها وكانوا يعملون تحت مظلات خشية قبيهم شرّاً  
القدائف حتّ تهنأ السكان لمصارعة عدوهم ومعه من  
ولرج مدينتهم وابعاده عنها بحرّ أذيال الخيبة . لكن  
متلوس كان قد أقرّ العزم على فتحها مهما كانت الظروف  
والكائيب . ودخلها فعلا وحنوده بعد مباركة غنية دامت

أبناماً عديدة ولما أيقن أعيان تالة بالهزيمة ورأوا عدوهم  
يفتح التيجات في السور الحصين أخذوا كلّ ثمين لديهم  
وجمعوه أكداً في قصر يوعرطة وبعد الأكل اللذيذ وشرب  
الخمور أجبوا نارا ذهب بهم وبما جمعه من أموال ونحف  
حتى لا يجد العدو شيئاً يفتمه .

سقطت إذن مدينة تالة تحت أيدي الرومان ويسر  
على صوه ما أورده استرابون «Strabon» وهو جغرفي  
يوناني عاش في القرن الأول بعد المسيح أنّهم دمروها  
فغدت أثراً بعد عين (94) . وكان سقوط المدينة كالصاعقة  
في صفوف الأفرقة . وازداد نجم القائد متلوس تألقاً في سماء  
الرومان . وما من شك أنّها ضربة قاسية سدّت نحو  
يوغرطة فأضعفت سلطانه لكنها لم تضع حداً للحرب  
ويرجع أنّ متلوس قد فتح مدناً في الأيام التي عفت  
سقوط تالة وكان ذلك خلال سنة 108 قبل الميلاد . بل وتمكن  
من الاستيلاء على مدينة سيرة عاصمة المملكة الوميية .  
عن أدّ صليست لم يذكر كيف وصل إليها القائد الروماني  
ولا كيف تمّ فتحها . هل كان ذلك بعد حصار شأن ما وقع  
لتالة ؟ أم هل دخلها بموافقة سكانها ومساعدتهم ؟ لم  
بذكر صليست من ذلك شيئاً . لكنه أشار أنّ متلوس

(94) مما يتعلق بتخطيط مدينة تالة انظر Strabon, XVII, 3, 12.

أخذها قنطرة حيث ترك فيها الأسرى والننائم والنخيرة وأمر بإقامة المسكر قربها . نل واستقر أمره على قضاء فصل الشتاء بالعاصمة النوميديّة . مما يثبت سيطرة الرومان على الوضع بإفريقية وتقدّمهم بالنسبة لعام مضى حيث أجبر الجيش الروماني عن العودة إلى اولاية الإفريقية الرومانية لقضاء فصل الأمطار . ولئن تحاصر متنوس على الفاء بالعاصمة لوميدية طيلة شتاء سنة 108 فذلك لأنه كان وثقاً يمتنع وسيطونه على الوضع العسكري بتلك المناطق على أن العاية هي وصح حدّ حرب بوخرطة وقد ستم الشعب الروماني منها ولعلّه أظهر غرضه نحاه قيادة لم تكلل أعمالها بنصر نهائيّ

وفىما يتعلّق بالمدن الإفريقية فقد شاع صيت متنوس ذلك الذي حاص معركة قالة وانتصر . فهذه ليدة الكرى توفد إليه رسل يحيطونه علماً بتصرّفات أحد أعيان المدينة وأثريائها وكان يأتى عند مقرر . ويسرّ أنه كان يقوم بأعمال ثورية وكان لا يتردد في محاربة الثوابس والعت نهضة القضاء . فكانت المدينة ترعب من القائد الروماني أن يبادر بالدخول السريع حتّى لا يذهب حلما روماً ضحية عث المتمردين . تلك هي المهمة سي أبطت بمهمة الذين أوفدتهم مدينة ليدة الكرى إلى قيادة الرومانية بإفريقية . وليدة الكرى مدينة

توجد في القطر الليبي الشقيق . والمعلوم أنّها منذ بداية حرب بوخرطة أي منذ سنة 111 قبل المسيح ظلت من السلطات الرومانية أن تكتنفها بصداقتها وتعثرها من حلفائها . ولم تحل روما عليها بذلك . وكان لمدينة ليدة الكبرى ماتريده . ويشير صلّوست أنّها بقيت رفةً لعهد ولم تنحرف قيد أنملة عمّا ف تطالب به القيادة الرومانية . ولذلك لم يتردد متلوس في مساعدتها . وأرسل إليها أربعة وحدات تحت قيادة ضابط بدعى أنيوس «Annus» . ولكن في أي ظروف أدرك هذا الضابط مدينة ليدة ؟ وما هي الأعمال التي قام بها ؟ وكيف كانت النتيجة ؟ كلّها أسئلة لم يجب عنها صلّوست . ولعلّه تركها جانباً لعدم ارتباطها بموضوع رسالته . على أنّه خصّص فقرتين للحديث عن مدينة ليدة الكبرى مشيراً إلى الذين أسسوها وإلى عاداتها وتقاليدها كما تناول الحديث عن بطلين من أبطال قرطاج وقد لعبا دوراً كبيراً في ضبط الحدود الماصلة بين الأراضي النوبقية وبين أرض مدينة قرنة «Cyrène» الكائنة في جنوب لطر المسي حالياً .

أمّ بوخرطة فقد توخّل في الصحراء غاية الاتصال بقيائل حدالة عليها تمكّن له بدّ المعونة وتمكّن من التحديد حتّى يستطيع مجابهة الرومان بعد سقوط دلة وقد

كانت من أعزّ الفلاح التوبيدية . تلك هي الظروف التي أحاطت بمعركة نالة كد أوردها صلّوست . على أننا نريد العودة إلى بعض التفاصيل كالنار التي التهمت أعيان المدينة بما لديهم من أموال وتقاس : ذكر صلّوست أن أعيان مدينة نالة أخذوا كلّ شيء لديهم من ذهب وفضة وجواهر وجميعها أكادماً في ساحة القصر الملكي ، وبعد انهماكهم في أكل اللحوم وشرب الخمر أصروا النار في ما كدسوه وأجّحوها ثم ألقوا بأنفسهم فيها حتى هلّكوا .

إنها أحداث لا تخلو من إمرأة من قل: إنها تنشر فينا بعض التساؤلات : فلهذا كان حزن أموال المدينة رغبة من أعيانها حتى لا تقع تلك الأموال في قبضة العدو . ونحن أسي أعيان المدينة إلا أن يتحروا حتى لا يسقطوا تحت رقة المودة كما يشير إليه صلّوست . مما مرّر ذلك الحفل الذي أقاموه قبل الاحتفال حيث انهمكوا في أكل اللحوم وشرب الخمر قبل أن يلقوا بأنفسهم في نار وقود ؟ م تعرض صلّوست لهاته الأسئلة ! فهل من حين المؤرخ الذي يعيش في القرن العشرين والذي يؤمن بهوائن البحث العلمي أن يحاول فهم تلك الأحداث حتى يشف على العواص التي دفنهن والأهداف التي كانت ترمي إليها ؟ أجل ! لكن قبل النظر في

الأسباب والأهداف ينبغي على المؤرخ أن يبدأ عمله ماراً بمرحلة أولى أساسية وهي مرحلة ضبط تاريخية الأحداث المعينة بالأمر . ليس من المنهج العلمي في شيء أن يسرع المؤرخ في تفسير وتحليل أحداث صدر ذكرها في بعض المؤلفات القديمة ! فلا تفسير ولا تحليل لحدث إلا بعد ضبط « تاريخيته » . ذلك شرط أساسي بالسبب للبحث العلمي مطلقاً .

لقد وقع العلماء في أخطاء لا تقدر كلّمها رهبوا في ضبط واقعية الحدث وتاريخيته ، ومن بين القصص الطريفة المتعلقة بالذين ينهالون على « الحدث » تفسيراً وتحليلاً قبل النظر في حقيقته وضبط واقعيته وتاريخيته ، قصة ذكره أحد فلاسفة القرن الثامن عشر وتعرف بقصة « السين الذهبية » : زعموا أن طفلاً وُلِدَ وله سين ذهبية . فبدأ ذلك الأمر غريباً بل كأنه من باب المعجزات . وسرعان ما انتشر الخبر في البلاد ويات العلماء يبحثون عن سير ذلك الحدث العجيب وألقوا الرسائل الطويلة في ذلك دون أن يتساءلوا هل حقاً وُلِدَ ذلك الطفل بسين ذهبية . وهكذا بعد البحث والتنقيب والتحقيقات والافتراضات والتعاسير العلمية لذلك الحدث الغريب العجيب ظهر أن لا نصيب له من الصحة بل كانت أسطورة من خلق الذين يهرون لمزاح . فكان الندم نصيب الذين

أسرعوا وارثسوا على الحدث العريب تفسيراً وتحليلاً لما سخر  
منهم أصحاب العقل والمطلق السليم .  
من ذلك نرى أنه من العسير علينا نظرياً تفسير رواية  
صلوات المتعلقة بالأحداث التي سبقت كارتة ذلة لأنه من  
العسير علينا صسط تاريخيتها . ولكن كيف العمس ؟ هل  
يكفي المؤرخ يرد الرواية دون أي تعليق ؟ هناك زاوية  
ممكن للمؤرخ أن يختار إحداها . وينظر للأشياء من خلالها  
فيه أن يعرف : يعني م ألتح في ضبط تاريخية هذا الحدث لسبب  
ما كعقر المصاد . مثلاً . وعليه أكفني بذكر الرواية وأقف  
عند هذا الحد ولا أنتقل إلى مرحلة التفسير والتعليل مرحلة  
الوقوف على الأسباب والأهداف . تلك هي الزاوية الأولى !  
فإن فعل المؤرخ ذلك كان موقفه منطقياً بتعليق بالتزامه  
العلمية . على أنه موقف لا يخلو أحياناً من التحجر والركود  
وقد لا يساعد على تقدم العلم وإثراء المعرفة . وكثيراً ما يجد  
العالم نفسه محبوراً على السير قداماً وإن لم يكن محيماً بكل  
ما قد يعترضه في طريقه وقد تهاجسه الأشياء وترغمه على  
العودة إلى الوراء . فالبحث العلمي يقتضي الدقة والضبط  
ويقتضي الحذر والجراة .

فبالنسبة لأحداث تالة لا يستطيع المؤرخ أن يثبت تاريخيتها  
كما لا يستطيع أن يفتنّها . من ذلك ليس له أن يقف وقفة

معرض عن التفسير والتحليل نظراً للشك الذي يحيط «بتاريخية»  
الأحداث . فالنظر من هذه الرواية الأولى قد لا يجدي نفعاً بل  
قد يكون عقبة في طريق الباحث تحول دونه ودون الوصول إلى  
الحقيقة التاريخية . وعليه إذن أن ينظر إليها من الزاوية  
الثانية ويكون ذلك بالانتقال إلى مرحلة التفسير والتحليل  
كما لو وقع ضط تاريخية تلك الأحداث .

وإذا قلنا هذا المبدأ بالنسبة للأحداث التي سبقت  
سقوط مدينة تالة بأيدي الرومان وتستى لنا الدخول في  
مرحلة التفسير والتحليل فما هو سير تلك الأعمال العرية ؟  
إن الحفل الذي أقامه أعيان المدينة قبل الانتحار يذكرنا  
بعض الطقوس والتقاليد الدينية المعروفة في شمال إفريقيا  
ولعلها طقوس وعقائد أدخلها الأفارقة عن البونيقين أهل  
قرطاج . أولئك الذين كانوا يتعاطون تقديم الصحايا البشرية  
لأهنتهم خاصة عند المحن إيماناً مهم أن تلك الضحايا  
البشرية (95) تساعد على التكفير عن ذنوبهم حتّى  
تحول الآلهة أنظارها نحوهم وتعمل على إبعاد الكارثة  
التي حلت بهم . فقد يكون ذلك هو معنى الأحداث التي

(95) تحدث المؤرخون طويلاً عن الصحايا البشرية لدى القبيين والبونيقين انظر .

G. PICARD, *Les religions de l'Afrique antique* Paris 1954. P. 28-55

أوردها صلّوست في منتهى الفقرة المتعلقة بسقوط قالة .  
كذلك نرى كيف تكتسي تفاصيل هاته الأحداث التي أوردها  
صلّوست عَرَضاً وعن غير قَهْمٍ قيمةً عظيمةً إذ تساعدنا  
على معرفة بعض التقاليد الدينية لدى الأفارقة وقد تساعدت  
على ضبط مدى تأثير الديانة الوثيقية في نفوس التومديين .

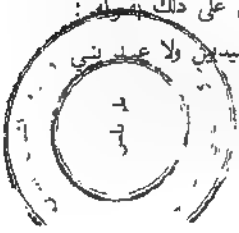
سقطت إذن مدينة تالة وداستهب الكتائب الرومانية  
واحترق قصر الملك أمّ يوغرطة بعد توّعت في الصحراء  
وتصل بقتال بني جدالة كما أسلفناه . وبترجلة بلولا يبرفون  
شيئاً عن الحضارة بل كانوا يجهلون عن الرومان حتى الاسم  
على كلّ فذلك ما يدعيه صلّوست . لكن يوغرطة لم  
يأس وجمع قبائل جدالة وأحاط أعيانهم عِلْماً بطروقه التي  
يميشها وهو أحد أشراف الأفارقة وملوكهم . كما أحاطهم بالظروف  
التي تعيّنهما الفريقية من جراء سيطرة الرومان وجبروتهم .  
لقد عرف يوغرطة كيف يخاطب بني جدالة فأحسنه وامتثلوا  
لأوامره ولاشكّ أنّه لرحمهم بالنصر والنعمة حتى تعلّقوا به  
فأخذ يدرّبهم على طرق القتال المنتظم وأصبحوا قادرين  
على السير صنفاً منتصبين حول راياتهم ممثّلين إلى أوامر  
القادة . وقصارى القول فقد اجتهد يوغرطة في تدريبهم  
حتى أحسنوا كلّ ما تقتضيه الجندية

#### • يوغرطة وبكتوس ملك بني ماور :

ولم يكن عمل الملك التوميدي مقصوداً على تدريب بني  
جدالة ونحندهم بل اتصل أيضاً بملك موريطانيا وكان يدعى  
بُكُوسُ . « Bocchus » اتصل به عن طريق أعوانه  
ومستشاريه وقد أغلق عليهم العطايا واستهواهم برعوده المغربة  
على حدّ قول صلّوست . فحملوا ملكهم على مدّ يد المساعدة  
ليوغرطة وذلك بإعلان الحرب على الرومان .

ومن العوامل التي يسّرت مهمة يوغرطة في هذا الصدد  
أمران : أولهما أنّ بُكُوسَ كان قد عرض على الرومان في  
بداية هاته الحرب أن يتحالف معهم لكنهم أعرضوا عنه  
ولم يعبروه أية قيمة . وعاد رسل بُكُوسَ إذ ذاك يجرّون  
أذبال خيبة . ويعلم المورّج صلّوست على هذا الحدث  
بقوله : « كانت المفاوضات مع رسل بكتوس تماشى ومصالحنا  
في تلك الحرب ولئن أخففت سبب ذلك يعود إلى خمت رجال  
على قلوبهم عشارة حبّ المال . كانوا يتخلّون كلّ شيء  
وسيلة لكسبه » .

أما الأمر الثاني الذي رتّم ساعد يوغرطة فهو أنّه  
قد تزوّج إحدى ست بكتوس وقد تساعده الزوجية على  
تعتبر الروابط ، على أنّ صلّوست يملّح على ذلك بقوله :  
« إنّ روابط الزوجية لامتانة لها عند التومديين ولا عند بني





فهذا يتزوج بمشيرة والآخرا أكثر من ذلك . أمّا الملوك فعدد الزوجات عندهم لا يحصى . وبعدد الزوجات نزول المحبة وتصح المرأة محقرة لا قيمة لها في عين زوجها .

ومهما يكن من أمر فليدرك أن "حيف" بين يوغرطة ملك النوميديين وكتوس ملك بني ماور . وكانت ديار بني ماور توجد في أقصى شرقي شمال إفريقيا يحدها نهر الملوية شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً . واتقن الملكان على توحيد سياستهما تجاه الرومان والوقوف جنباً لجنب أمام طاعة لا هم لهم سوى السيطرة وبسط نفوذهم حتى يصبحوا أرباب العالم بأسره . فلا يحترمون الصداقة ولا يحترمون الجوارح لا يترددون في قلب طهر الميجن ونقض العهود . وهم يحسبون كل من لا يخضع لسلطانهم عدواً لهم ويعملون جهدهم للقضاء عليه .

كان يوغرطة يؤمن بذلك إيماناً قطعياً حتى أن صلّوست نسب إليه خطاباً جاء فيه : (96) « إن الرومان قوم طالمون ، عابون في الخجل وحب المال يكتسون العداوة لبني الإنسان عامة . وحسنهم للسيطرة جعل منهم أعداء الممالك والدول

96، فيما يتعلق بالخطاب الذي ألناه يوغرطة أمام بكتوس ملك بني ماور انظر . صلّوست « حرب يوغرطة » الفقرة 81 .

بردهم اليوم يتهاونون علي ما نهالخوا بالامس على قرطاج والملك برسي « Persée » (97) وسظهرون عداوتهم بالغد لكل من له ثروة تهتمهم . تلك هي فحوى الخطاب الذي نسه صلّوست إلى يوغرطة .

ويبدو على ضوء هاته الكلمة الوحيدة التي ألقاها يوغرطة حسب صلّوست أمام الجيوش النوميديّة وجميعها لماورية وبمحصر الملك بكتوس نفسه أن السياسة النوميديّة وقتئذ كانت على وعي كامل بالخطر الذي تطوي عليه سياسة روما حيث ما انصكت تنوسّع ونكسح أقطار البحر الأبيض المتوسط . ولئن تهالكت على قرطاج حتى أبادتها فذلك لا لأنها قرطاج ولا لجرّيمة اقترفتها قرطاج بل لا شيء سوى أن روما كانت تريد تسلط على كامل أقطار البحر الأبيض المتوسط ، وقد تشكّل قرطاج عقبة تعوق الرومان عن بلوغ ذلك المهدف الشيطاني . فقد اندلعت الحروب البونيقية ودامت ماينيف عن قرن وما من سبب لها سوى طموح الرومان وحبهم للسيطرة . هذه روما تتوق إلى استعمال العنف والتسلط . وهذه قرطاج تدافع عن كيائها حتى وقع الاصطدام وشبت نار حرب ذهبت قرطاج ضحية لها . لأن « التاريخ » كان في

(97) برسي « Persée » آخر ملوك مغلوب حكمها من سنة 178 إلى سنة 168 قبل المسيح تسلط الرومان على مملكته ومات أسيراً سنة 162

كانت شيطانية . كان « التاريخ » في صفوف الرومان أي كانت روما إذ ذاك قوة ناشئة حلاقة في جميع الميادين . ونبما يتعلق بالنظم السياسية والإدارية خاصة كانت لها نظم ساعدتها على استيعاب كل عناصرها حتى سكنتها في وحدة قومية قوية ليس لأحد أن ينال منها . وإذا أصابها بعض الكوارث كنت ترى الرمن يعمل في صالحها لئلا من طول من وتندثر على تنظيم أعماها وتخطيطها . هل شعر يوغرطة بكل ذلك ؟ لست أدري غير أنه وعب على كنه السياسة الرومانية تحاه أقطار البحر الأبيض المتوسط . تلك السياسة التي تستهدف وضع كل ماته الأقطار تحت ربه البرودية حتى تصبح روما ملكة تسوس العالم وتستمره حسب مشيئتها .

ولش أوضح يوغرطة خفايا السياسة الرومانية أمام ملك بني ماور وأمراهم فذلك سعي في نوعيتهم وتصبرهم حتى لا يفكروا في اتعاون مع الرومان ولو اقتصر ذلك اتعاون على عدم الدخول في الحرب ضدهم . لفت يوغرطة إذن نظر بكتوس وذويه نحو حطر الرومان وناشدتهم الوقوف إلى جانبه ومؤازرته ضد العدوان .

وبعد الخطب والمناقشات عقد الملك الغزم على خوص

الحرب والزحف على مدينة سيرته حيث وصع القائد الروماني متلرس الغنائم والأسرى وكل مالديه من أثاث وعدة وكان يوغرطة قد رسم خطوط هاته العملية سعا وراء أحد اهدفين التاليين : سقوط المدينة واستيلاء الجيوش التوميديية الماورية على ما تحتويه، مما يضعف العدو ويشجع الأفارقة . ذلك هو الهدف الأول . وفيما إذا أسرع متلوس لحماية لمدينة فنارالحرب تشب وتكون المعركة وبشارك بها بكتوس « Bocchus » وإسهامه في المعركة يصبح من امسير عليه الدخول في مفاوضات ثنائية مع الرومان . وذلك هو الهدف الثاني الذي كان يرمي إليه يوغرطة بهجومه على مدينة سيرته . لأن الملك التومسي كان يخشى أن يغير بكتوس موقفه تجاه الحصين وأن يؤثر الحلول السلمية على الحرب .

ولما أحبط القائد الروماني علما بالحلف التوميدي الماوري أحجم عن خوض المعركة رائده التعرف على طرق بني ماور في القتال مما قد يساعده ويجعله يسيطر على الوضع ويمكنه من توجيه المعارك واستغلال مواطن الضعف لدى خصمه الجديد . من ذلك رأى من الصالح أن يترقب عدوه في معسكر حصين أقامه قرب مدينة سيرته . وفي أثناء ذلك اتصل القائد متلرس برسالة تشبه أن القيادة بولاية توميديا أسدت إلى

## • ماريوس :

إن ماريوس رجل منحدر من طبقة شعبية لكنه كان ينتمي إلى عائلة ثرية ممّا ساعده على الاحتكاك بالأشراف ولزواج بفتاة نبيلة حتى أصبحت له روابط متينة تربطه بالعائلات الشريفة الوجيّه. وذلك أمرٌ ضروري لمن أراد النجاح في سلك السياسة . دخل إذن ماريوس صفوف الجيش وتسلّق سبيل القيادة حتى اكتسب خبرة وعرف بين الناس ممّا جعله بطمح إلى أسمى الوظائف السياسية العسكرية وقد أقبل إلى أفريقية سنة 109 قبل الميلاد صجبة القمصل متلّوس كما ذكرنا منذ حين . وقد اتّخذ ماريوس له لما عرف به من شجاعة ومواهب عسكرية . ولا شك أن ماريوس لعب دوراً هاماً خلال المعارك التي دارت بين بونطية والجيوش الرومانية . حيث برزت كفاءته للجميع ونال من الشهرة ما جعله يفكر في القنصلية . وفي شتاء سنة 108 طلب فعلا من قائده متلّوس أن يسمح له بمغادرة المعسكر الإفريقي حتى يتمكن من الالتحاق بروما والترشح للقنصلية . غير أن متلّوس قابل به بشيء من السخرية وأشهره أن لا فائدة في المخاطرة والحال أن هزيمته أمر ثابت لا شك فيه . وما كان

ينتمي إلى طبقة شعبية لاورن لها في الحقل السياسي . كان إذن متلّوس يشدّ مساعده ماريوس التحليّ عن طموحه مشيراً أن لا أمل له في القنصلية لكن ماريوس بقي ثابتاً لم تزعزع عزيمته بل كان لا يتردد في إعادة طلبه كل يوم حتى ضاق صبر القائد فأحبه ذات يوم بسخرية لادعة . « رويداً يا ماريوس ! لك من الوقت كفاية بأن تعلم أن لاسبيل لك في القنصلية ما لم يترشح لها ابني » وكان ابن متلّوس إذ ذاك شاباً لا يتجاوز عمره العشرين . ففي كلام متلّوس تهكم واضح إذ يطلب من ماريوس أن يترقب ربع قرن قبل تقديم ترشحه للقنصلية وعندها يكون ماريوس شيخاً عاجزاً .

وتأثر ماريوس من ذلك التهكم شديد التأثير وكانت كلمات قائده رماحاً مزّقته وأصابته منه قلة . على أنه لم يتخلّ عن مشروعه وأبى إلا أن يتابع مسيرته نحو القنصلية وبات لا يتردد أمام الطرق الملتوية كما لا يتردد في الدّس لمتلّوس نفسه . من دث قوله إن القائد يريد تمديد الحرب بإفريقية حتى يتمكن ما أمكنه بالفداء وكان ماريوس يعمل أيضاً على ترويع أقوال وأخبار تسي إلى سمعة متلّوس وهكذا توترت العلاقات بين القائد ومساعدته وراثت الصداقة ، رالت الثقة

وهي ظروف تحول دون التعاون المثمر الإيجابية . وفي النهاية كانت الغلبة لماريوس حيث عاد إلى روما وترشح وفار بكليل انتجاح . وأما طلت الجماهير الشعبية بعهدده « حرب يوغرطة » ومعنى ذلك أن ماريوس أصبح مكلفاً بهاته الحرب إلى أن يكون الحل الكامل النهائي . أسندت إليه قيادة الجيش الروماني بإفريقية . وليس ذلك من العوامل المشجعة لمتلوس . بل نأسف ها شديد الأسف . (98)

ولما كان من واجبه أن يترقب خلقة على رأس اجيش وأيقن أنه ليس من صالحه أن يخوض أخطار حرب قد لاتحديه نقعا وقد يكون في صالح رجل كنود رأى من الأجدى أن تتصل بكتوس « Bocchus » ملك يمي ماور وباشده لا يشارك يوغرطة في حرب خاسرة تدفعه لاجالة إلى المهلكة . ويبدو أنه أشار عليه بطريقة خفية ملتوية أن يحالف الجيوش الرومانية ويساعدهم على إنهاء الحرب بتسليم يوغرطة . وكان متلوس يرغب أن تعطيه هاته الاتصالات أكلها فيل وصول ماريوس . إذ بحاحها يمكن متلوس من القبض على يوغرطة وبذلك تضع الحرب أوزارها وتنتهي مهمة ماريوس قبل شروعه فيها . إلا أن بكتوس تكلف

(98) فيما يتعلق بالرسالة التي تتضمن اعلام متلوس بالتحذير ماريوس قسلا انظر صلوات « معركة يوغرطة » الفقرة : 82

عدم فهم ما كان يرغبه منه القائد الروماني واكتفى بالإعراب عن حبه للسلم وعن عطفه على يوغرطة وأضاف أن الاتفاق يكون أبسر إذا ما شمل يوغرطة وقيل الرومان مدأ الاعتراف به والتعاون معه عن طريق التفاوض . وكان ما طالب به بكتوس من الأمور التي تأبى السياسة الرومانية حتى النظر فيها . فشل إذن متلوس بكنه بقي بانصال مع ملك بني ماور حتى أقبل ماريوس وقتل شعاع القيادة . وعاد متلوس إلى روما حيث أقيم له حفل بهيج تقديراً لما قام به في إفريقية على رأس الجيش الروماني وأسندوا إليه لقب « النوميدي » ذكرى للانتصارات التي سجلها في الديار النوميدي .

الباب التاسع  
بوغرط، وماريوس

## \* القنصل ماريوس :

عاد ماريوس إلى افريقية في ربيع سنة 107 قبل الميلاد مُقلِّداً شعار القيادة (99)٦. وما كان متلبّوس ليرتاح لِتِلْكَ الظروف الجديدة القاسية . فأبى مقابله بل كلّف أعضاده ليتّصلوا به ويسلّموه قيادة الجيش .

وما إن ألقت سفن ماريوس حبالها بمياه مدينة أوتيك «Utique» حتّى توجّه القائد إلى مدينة سيرتة حيث تعسكر الجيوش الرومانية وثمرّة سلّمه «Rutilius» روتليوس قيادة الجيش . كان ذلك حسب قول المؤرّخ الفرنسي ستيفان اقزال «Stéphane Gsell» في متوفى ربيع سنة 107 .

(99) اقبل ماريوس إلى سيرته وتسلم مهام القيادة سنة 107 قبل المسيح . انظر :

STÉPHANE GSELL, *Histoire ancienne de l'Afrique du Nord* T. VII P. 227.

معه وحدات عسكرية سهر على تجنيدها بمقتضى مقاييس جديدة (100) على حد قول صلنوست حيث يقول في الفقرة السادسة والثمانين من كتابه « حرب يوغرطة » « كان ماريوس يسهر بنفسه على عمليات التجنيد وكان يصطلي جنوده لاحس التقاليد الألوقة ولا حسب الطبقات الاجتماعية بل كان يجند كل المطوعين وكان جلهم من الفقراء الذين لا يؤدون الخدمة العسكرية وبعضهم يرى أنه لحاً إلى تجنيد المتطوعين لعدم وجود من قد تتوفر فيه شروط الجديدة وبعضهم يرى أن ماريوس قبيل المعورين في صفوف الجيش تمذبة لطموحه . ذلك أن صيته وارتقائه أسمى درجات القيادة يعود الفضل فيه إلى هاته الطبقات الشعبية ومن كان يتوق إلى السلطان فلا شك أنه واجد أحسن أتعاه وأنصاره بين الذين يعيشون في مهد الفاقة . ففقرهم يجعل منهم أناساً لا يحترمون شيئاً ولكن ما يفيدهم ويعود عليهم بالنفع حلال لديهم » .

ويرى سيماد اقوال أنه في صالح ماريوس تجنيد المتطوعين الفقراء ذلك أن الطبقات المحظوظة لانفكرك في

(100) ادخل ماريوس تحويرات على نظام الجيش انظر - المصدره ص. 227 - 229

في حرب - - - - - . ويسب سرب من العوامل الدافعة إلى الراحة والطمأنينة . ترى المحظوظ من الرومان يقاتل و فكرة العودة إلى منزله وعائلته وضيعته نرافقه دوماً حيث كان في المعسكر وفي ساحة القتال . وليس ذلك ميماً قد يساعد على الصبر والصمود ويشجع على المثابرة وطول النفس . أما الفقراء فالحرب عندهم طروف قد تسعدهم على الكسب والقضاء على فقرهم . ميماً يجعلهم يقاتلون بحرم ويسعون جهدهم وراء النصر . وبالتصر تكون النعمة وبالغنيمة قد يتحول فقرهم غنى . ولا شك أن ماريوس مكتر ملياً في كل هاته العوامل انفسانية المكثة لأسباب النصر في هاته الحرب الافريقية العسيرة . وأيضاً القائد الجديد أن التوفيق في هاته المعركة رهين احزم والطموح والامتنال وهي شروط إن لم تتوفر في الجيش لافائده في خصوص المعركة وقد تطول العمليات العسكرية وتعدّد بلا جدوى .

ولم يكتف ماريوس بالتحديد في طرق التجنيد بل أدخل أيضاً تحسينات على نظام الوحدات العسكرية . فقد رفع عدد الجنود في الفرقة حيث أصبحت تعدّ 6200 جندي عندما كان عددها لا يفوق 4200 . واستنيط ماريوس وسيلة تُيسر على الجندي حمل أثاثه عند السير . وكان ذلك في ضمّ أثاث الجندي من مأكل وملبس وفراش حزمة واحدة تحمل بواسطة

سنة ٥٠٠ هـ . وسببه بسببه في حد ذاتها وقد تلقاها بعضهم بالضحك بل أطلقوا على جنود القائد اسم : « بعال ماريوس » وسيلة بسيطة في حد ذاتها لكنها ساهمت مساهمة فعالة في تحميف عبء الجنود عند السير . مِمَّا جعلهم يتحولون من مكان إلى غيره بأكثر سرعة إذن وبأكثر فاعلية . والمعروف أن قدرة يوغرطة كامنة في قدرته على الحركة السريعة . بحيث ليس في إمكان عدوه أن يعرف مكانه بالضبط . وإن عرفه فلا يستطيع الالتحاق به لجهله للمساكن القصيرة ولتفوق يوغرطة في سرعة التحرك . وقد فكر ماريوس في هاته الوضعية حتى وفق إلى وسيلة تخفف الماء دون تقيص في الكمية .

ولمَّا كان على أهبة أخذ ماريوس يتقدَّم على رأس جيشه عبر أرض خصبة ثرية وجد اجتمع فيها غنيمات وافرة فازداد طموحهم وصقل عزمهم سبما وقد تركت القيادة النخبة كلها للجنود . واقتصرت على توجيه صرعاتها نحو حصون وقلاع يسير فتحها إمَّا لضعف موقعها أو لفرها للحاميات تصدُّ عنها الخطر . أجل لقد اشتهكت الجيوش الرومانية بعدوها وحملت على عدة مراكز نوميدية لكنها اشتباكات طفيفة لم تسفر عن خسائر فادحة ولا عن نتيجة إيجابية ملموسة . على أنها كانت فرصاً ساحقة مكنت جيود

ماريوس وهم حدينوعهد بالحياة العسكرية من التدريب على نقطة دائمة قد تتسبب في توتر الأعصاب . واعنادوها حياة فيها لكرَّ وبها الفرَّ . فيها الغنيمة وفيها الخطر . وأيقنوا أن الحصانة في الشجاعة وأن السيوف حماة الحرية والوطن والعائلة وفي المواضي العزة والثراء .

أمَّا يوغرطة وحليفه بَكُوس ملك بني ماور فما إن أحبطا علما برجوع ماريوس كقائد أعلى للجيش الرومانية المعركة بإفريقية حتى تفرقا واتجه كلاهما إلى ربوع ولوحها عسير . وكانت الحطة من تدبير يوغرطة ، أمله أن يتفرق الجيش الروماني في البلاد مِمَّا قد ييسر أعمال القيادة النوميدية للقضاء على عدو نمطت صفوفه وعملت فيه اطمأنية حتى فترت يقظته . لكن ماريوس لم يتنحَّ لحظة واحدة عن مراقبة جيشه وتدريبه وتغذية شعوره بالخطر المحقق به كما كان يتتبع تحركات عدوه . هَمُّه الوقوف على حائل قد يبصها يوغرطة أو حليفه بَكُوس في طريق الجيش الروماني . كما كان يحاول درس مواطن الضعف والقوة في الجيوش النوميدية الماورنة وكانت أعماله وأقواله تستهدف نقطة جيوشه وترهيب جيش العدو .

كان يوغرطة قد حنَّ وحدات من قبائل جدالة ودرَّنها على القتال المنظم وكان يقودها إلى الأراضي لا فريقية المناصرة



اجيوش الرومانية . ويبدو على قول صلّوست أنّ ماريوس قد أحبر أكثر من مرة جيش يوعرطة على التراجع ومغادرة تلك الأراضي . بل وأجره يوماً حسب قول المؤرخ نفسه على إلقاء سلاحه أرضاً قرب مدينة سيرقة « Ciria » . كان المنهزم في العصور العاربة يتخلص من سلاحه إذا رام الفرار بأكثر سرعة كان الوضع إذاً تحت سيطرة ماريوس . على أنه أيقن أن لاهادة في اشتباكات طفيفة لانتمس من شوكة العدو ولا تضع حداً للحرب وهو الهدف الذي أتى من أجله إلى إفريقية . من ذلك صمّم على توحيه حملاته نحو المدن والمراكز الحصينة من حيث موقعها ومن حيث الحاميات التي تسهر على ماعتها تلك المراكز التي تعزز موقف العدو وتشكل خطراً على الرومان .

على أن الملك النوميدي كان يأبى الدخول في حرب منظمة سريعة علماً أنه يتفوق الجيش الروماني فكان يترقب أن يعمل الزمن لصالحه : إن تمسكط العمليات العسكرية ويطنّها يث القلق في هموس الرومان تتدهور معنوياتهم ويحل نظامهم ويضعفون وعندها تقاسهم سيوف الأفارقة إلا أن القائد ماريوس سى تلك الظروف الخطيرة وعمل على تحويلها . من ذلك عزمه على تسديد ضرباته

صوب الملك وامراة التي يستمد منها جيش يوعرطة قوة . فإما أن تسقط تحت يد الرومان وإما أن يدافع عنها يوعرطة . فيكون مجبوراً على القتال والالتحام بالجيش الروماني في مواقع حاسمة .

#### « معركة قنصة : (101) »

وكانت قصة من المدن العظيمة التي يرتكر عليها ملك النوميديين . عظم شأنها منذ القديم وذلك لأنها توجد في ملتقى طرق طسمة . ووفرة مياه العيون فيها جعلت سكانها يتكاثرون سيما والرربع التي تحيط بها صحراء لانيات فيها . وسياه لعيون نشأت واحة وفي الواحة شيد صرح المدينة وحصنها في الصحراء التي تحيط بها وفي السور المسع الذي يحتضنها ويرعاه من شر الزاحفين . وتحدث المؤرخ الروماني صلّوست عن مدينة نصه في الفقرة التاسعة والثمانين من كتابه الآنف الذكر قال : توحد مدينة قنصة وسط صحاري شاسعة وهي من العظمة واشهرة بمكان . وجاء في الرواية أنها من تأسيس له إفريقي أطلق عليه القدماء من يونان ورومان اسم هرقل . وكان سكانها محظوظين . من ذلك أنهم كانوا لا يدفعون الضرائب . وكانت

(101) قصة وكانت نحن اسم « قنصة » لدينا وثائق أثرية وادية تثبت قيمتها منذ أقدم العصور . ويرى بعض المؤرخين أن لها من تأسيس الاله هرقل . مما يعنى بآثاره المدينة المتبقية انظر CHARLES SAL MAGNE . in *Cahiers de Tunisie* , 1962 P 319 Sq.

شؤونهم تدار برفق وسرورة الامر الذي جعلهم يتعلقون  
بوغرطة ويخلصون إليه .

وكانت المدينة محصنة لها جدران منية تحول دونها والعدو .  
ويرابط بها جنود " لهم من النخيرة والعناد ما يجعل منهم قوة  
جبارة " . وميمًا يبعد مدينة عن المناعة والصمود تحذر  
الإشارة إلى العقبات الجغرافية والطبيعية بصفة عامة : منها  
انحصاري المترامية الأطراف ، ومنها عدم وجود المياه ، ووفرة  
الأعني وصرورها بتضاعف في الربوع الصحراوية شأن كل  
الحيوانات الوحشية وتزداد الأفاعي شراسة إذا طغى عليها  
العطش وأخذ منها مأنذره .

ما كان ماريوس ليجهل كل ماته العقبات بل يرحح  
أنها كانت من العوامل التي دفعته نحو هذا الاختيار . فلا شك  
أن جيشه في حاجة إلى انتصار باهر يسترحم الثقة بالنفس  
ويقوي التزيمة . إنها عملية شاقة بدون ريب لكنّها رابحة  
بالنسبة لسمعة القائد بين جيوشه وفي روما نفسها والقائد  
العسكري شأنه شأن الطفل الرياضي تراه دائماً في حاجة إلى  
انتصارات باهرة يعزّي بها المواطن التي يكتنّها له أنصاره  
وأتباعه والمولعون به

ويبدو أن ماريوس قد اقتدى بمتنوس إذ كانت نتائج  
معركة تالة باهرة نال منها إذ ذلك متنوس عزّة وذاع صيته في

صنّوست أن العقبات التي تعترض الزاحف على مدينة قفصة  
ليست دون التي تعرّض إليها متنوس أبام رحمه على تالة .  
ويثبت أن لافرق بين المدينتين من حيث إمكانيتهما الدفاعية .  
على أن منطقة مدينة قفصة أفقر ماء إذ ليس بها سوى عين  
تجري وسط المدينة نفسها . فالعطش إذن يهدّد كل من  
يروم الزحف عليها ، ويضيف المؤرخ الروماني صنّوست أن  
الأفارقة قادرون على العيش في المناطق الفقيرة ماءً لأنهم  
يقنّتون صيداً ولبناً دون استعمال ملح أو غيره من منشطات  
الشاهية . إنهم يتحدون الأسدية كوسيلة تساعدهم على  
صدّ الجوع والعطش وليست لديهم أداة متعة وترف .

لا يخفى عليّ أن صنّوست كان ثائراً على انغماس  
معاصريه في المتعة والترف . في حديثه حول قاعة الأفارقة  
وساطة العيش عدهم تحدياً لأثرياء روما بل كان يريد  
به التشهير بالحالة التي أصبح عليها المجتمع الروماني  
على كل فالسيرة نحو مدينة قفصة مشقة تحيط بها  
صعوبات كثيرة سيما وفصل الصيف على وشك الرحيل . نظر  
ماريوس لكل ذلك بعين الاعتبار وقدّر العقبات حقّ قدرها  
خاصة وقد أصبح الجيش الروماني مهدّداً بالمجاعة نتيجة أمر  
أصدره بوغرطة والقاضي بحصد القمح ووضعها في حصون

حتى تكون في مامن وتصبح القيادة الرومانية عاجزة عن تزويد جيشها بالمؤونة . ودرس القائد الروماني الوضعيه الخطيرة لكنه لم يعدل عما رسمه لأن الحالة تستوجب العمل مهما كانت العقبات ومهما كان الخطر . وكثيراً ما تسبطر بطروف عن القائد سياسياً كان أو عسكرياً وتجبره عن العمل دون مبالاة بالثمن والتضحية مدية كانت أو بشرية . وقد أدهشت جرأة ماريوس معاصريه كما أدهشت المؤرخين القدماء حتى أن صلّوست يعتقد أنه (أي ماريوس) سلم أمره إلى الآلهة طالما أنها أن تساعد على تذليل تلك العقبات لأنها فوق طاقة الحكمة البشرية .

على أن ماريوس قد عمل وسعه لتنظيم المسيرة لإعداد العدة لها فأمر الحياة المساعدة أن تقدم ومعها كل الحيوانات التي وقع القبض عليها خلال الأيام الأخيرة وأمر مساعده منبلوس «Manlius» أن يتجه صحبة المشاة نحو مدينة ليريس (Lares) الواقعة جنوب الكاف لتفصلها عنها إلا أميال قليلة وكانت ليريس (وهي مدينة ليريس الحالية) مركزاً وضع فيه ماريوس أجور الجنود والمؤونة . وأعلن أنه سوف يلتحق بمنبلوس بعد بضعة أيام . لكنه في الحقيقة توجه نحو نهر كان يعرف باسم التانيس (Tanais)

والمعروف اليوم باسم واد الدرب يجري على بعد مائة كلم من مدينة قفصة .

ولم يذكر صلّوست الطريق التي توخاها ماريوس بحيشه نحو مدينة قفصة أمّا استيفان ايزال فذكر أنه كان على بعد 250 كم تقريباً من قفصة بالمطقة الكائنة بين مدينتي سيرتة والكاف . وعوض أن يتجه إلى مدينة ليريس كما أعلنه على رأس الملاء أخذ طريقاً جنوبية شرقية وبلغ نهر التانيس بعد مسيرة دامت ستة أيام . والمعلوم أن هذا النهر من الأنهار التي تجري مياهها طيلة السنة . ويرجح أن ماريوس أنه ليرتود حيشه ماء

وكان القائد خلال تسير نحو نهر التانيس يأمر يومياً بمنح الجنود عدداً من الحيوانات يأكلون لحومها . أمم الجلود فيحفظون بها ويصنعون منها قرباً تستخدم لحمل الماء . وكانت عملية ناححة إذ بوصول الركب إلى نهر التانيس كانت قرب عديدة حاضرة مملؤوها ماء وهي أحسن ذخيرة لجيش يحارب صحراء قاحلة .

أقام ماريوس معسكره على ضفة ذلك النهر ولما أرخى الليل سدوه أمر بالمسير ثم حطّ الجيش ركاياه في النهار واختفى وراء المرتفعات ليواصل سيره ليلاً تحت طي الخفاء . وفي الليلة الثالثة أدرك الجيش الروماني هضبة لاتبعد عن مدينة قفصة

إلا ميلين فاحتفى وراءها بترقب فرصة سانحة . ومن حسن حظ القيادة الرومانية أنّ المسيرة بقيت مجهولة لدى السلطات بمدينة قفصة ولما تنفس فجر اليوم التالي خرح حشع من سكان المدينة لقضاء حاجياتهم مطمئنين إذ لا علم لهم بحظر يهتددهم بل عى وشك الإطاحة بهم . وعندها أمر القائد ماريوس بالحمل على المدينة واتسلط على أبوابها . أمت سكانها فقد تحل الرعب قلوبهم سيما وقد شاهدوا مؤاطيهم أولئك الذين غادروا منازلهم صالحا تحت قبضة العدو . فما بقي لهم إذن إلا الاستسلام . على أنّ ماريوس أبى إلا أن يصرم النار في المدينة ويقتل كل الدين كانوا في سين حمل السلاح وأسّر الآخرون وتمّ بيعهم عبيداً واقتسم الجنود النسبة .

ولش أمر ماريوس بإصرام النار في قفصة بعد نهبها وتفتيل سكانها فذلك لأنه لافائدة في وجودها بالنسبة للقوات الرومانية بل قد تثقل كهل القيادة إذا ما أرادت استيقاها والقضاء عليها حرقاً أمرٌ يدخل خللاً على قوة العدو ويال من هيبة يوغرطة رينال من تأثيره على القبائل الافريقية وكان ماريوس يريد أن تكون فاحمة قفصة بالنسبة للأفرقة كالصاعقة التي تنزل يقوم فتزول بهم إلى الهلاك . ورأبسا أنه عامل سكان المدينة بأشدّ مانكون القساوة . قتل الكهول

والشبن القادرين على حمل السلاح وأسر النساء والأطفال وشتت شملهم بيعاً في أسواق العبيد . وكان قصده من ذلك إدخال الرعب في القلوب وإظهار الجيش الروماني في مظهر القوة الهائلة حتى يكون في أعين الأفرقة كالقوة الإلهية التي لا تبقي ولا تذر . ومن تجاهل تلك القوة ولم يقدّر لها حقّ قدرها كان مصيره الهلاك والدمار .

تلك هي الحرب النفسانية التي كان يريد ماريوس من وراء القساوة التي عامل بها مدينة قفصة ويبدو على قول المؤرخ ستيفان اقزال أنه أدرك الأهداف التي رسمها إذ خيّم الرعب على الديار الإفريقية وازداد الجيش الروماني تعلّقاً بقائده المظفر « ماريوس » ذلك الذي أصبح اسمه يرثى في روم نفسها . وازداد حُب الجنود لقائدهم ميما وقد أمر بتوزيع انغيمه عليهم .

على أنّ قساوة ماريوس تجاه مدينة قفصة وسكنها أثارت بعض القلق في روما وأعربت بعض الأوساط الرومانية عن استيائها من ذلك الحدث الخطير . وذلك لأسباب متباعدة .. فلا شك أنّ منهم من كان يؤمن بالقيم البشرية وبأبى الركون إلى القوة والعنف . ومن الرومان من عاب على ماريوس قساوته لأنهم كانوا يؤمنون بأن لاخير يرجى من القوة والعنف طال

الزمان أو قصر . إذ بالهتف والعتف تكون المآسي والدموع  
وبالدموع تغدئ الأحقاد

ومما بثت القلق الذي أثارته قساوة ماريوس في  
الأوساط الرومانية تعالين أوردتها صلّوست حيث يؤكد في  
الفترة لمواحدة والتسعين من كتبه أن القائد لم يقدّر تلك الأعمال  
التمشية من باب الإطراء في حب المال ولا من باب القسوة المجانية  
بل فعل ذلك لأنّ مدينة قفصة كانت من المراكز الأساسية  
لبوعرطة ولأنّه لاخير يرجى من سكانها وهم كسائر  
الأفارقة مفلطرون على الضلّ والحديعة . لاقية للتهريب  
لديهم ولا للترغيب ذلك ما يدّعيه صلّوست ولا يخفى  
علينا ما لهذه التفسير والأحكام من سداحة صيانية لا يرتاح  
ها المطلق السليم بل هي تفسير نشأت عن ذلك القلق والاستياء  
الناتج عن اجرائم القبطية التي ارتكبتها الجيوش الرومانية  
تحت قيادة ماريوس . وليس من الغريب أن يستغل أعداء  
ماريوس في الأوساط الرومانية تلك الأحداث لتشويه قيمته  
وتفجير القوة التي قدّمت نجمه إلى كبد السماء .

على أن صلّوست أثبت أن القائد ماريوس قد ازداد  
عزّة عقب تلك المأثرة حتى أصبح كل شيء يعود الفضل فيه  
إلى حذاقه وشجاعته وأصبح جوده متعلقين به وهو القائد  
الذي يسعى إلى إزرائهم . وشاع صيت ماريوس بين الحلفاء

والأعداء وباتوا جميعاً يعتقدون أنّه باتصال مع لآلهة وهي  
توحي إليه بأنّهم اتخطط وذلك في رأيهم هو سرّ نجاح  
القيادة الرومانية

إنّ من الممكن الرثوق بتاريخية تلك الأحداث ونائجها  
ولا يعارض المؤرخون صلّوست في ذلك الأمر . ويبدو على  
ضوئها أنّ القائد ماريوس كان من الذين يؤمنون بالمبدل القائل  
« الهدف يررّ الأسلوب » . انتصر إذن ماريوس واقترب ما  
اقترب جيشه من جرائم وفظائع . ثم أمر بإقامة معسكر  
الشيء سكنا نهمل المكان الذي عسكر فيه الجيش الروماني .  
على أن صلّوست لم يذكر من ذلك شيئاً بل أثبت أنّه تابع  
فتوحاته بيسر تام ، فتوحات لم تكلف الجيش الروماني نفساً  
واحدة ، وكان يتقدّم كالنهر الجارف لا يترك شيئاً في طريقه .  
وتواصلت المسيرة حتى أحرّكوا نهر الملوية بالشمال الشرقي  
من البلاد المغربية الشقيقة وهي منطقة بعيدة عن الربوع  
الإفريقية التي عرفتها الجيوش الرومانية وقتلت فيها . وكان  
نهر الملوية يحسم الحدود الفاصلة بين مملكة يوغرطة وبين  
مملكة حليمه بكنّوس .

كان على مقربة من نهر الملوية جبل وعر المحدر  
يشرف على السهول المحاورة كالجدار الشاهق . وكان على  
قمة ذلك الجبل قلعة منعة . لا يمكن اللوغ إليها إلا

س سريسي سيري سيري سيري سيري . وي ليعه ودح  
يوغرطة أمواله لتكون في مأمن

• قلعة نهر الملوية : (102)

كان ماريوس يفكر في أنجع الطرق ليتسلط على القلعة  
وعن أموال الملك النوميدي . إن القلعة منبئة بموقعها الخطير  
كما ذكره والرحال الذين كانوا يرابطون على حراسها وقد  
روّدهم يوغرطة بالأسلحة والمؤونة وكان قرب الحصن  
عن حارية كذلك كان لجنود القلعة ما يساعدهم على الصمود  
زمنًا طويلاً دون أن يحدق بهم خطر الجوع والعطش .

أما بالنسبة للعدو فالحقبات حسيمة إذ هي قبعة ليس  
في الامكان ضرب الحصار عليها نظراً لتشتب تضاريس المكان  
والطريق التي تؤدي إلى القلعة ضيقة بها هوى عييفه مربعة  
وكلما حاول العدو تسلل ذلك الجبل قابله جنود القلعة بوابل  
من القذائف والنار . كذلك قتل كل الذين حاولوا التصدي  
بجسارة إلى جنود القلعة وذهمت أيم وعقبها أخرى والجيش  
الروماني يتكبد الحماثر القادحة في الرجال والعتاد . حتى

(102) لها يتعلق نهر الملوية انظر :

STÉPHANE GSELL Histoire ancienne Afrique du Nord T. V. P. 91-93

أشرف ماريوس على القنوط وبات يتساءل هل يعني أن  
يتفلس ويترك القلعة النوميدي وشأنها أم ترى يواصل أعماله  
ويتربص الأقدار عليها تمد له يد المساعدة . وهكذا أصبح  
ماريوس يمول على الحظ لاعلى الحكمة والحذق .

كانت تلك الأسئلة تخامره وتجر حلفها تخوفات  
أقضت مضجع القائد حتى بات يتأرجح بين الأمل واليأس  
شأن الكرة التي تنقاذها الأقدام عن غير روية . كان يتأرجح  
بين الأمل واليأس دون أن لمدته حنكته أو عبقريته العسكرية بما  
قد يسر له طرق التوفيق وبعده كان يفكر في العودة جازاً  
أذبال الحية فإذا بصبح المحاح يتنفس على يد حدي ليغوري  
(نسبة إلى ليموريا وهي منطقة توجد شمال إيطاليا على سواحل  
خليج جنوة) . وكان ذلك الحندي البسيط ينتمي إلى إحدى  
الفرق المساعدة .

خرج الجندي الليغوري يوماً من لمسكر يرد فإذا  
بقطيع من الخنازون يتلق طهر الجسل ببطء وطمأنينة وإذا  
بالجندي الليغوري يلتقطها الواحدة تلو الأخرى وعلته  
كان يتقطها ويفكر في الأكلة اللذيذة التي ستداعبه بريحتها  
وطعمها بعد حين . وتجدر لإشارة هنا إلى أن الشعوب القديمة  
القائمة بشبه جزيرة إيطاليا كانت تأكل الخنازون كما يشبه  
هذا الحدث البسيط لوارد عن المؤرخ صلتوست ولمعلوم أن

الإنسان أتمل على أكل الحلزون الأرضية منذ عصور ما قبل التاريخ . وأكر شاهد على ذلك أكوام من أصداف الحلزون توجد قرب مدينة قصبة وهي من بقايا شعوب سكنت تلك المنطقة في عصور عابرة تقدر بالآلاف السنين قبل المسيح . ولكن فنعد إلى الجدي البغوري ولنطّبع على قصته الطريفة . تركناه إذن نحو وراء الحلزون يلتقطها منهمكا في عبده لا يفكر في شيء سوى الأكلة الشهية وقد أنسته المهمة التي خرج من أجلها كما أسته قدائف العدو وقد تلقى به في الهاوية . كذلك تسلق ظهر الجبل حتى دنا من القمة . وعد ذلك عدت إليه بقطته فتفرس في المكان فإذا به تفرلا حركة فيه تنسي بوجود خطر الإنسان . ثم نشأت في نفس الجدي اللبغوري رغبة القيام بمأثرة عسكرية . وترك الحلزون لأمر آخر ذي شأن . نظر الجدي حوله إذن فلاحظ أنه قريب من القمة الحاملة للقلعة الميعة لكن الصعود إليه ما افك عيرا . على أن شجرة ملتوت كانت قربه وقد احنى جذعها عد نشأته ثم عتلى حتى بلغ قمة الجبل . وتسلق الجدي جذع الشجرة سعيها بأعصائها أحيانا وبالصحور أحيانا أخرى حتى أدرك قمة الجبل ولم ينشأ إليه النوميدون وهم منهمكون في المعركة وصدد حنود ماريوس بقذائفهم ولما عرفت الجدي على المكان رجع أعقابها متبها

إلى خصائص الطريق جميعها متمعنا فيها كي نرسخ عنده ويكون عادرا على العودة عند الحاجة وما أن أدرك المعسكر حتى التحق بالقيادة وأحاط ماريوس عيما بمغامرته وطلب منه أن يبعث سرية تأخذ القلعة من نفس المسلك . وتطوع الجدي البغوري أن يكون دليل السرية . واسمع ماريوس إلى قصة ذلك الجندي وأرسل معه ثلثة من الحنود الموثوق بهم ليراقبوا صحة قوله . وانطلق الجميع في الغد نحو القلعة وراء الجندي البغوري وكان قد أشار عليهم أن يضعوا أسلحتهم من سيوف وخناجر وأتراس فوق ظهورهم ويشدوها بأحبل أو غيرها حتى تكون أيديهم فارغة حرة تساعدتهم على تسلق الجبل بأكثر سهولة . هذا وقد احتاروا أتراسا جلدية كالتي يستعملها النوميدون أنفسهم . اختاروها جلدية حتى لا يسمع ما صرت إذا قرعتها الحجارة . والصوت المعدني قد تلتقطه آذان العدو ويثير تنبأه مما قد يكون سببا في فشل المهمة ثم إن الأتراس الجلدية خفيفة مما تكتسي قيمة عظيمة في مثل تلك الظروف .

وفيما يتعلق بعدد الدين أرسلهم ماريوس صحة الجندي اللبغوري فقد اختلف المؤرخون . فهذا صلوسيتشير إلى عدد ضئيل حيث تركب اسرية على حدة قوله من خمس نواقين خفاف وأربع ضباط صغار فعددهم لا يفوق العشرة

مما يتماشى وخطورة المهمة التي أنيطت بعهدة سرية وهي حديرة بأن تسمى سرية الموت . ولقد أثار ذلك العدد الضئيل شكوكا لدى القدماء أنفسهم حتى أن أفريتنسوس Fronton وهو مؤرخ روماني عاش في القرن الأول بعد المسيح . أحجم عن موقعة صلّوست واكتفى أثناء حديثه عن تلك المعامرة الخطيرة بذكر حدود خفاف دون الإشارة إلى عدد مصبوط . والمعسوم أنه من واجب المؤرخ أن يحتريز ويقف وقفة الحذر إزاء الأرقام التي يقدمها المؤرخون القدامى في كتاباتهم التاريخية .

كان الحديدي الليغوري إذن يفتح الطريق أمام رفاقه بساعدهم بكل ما أوتي من حذق وتحريه ومعرفة للمنطقة . وبعد جهد أنهلك قواهم أدركوا القلعة من جهة كانت عارية لأن الحدود المرابطين بها كانوا منهمكين في معركة لا تعرف الانقطاع حيث كان جود ماريوس لا يتركون لأعدائهم دقيقة يستريحون فيها بل كان التومبيديون فوق حدران القلعة لا يترلون عنها يرصدون قذائفهم على عدوهم كي يمنعوهم تسلق الجبل العنيد وكانت على حد قول صلّوست قذائف التومبيديين تسقط على الجيش الروماني وتصحها عبارات لتنهديد تذرهم بالخطر الذي يترقبهم . خطر فيه الموت وفيه العبودية . كانوا كذلك منهمكين في المعركة فإذا بأصوات الأبواق تعلو من خلف فارتاب النساء والأطفال وانسلخوا هاربين

وتسرب الرعب في قلوب الجميع مما ساعد الرومان على الرحف جرياً وكان كل واحد من جود السرية يحاول أن يكون أول من يسخر القلعة . وتم كذلك فتح قلعة الملوية وكان فتحها نتيجة ظروف عرضية حسب رواية صلّوست ولا يعود الفضل فيه إلى عبقرية ماريوس .

ولكن أين بوعرطة وما كان عمله خلال تلك الأيام العسيرة التي عاشتها المنطقة الغريبة من مملكته ؟ يبدو أنه كان بعيداً عن قلعة الملوية ولم يشارك في لدفاع عنها . لم يذكر صلّوست شيئاً من ذلك بل اقتصر على الحديث عن ماريوس وجيشه كما رأينا . لكن بغتنا أصدقاء عن طريق دول وُزوز «Paul Orose» وديون كسيوس «Dion Cassius» عاش الأول وهولاتيبي الأصل في القرن الخامس بعد المسيح وكان بالتصال متين مع القديس أوغستينوس الإفريقي . وعاش الثاني وهو يوناني الأصل في القرن الثالث بعد المسيح . بلغتنا في كتاباتهما أصدقاء تحت أن الرومان فقدوا إذك مرقية مدينة سيرتة Cirra وقد فتحت أبوابها فسيحة لجنود بوعرطة . ويعترض ستيفان اقرا «Stéphane Gsell» أن اتصال مدينة سيرتة وقع بعد توغل ماريوس في مغامرة الملوية . فلما كن ماريوس يهاجم قلعة الملوية كان بوعرطة عند ذلك يعمل بالمنطقة الشرقية حتى دخل مدينة سيرتة .



كما أنه بعض المؤرخين. تلك هي الأسباب التي حالت دون مشاركته في معركة الملوية. ولعله كان يسعى إلى قطع ماريوس وجيوشه عن مراكزهم الشرقية وهي التي تمدتهم مؤونة وعتاداً. على أننا نحس تفاصيل الأعمال التي قام بها الملك انوميدي في المنطقة الشرقية كالتصارات التي سجلها والعقبات التي تجاوزها. لاد، لم تحدث عنها صلوت ؟ ذلك لا يستلج الإجابة عنه ! لاشك أن ماريوس أبهى حامية ورومانية ترابط بسيرة كي نجابه الطراري ونضرب على أيدي العائين في الداخل وتصدئ للعدو الخامن عليها من الخارج. فكيف دخل يوغرطة لمدينة إذن ؟ فهل كانت العملية عسيرة ؟ أكان له في المدينة حزب يناصره ؟ هذه أسئلة ليس في المصادر القديمة ما يساعد على الإجابة عنها. وإن دلّت على شيء فإنما تدلّ على جهلنا بالظروف التي أحاطت بحدث تحاهله صلوت (Sallust) ولم يشر إليه وبوبكلمة واحدة كما أسلفنا. أليس جديراً بالمؤرخ أحياناً الاعتراف بجهله عوض تقديم التفسير الافتراضية المهلهة ؟

على كل فقد انفصلت مدينة سيرة عن الرومان سنة 106 قبل الميلاد وبانفصالها بات الوضع خطيراً بالسببة للجيوش الرومانية النعيسة عن مراكزها الشرقية تلك التي نمدتها بالمؤونة. ومها تأتيتها المعونة من رجال وعتاد. وأبقس

ماريوس بحصوده. ومريم سمح بعوده صيدا استرجاع المدينة المنفصلة وإقامة معسكر الشتاء قربها. على أن الجيش الروماني كان يمرّ بربوع قبائل معادية تكروه وجود جيش أجنبي فوق أرضها يلدوسها. وقد لا يتردد في نهها شأن كل جيش عملت فيه شوة الانتصار. ولم يتحدث صلوت عن موقف هذه القبائل الأفريقية من جيش ماريوس ومروره عبر أرضها. فهل كانت مسيرته تحت كنف السلم ؟ أم تخللتها اصطدامات بين الأفارقة والرومان ؟ لاندري شيئاً من ذلك ! وقد اكتفى صلوت بالإشارة إلى عودة ماريوس بجيشه نحو مدينة سيرة ذاكراً أن القائد كان يسهر بنفسه على كل تفاصيل المسيرة من حيث نظام الجنود وتطبيقهم للأوامر بحذافيرها. وفي تطبيقها كان على قول صلوت لابلحاً إلى العنف والوعيد بل كان يشر بأقواله وأعماله مشاعر الحرية والشرف الكامنة في كل من حنوده. من ذلك تراهم حريصين على القيام بأعمالهم وتطبيق أوامر قائدهم وإن كان في ذلك الحرمان ولشقّة. لقد سطا ماريوس على قلوب جنوده لما زرعه فيهم من قداسة الواجب وشعور بالسؤولية. وإن زرع فيهم تلك المشاعر البيلة فذلك لأنه كان يشاطرهم أعمالهم وعواطفهم أرقل كان يعيش بالقرب منهم ولا يستكف من شيء يريده لهم.

الانتصار . ولعلته كان يظهر لجنوده في مظهر الذين يتمتعون بعطف الآلهة وعنايتهم . تلك هي الصورة التي رسمها صلّوست وأظهر لنا فيها الجيش الروماني في أحسن أحوال وأبدعها .

وإن كان ماريوس يدعو جنوده أن يسيروا متمهين نحو مدينة سبرّة فذلك خشية أن يفحشه يوغرطة ويرتضي عليه من حيث لا يدري . وقد ذاق الجيش الروماني الأمرين من مفاجآت يوغرطة طيبة هذه الحروب الصروس . كان القائد ماريوس يحثى الفطوط هجأة تحت صرير يوغرطة سيما وقد دخل بكّوس ملك نبي ماور إلى حانب النوميديين بصفة عملية . إذ شعر هو الآخر بوزن الخطر الروماني وقد عسكرت جنود ماريوس وقاومت على حدود مملكته أيام حملها على قلعة الملوية .

قرب ماريوس من المملكة الماورية قصد ترهيب بكّوس لكن النتيجة كانت عكس الهدف المرسوم . فعوض أن تنلص رغبة بكّوس في الانضمام إلى صف يوغرطة كانت معركة الملوية حافرا دفعه إلى التعجيل بالعمل والافتناع بأنوال يوغرطة ونصائح أعضاء حاشيته وكانوا من الذين يساندون الملك النوميدي . ويرى صلّوست أنهم ساندوه

لما كان يقدقه عليهم من عطايا رماول . وتتن السح يوغرطة في اقناع بكّوس وجلبه لصفوفه مدلك لأنه كان يحمل عليه بوعوده المغرية منها أنه وعده بثلث المملكة النوميديّة في صورة انتصاره على الجيش الروماني أو عند صلح بينه وبين روما على أساس احترام المملكة النوميديّة .

لاشك أن ذلك إن صحّت تاريخيته من احوال التي دفعت بكّوس وجلبه يجند جيشا كبيرا ويلتحق بصهره يوغرطة (103) . وكان إذ ذاك يهود فيلقاً من الخيالة جلبهم من قبائل حدالة . وكان ماريوس وقتئذ متّجها كما سبق ذكره نحو مدينة سبرّة لأسباب وأهداف تحدّثنا عنها . وعمد يوغرطة وحليفه الماورّي إلى التصديّ للجيش الروماني ومنعها من الوصول إلى العاصمة النوميديّة .

• يوغرطة وبكّوس يهاجمان ماريوس :

التحق الجيش النوميدي الماورّي بجنود ماريوس ذات يوم وقد ملّت الشمس نحو الغروب وهي ساعة تلائم الانفارقة وقد بساعدهم ظلام الليل عبد الهزيمة ولا يعوقهم عن لعمل إن كانوا من الفاتزين . والليل يعرقل حركات الجيش الروماني سيما وليست له خبرة بكلّ حاحيات المكان ولا علم له (103) فخرج يوغرطة مع بكّوس ومن غابته من ذلك كانت توطيد العلاقات بينه وبين ملك نبي ماور .

بالمسالك والطرق المتنوعة . التي قد تساعد على التراجع كما تساعد على مباغتة العدو .

فوجئت القيادة الرومانية إذن بزحف الجيش النوميدي الماوري وارتسى الخيالة على الرومان قيس أن يصطفوا بل قبل أن تبلمهم أوامر القيادة . حمل عليهم العدو بطريقة عربية لاتخضع لأي نظام على حد قول المؤرخ صلّوست . كان فرسان الأمازيغة يحملون على عدوهم زمامات بأنوفهم من كل صوب . نزلهم يصدّون ضرباتهم نحو عدوهم وينسونه عند الضعف وتراهم يتراجعون متفرقين بسرعة في صورة ما إذا تصدّت لهم قوة عنيفة أو كان خطر يحدو بهم . لقد ارتاع الجيش الروماني لكن الجنود لم ينتحوا عن شجعانهم على قول صلّوست . فهذه جماعة هرولت نحو الأسلحة وآخرون يصدّون عنهم ضربات العدو فكانت المعركة في نظر المؤرخ الروماني أقرب إلى ملاقاتة مع قطاع الطريق منها إلى المعركة المنظمة . ترون أيها القراء الأفاضل كيف حاول المؤرخ الروماني صلّوست أن يقابل بين نظام الجندي الروماني وخصومه وامتناله لأوامر القيادة وبين عدم نظام الجيش الإفريقي . ويضيف مؤرخنا أن الأمازيغة يحمون على عدوهم دون ما خطة مرسومة وكان كلاّ منهم يقاتل صفة شخصية دون ما تنسيق . والغاية من ذلك بالنسبة

للمؤرخنا هي إبراز الإفريقي في مظهر البدائي المتوحش الذي لم يصل بعد إلى مستوى يجعله يؤمن بالنظام ويسلط النظام على أعماله جميعها . فالنظام الروماني يرمز إلى الحضارة والقوة . وهزيمة الإفريقي تعرب عن التأخر والوحشية . بل عله كان يريد أن يبرز لنا الروماني كصديق للحضارة والإفريقي كعدو لها . وهذه النظرية ما انفك صلّوست يدّعيها بأمثلة واضحة لكنها مشكوك في تاريخيتها . وقد سبق أن ذكرنا أنه وصف لنا حرب يوغرطة حسب مقاييس مسيئة وضعها نفسه كمنارة يستضي بها بقطع النظر عن الواقع والتاريخ

على أن الاصطدام كان حثيفاً بين خيالة يوغرطة والجيش الروماني ولم ينته عند الليل وقد أمر الملك النوميدي جنوده بمواصلة القتال حتى شعر ماريوس بخطر الظلام . ميّتا جملة ينسلخ نحو ربوة وعرة المنحدر بسيرة المراقبة والحراسة . فأشار إلى مساعدته سلاً (104) «Sylla» أن يتسلط على ربوة أخرى صغيرة قريبة من الأولى وكانت بها عين ماء جارية تسدّ حاجة الجيش وتبعد عنه شبح العطش . ونصب الرومان معسكرهم على الربوة الأولى .

(104) ينسب سلاً إلى عائلة من اشراف الرومان لكنها انتقلت على أنه كان متفقاً ثقافاً واسعة وكان طسرحا انظر : STEPHANE GSELL الكتاب الاتف الذكر الجزء الثالث ص. 240

حسب المعروف لل شعوب المتاخمة المتوشحة من غاوة ورفض حول النار . فكلام صلّوست لا يعرب عن الحقيقة التاريخية بل هو من باب الأعراس التاريخية (106) . لكنه يبيّن لنا كيف كان صلّوست يرى الأفارقة على سوء سواطفه الشخصية واختياراته لسانية وقد يبيّن لنا أيضاً كيف كان الرومان يرون الأفارقة من خلال مظاهرهم الروماني وقد عرّب لنا عمّا كان الرومان يضمرونه للأفارقة من عداوة واحتقار . ويدّو أن المؤرّخين الرومان قاموا بدعاية ضدّ الأفارقة مساهمة منهم في إنجاز السياسة الرومانية التي كانت تستهدف التسلّط على كامل الأراضي الإفريقية .

من ذلك نرى أن المؤرّخ الروماني لا يتردّد في النسل من شرف الأفارقة ناسباً إليهم الغدر والخيانة والتوحّش وكره النظام كلّ ذلك حتّى لا يتورّع الشعب الروماني من سياسة العنف التي تدعو إليها بعض العاصم الرومانية قصد التسلّط على الممالك الإفريقية ولنا في كتب المؤرّخين الرومان شهادات كثيرة تثبت صحة ما ذكرناه في هذا الشأن .

نزل إدد جيش ماريوس من ربوته صبحاً وانقصّ على الأفارقة يقتلهم غير أنّه لم يكسب الحرب وما انفكّ خطر يوغرطة محدّقاً به وقد يطبّح به إن لم يكن على نقطة دائمة

(106) سوف يأتي الحديث عنها بعد حين

فتابع ماريوس مسيرته تحت شعار الحنّ والاعتماد . وبعد ثلاثة أيّام نزلت جاءت أنباء تثبيت وجود الجيش النوميدي الماوري على مقربة من الرومان . وكان يوغرطة ند نظم جيشه وحدات خمسة أملاً أن تتمكّن إحدى الفرق من مباغته الرومان وضربهم من خلف . لكن خاب أمله حيث لم تتحلّ ماريوس عن يقظه وكن مستعدّاً لكلّ انطوري . ونمّا أيقن ماريوس بالخطر أشار إلى الجيش بالوقوف بترقب عذوه وكان الاصطدام من الجناح الأيمن وكانت قيادته بيد لقيب سيلاً .

حمل عليه نصر من خيالة بني ماورفاشار سيلاً لبعض فرسانه أن قوا سداً في طريق الماوريين . ثمّ جمع شتات فرسانه وارتمى على العدو . وكان إذ ذاك الملك بكتوس يقاوم على رأس المشاة في الجبهة الغربية . وكان يوغرطة بالجبهة الشرقية حيث يوجد ماريوس . ولما بلغه أن بكتوس دخل المعركة واصطدم مشاقه بالجيش الروماني أسرع يوغرطة نحوه يقود كوكبة من الفرسان . وأورد صلّوست أنّه أقبل على الرومان وأراهم حنجره ملطخاً بالدم وصاح فيهم قائلاً بلغتهم : إنّه قتل ماريوس فلا فائدة في متابعة القتل .

وكان لكلام يوغرطة وقعته في نفوس الجنود الرومان وتعلّست عليهم الحيرة حتّى كانوا على وشك الانصوع . وكان

الوضع خطيراً لكنّ سيلاً بعد انتصاره في الجهة الجنوبية حصل على مشاة بكتوس فقتلص ملك بني ماور حالاً وبقي يوغرطة وقد حفت به فرسان لقب الروماني حتى سقط حوده فلاد بالفرار تطارده سهام عدوه .

وتحدر الإشارة هنا إلى « لوحة » القائد الذي يفرّ وحيداً بعد سقوط جنوده في ساحة الوعي . يفرّ وسط ربيعة من السهام والرماح دون أن يصيبه شر . إنها لوحة في وأيا تعود إلى ماسيناه منذ حسن الأغراض التاريخية وفي اغرض التاريخي تكون الفكرة أو الصورة مسئلة طفا لبعض القواعد الأدبية أو الفنية ولعص الاصطلاحات دون أي مراعاة للواقع التاريخي . ومن المرجح أن الأغراض التاريخية وضعت نتيجة تأثير الأدب والسر على المؤرخين القدامى ، مما يبي بمتانة الروابط التي كانت في القديم تصل بين التاريخ والأدب . فكان المؤرخ يكتب التاريخ لا بالعودة إلى الواقع والحقائق التاريخية فحسب بل كان يرى لزماً عليه أيضاً إبراز مواهبه الأدبية وقدرته على الوصف البديع المثير من ذلك نرى أن بعض الصور والمشاهد والأحداث تعود في ظروف مختلفة . فهذه صورة القائد الذي يفرّ وحيداً . ورغم قوّة العدو التي تحيط به تراه على متن فرسه هارباً وسهام العدو تطارده وقد بطارده العرسان أنفسهم . كذلك فرّ عبد ملقرط

والد حتمل (107) لَمّا حملت عليه الجيوش الإيبارية في اسبانيا . وكذلك فرّ مسيناس من قبضة جنود سيفاكس (Syphax) وكذلك نرى يوغرطة يفرّ وحيداً خلال سحابة من السهام والرماح . فتكرار هذه الصورة جعلنا نفترض أنها من باب الأغراض التاريخية أي صورة يرسمها المؤرخ بتصرف في ظروف معينة . ومن ذلك مشاهدته في الكتب الأدبية أو الأشرطة السمائية كالمبحر والروبيع والأمطار الغريبة أو سباق السيارات بيلا . كلها أغراض أدبية فنية يلجأ إليها الكتاب والمخرجون في ظروف معينة ولأهداف معينة . كذلك يعتقد أن بعض المؤرخين في القديم كانوا يلجأون إلى بعض الأغراض التاريخية كالذي أسلفنا ومنها المطر الذي يأتي أثناء المحنة وترويه يكون لمرج . رأيت كيف نيمت جنود متلوس بالمطر أثناء زحفهم على مدينة تاله . ونرى « غرض » المطر منحوتاً على سارية الامبراطور تراجانوس (Trajan).

أما انتصار الجيوش الرومانية فهو أمر لا تشك فيه . حيث انتهت المعركة ونقبت ساحة القتال معطاة بالأموات من جنود وخيل كلهم ملوثون بالدماء . وإلى جانب الموتى ترى احترق طريحي الأرض يتسوّن من شدة الألم .

(107) صنعت كتب عديدة حول القائد القرطاجي الشهير جعل على أن احتلها للمؤرخ الفرنسي . G. PICARD, Hannibal, Paris 1967

ذكر المؤرخ صلوت هذه التفاصيل ورسم حابه لألوان  
وسمائه أظن بعض الشيء عند الوصف دون مراعاة لموقع  
التاريخي . وفيه يتجلى حرص المؤرخ على الوصف الأدبي  
على غرار الأدباء المهرة .

وبما يتعلق بالمعركة التي سبق الحديث عنها بلقنا  
رواية أخرى أوردها بول أوروز «Paul Orrez» وهو مؤرخ  
روماني عاش في القرن الخامس بعد المسيح ويدّعي أنه استقى  
هذه الرواية من كتب تيت ليف «Tit-Live» . وقد عاش  
هذا المؤرخ الروماني في القرن الأول قبل المسيح . وتذكر  
رواية بول أوروز أنّ يوغرطة وبكنوس حملا على جيش  
ماريوس قرب مدينة سيرة وهما على رأس خيابة وسأه  
كثيرون . وكان الاصطدام عيافاً وكانت المعارك دامية طيلة  
ثلاثة أيام وقد أحاط الأفارقة بجيش ماريوس حتى أوشك  
على الهلاك سيما وكان الرومان يقاسون شر القبط والعطش .  
وفي اليوم الثالث كان خطر الهزيمة عديداً بالرومان  
ولعل بعضهم كان تحت سيطرة القنوط . لكن السماء منّت  
عليهم بمطر غزير شفى غليلهم وأعاد هم روح الأمل فصاروا  
يفكّرون في تلافي الخطر وقد يكون هذا المطر أيضاً من  
باب الأعراض التاريخية كما أسلفنا  
على أنّها مطر كانت مياهها مهلكة بالنسبة للأهرفه

وقد عاقبهم عن أسخداً رسخهم إذ تلت وصارت  
تترلق بين أصابعهم لا يستعجبون قبضها ولا رميها وبق  
إرادتهم . والأحط من ذلك هو تبلل أتراسهم الجلدية وقد  
انضخت ونقلت ممّا حال دون استعمالها للوقاية . كذلك لم  
يبق للأفارقة إلّا أن يتراجعوا وتركوا النصر لجيش روما .  
على أنّ يوغرطة وبكنوس لم يأسا بل سرعان ما أعدا  
الكرّة وكان جيشهما يعدّ تسعين ألف رجل وشبّ اصطدام  
آخرين لجيشين وانتهت المعركة بنهزام الأفارقة . ويثبت  
بول أوروز أنّهم هلكوا على آحرهم . فرواية هنا المؤرخ تختلف  
بعض الشيء عن التي أوردها صلوت . ويؤثر ستيفان إقبال  
رواية صلوت ويتقدّم أقرب من الواقع التاريخي .  
انتصر ماريوس إذ وكاد تصاره من الخطورة بمكان  
وكان على سكان مدينة سيرة أن يعترفوا بالواقع ولو كان مرّاً .  
وفي نكران الوقع هزيمة ووبال . من ذلك استسلمت مدينة  
سيرة وفتحت أبوابها إلى القائد ماريوس من جديد فدخلها  
مظفراً عزيزاً . لكن القنوط لم يحد منقداً لقلب يوغرطة مع  
شعره بضعفه تحت تأثير الانهزامات التي تجرّعها جيشه  
مِمّا جعل القبائل الأمازيقية تنظر إليه بعين فائرة . وأيقن  
يوغرطة معزّه عن متابعة الحرب في صورة ما إذا انصل  
عنه بكنوس .

الباب العاشر  
خيانة بكورس

لقد سئم بكتوس حرباً ضروساً كبّدت جيشه خسائر  
فادحة وعادت المعركتان الأخيرتان عليه بالوبال حتى أصبح  
يفكر في الانفصال عن يوغرطة بل أوفد رسلاً إلى مدينة  
سيرقة مهمتهم الاتصال بالقيادة الرومانية . واجتمعوا فعلاً  
بماريوس وطلبوا منه بإلحاح أن يرسل مبعوثين يتصلان بالملك  
بكتوس وينظران معه في كيفية وجود حلّ يناسب الملك  
ويتماشي والمصالح الرومانية .

« سِـلَا ومنليوس يتصلان بملك بني ماور : (108)  
أوفد ماريوس رسولين إلى بكتوس وهما سِـلَا ومنليوس  
واتّصلاً بالملك وخاطبه سِـلَا قائلاً : يا جلالة الملك ! إنّه  
ليسنرنا أن توحى الآلهة لرجل مثلك روحاً تدفعك إلى إثارة السلم

---

(108) نحن نجهل المكان الذي تقابل فيه سِـلَا بملك بني ماور



على الحرب وإنه ليسرنا أن نرى أميراً في كدك بعدل عن تشويه سمعه ويستكف من الاحتكك بأشنع المحرمين يوغرطة. وأصاف : إن الشعب الروماني منذ بداية سلطانه المتواضع ما انكس يؤثر أن يكون له أصدقاء عوص العبد . ويرى الشعب الروماني أنه من الأوثق أن تكون السلطة مركزة على إقتناع لا على العنف . أما بالنسبة إليك فلن نجد صداقة أجدي لك من صداقتنا . نحن نعدون عك لكن ذلك لا يعوقنا عن مساعدتك كلما دعت الحاجة إلى ذلك . ونقوم بذلك كما لو كنا بالقرب منك . هذا وإن كان لنا عبيد نشترهم فليس لنا ولا لغيرنا من الأصدقاء كفاية . فلم لم تكن لك مثل هذه العواطف نحونا ؟ فلو كان ذلك لأحس لك الشعب الروماني أكثر ميماً أساء إليك . لكن الأقدار قد تسيطر على الإنسان حسب مشيئتها وبما أنها أت إلا أن تجعلك تجرّب قوة الرومان وعظفهم بالتداول وبما أنها تمكنت الآن من تجربة عطف الشعب الروماني فأسرع بإسقام ماشرعت فيه . ولك شتى المناسبات لتكفّر عن هفواتك الماضية ، بخدماتك الحاضرة . فكن مقتعاً كل الإقتناع بما سأقوله لك : إن الشعب الروماني لم يسمح لأحد قط أن يتغلب عليه إحساناً . أما قيمته العسكرية فكان لك أن تعرفها . تلك هي خلاصة ما قاله سيلاً أمام بكتوس حسب رواية

سموست و... سيلاً... إننا ولا شك من صنع صلوت ووصعه على أنه ليس من الغريب أن يكون وضعها على ضوء ما استفاد من المصادر التي عاد إليها حول المقابلة التي صارت بين سيلاً وبكتوس . والغالب على الظن أنه رجع إلى مذكرات القيب سيلاً ومن المرجح أنه (أي سيلاً) دون الأحداث التي عاشها ولدور الذي لعبه في المفاوضات مع ملك بني ماور . وقد تساعدنا هذه الكلمة على فهم السياسة الرومانية والمبادئ التي كانت تتبعها في ذلك العصر كالمهينة على الشعوب بطرق سمية كلما أمكن الأمر .

وكان الرومان يعرضون صداقتهم على البلاد التي يريدون الهيمنة عليها . فبن قبلت صداقتهم بما تتضمنه من هيمنة ونفوذ ومصالح فيخر بخر وإن رفضت وتنطعت وتمسكت بحريتها و ذاتيتها رأيت الرومان يحتسون ويتسلطون عليها بالقوة ولعنن . تلك هي أسس السياسة الرومانية خاصة في بداية تكوين الامبراطورية .

وبعد تعرّضاً إلى كلمة سيلاً وكان فيها من الصلابة ما يمسّ بشرف الملوك ينبغي أن نستعرض الكلمة التي أجاب بها الملك الماوري . ويدعى صلوت أن جوابه كان ملؤه عبارات السلم والصداقة . ثم دافع عن نفسه قائلاً :

وذكر أنه أوفد رسلًا يلتصقون صداقة روما فلا يُعبأ بهم  
وصرفهم. ثم أضاف أنه لا يريد ذكر الماضي بإدح وإنه  
مستعد لإرسال وفد ثانٍ إلى مجلس شيوخ روم على أن  
يسمح ماريوس بذلك

ليس لأحد أن يشك في أن جواب بكتوس هو أيضاً  
من صنع المؤرخ الروماني صلوت وإن دك على شيء فهو  
بدل على ضعف ملك بتي مور ويعرب عن إردقه بتدخل  
في سياسة جديدة إزاء المشكل الروماني. لثوميدي. وسمح  
ماريوس له أن يرسل وفده إلى روما قصد فتح مقاربات مع  
شيوخها لكن بكتوس عدل عن ذلك تحت تأثير أصدقائه له  
ارتشاهم يوغرطة وكنفهم دفاعه حتى يسحق عن سياسته  
الجديدة. وشعر بكتوس بل أيقن أن لاسبيل إلى التعلت على  
الرومان سيما والتحرمة كانت قاسية إذ تخرج كأس اهريمة  
كلما اصطدم بالقوات الرومانية.

على أن أمره لم يستقر بل كان يتردد بين الالتحاق بروما  
والثبات إلى جانب صهره وحليفه يوغرطة لعدم استقرار  
أمره هو الذي جعله يقبل على نصائح أصدقائه ويقتنع بما  
أشاروا عليه به

ولم يبق ماريوس مكتوف اليدين بترقب تطور الظروف

مدينة سيرة وتوجه نحو ديار بني جدالة (109) يريد التسلط  
على قلعة حشد فيها يوغرطة كل الذين عادروا الصمدوف  
الرومانية والتحقوا به. وهاجمها فعلاً لكنه لم يهلع.

على أن الأوساط الرومانية كانت تعتقد أن لاسبيل  
لوضع حد لهذه الحرب إلا بانفصال بكتوس عن صفوف  
يوغرطة. كما كنت تعتقد أن لا أمل في الانتصار على الملك  
الوميدي انتصاراً حاسماً نهائياً إلا بقوصه تحت قبضة  
الحيوش الرومانية. وهو أمر عسير لاسبيل إليه إلا بمساعدة  
بكتوس. من ذلك ترى الرومان يسمعون إلى اقتناعه بكل مالبهم  
من وسائل الترهيب والتغيب. فكانت روما تشعره أنها  
نفخر الطرف عما صدر منه من أعمال ومواقف خطيرة  
أضرت بالجنش الروماني على شرط أن يساعده في القبض على  
يوغرطة. والملاحظ أن السلطات الرومانية لا ترى خطراً في  
بقاء ملك بتي مور على عرشه لعدا راصه عن لمناطق الخاصة  
لروما وتحدثر الإشارة في هذا الشأن إلى خلوع الملك بكتوس  
من كل سياسة افريقية تؤمن بإحلاء الرومان من ابريقية.  
مما قد يحجمهم لا يرون حرجاً في إضافة نوميديا العربية إلى

(109) يوحدة: «Les Lucules» قطر. A. DESANGES

Catalogue des tribus africaines de l'antiquité classique de l'Ouest du Nil. Index S. v. Gaetuli.

مسحه ساوريه . سيما والامر يصيب لكتوس وسهمهم اينوا  
أنه من العوازل التي ألقت به في الحرب . ولقد أشرنا إلى ما وعده  
به يوغرطة لئلا عرض عليه لتحالف والتعاون ضد حشوت  
رومًا

أما بكتوس فلقد نقضته المرائم أن مساعدته ليوغرطة  
ليست من صالحه في شيء سيما والقيادة لرومانه ما انفكت  
تظهر القوة والحزم في مجابهتها لجيوش يوغرطة ، نسجل انصر  
بعد انصر . أجل قد لا نستطيع القضاء على عدوها قضاء تاماً  
وقد تطول الحرب وقد لا يستقر الأمن في الربوع الامريقية  
ولكن ما عسى أن يكون مصير بكتوس إذا طالت الحرب وبقي  
هو إلى جانب يوغرطة وقد تدخل جيوش ماريوس المملكة  
الماورية . أفلم تدرك نهر الملوية وهو الفاصل بين مملكته  
والمملكة النوميديّة ؟

ظلت هذه التخوفات تخامر صدر بكتوس وبس له  
من عزم ورباطة جأش ما يجعله يسود عليها وينحازها .  
ولم يكن لذلك بني ماور من الطموح ما يتجاوز الاحتفاظ بالعرش  
تحت كنف الطمأنينة والاستقرار . وكأنه يعرض عن المشاكل  
كلما عسرت حلولها . ولئن دخل الحرب فذلك لأنه  
شعر بخطر الرومان يهدده ودخلها لأن يوغرطة رعبه  
بوسيع مملكته . فإن وعدته روما بعدم التدخل في مملكته

وقبيل تسليمه المنطقه العربيه من يومديا فلم يسق ما قد  
يعتلل في رأيه تعاونه مع يوغرطة .

أظهرت روم استعدادها لذلك لكنها طالته أن يساعدها  
بالقبض على يوغرطة وتسليمه إليها . ولاشك أنها خيانة  
عظمى ! ميماً جعل بكتوس يتردد ولا يعرف كيف العمل .  
هل كان يستكشف من الخيانة ؟ قد يكون ! على أن سيفان قرال  
بدعى بلا مبرر أن ملك بني ماور لم يكن ليأبى الخيانة بل كان  
يحاف القبائل الخاضعة لسلطانه

ومهما يكن من أمر فلقد كان بكتوس يتأرجح بين  
يوغرطة والروابط العائلية والقومية التي تصله به وبين لقيادة  
الرومانية ووعودها : فتارة تسلط عليه رغبته في التخلي عن  
ملك النوميديين وتنتهي السياسة الرومانية . ويتسلط عليه طوراً  
خوفه من شر عاقبة الخيانة . وبات يفتش عن وسيلة وعية  
تمكنه من السيطرة على الوضع وبها يتخلص من يوغرطة  
دون ارتداء ثوب الخيانة .

هـ وقد ماوري يتفصيل بماريوس :

ثم أقرّ العزم في النهاية أن يتصل بالقيادة الرومانية  
قصده درس المشكل والوصول إلى حل مرصّي . من ذلك أنه أوفد  
حمسة من أصدقائه (110) المخلصين إلى ماريوس وأشار عليهم

(110) انظر : صلوات و حرب يوغرطة ، الفقرة 03 .

أن يشحوا بروما إذا ما وافقهم القادة . وكلّفهم في صورة سفرهم إلى روما أن يعملوا جهدهم ليكون حلّ مشكله يوغرصة رنضع الحرب أوزارها .  
ولئن استقرّ أمرُ بكتوس على ذلك بعد ترددٍ طويل فالسبب فيه حسب قول المؤرخ صلّوست أنّ ملك بني ماور أصدقاء مقرّبين كانوا يهاضون سياسة يوغرطة حتّى أنّهم لم يتأثروا بوعده ولم يقبلوا رشوته بل كنوا بدسّون له وأثروا على مسكهم بكتوس فعجل بالانفصال عن حليفه النوميدي وانضمت إلى القيادة الرومانية . وذهب سنيان اقزال ملحد صلّوست بل ولاحظ أنّ أعوان الجوسسة الرومانية كانوا يتصلون مع الذين كانوا في حاشية بكتوس يهاضون سياسة يوغرطة . ولئن رعد هؤلاء في الرشوة النوميديّة فلعلّ روما كانت تلوح لهم بما هو أعظم وأنعم : هدايا ووعود خلافة أعزّهم فأقبلوا عليها وعمدوا حتّى انتزعوا من ملك بني ماور ذلك الاختيار الخطير . ولعلّ السلطات الرومانية وحدث في بعض الأمراء الأفارقة أعواناً ساعدوها على إقناع بكتوس وتكسر الخلف النوميدي الماوري . وميماً قد ثبت أنّ بعض الأفارقة الأعيان كانوا يعملون في صالح روما يمكن أن نشير إلى أمير نوميدي كان يتردد على قصر بكتوس وهو أي الأمير النوميدي مس الذين عرفوا بإحلاصهم لروما ونضاحهم في صالح سياستها .

فلعله كان يتردد على قصر بكتوس لمهمة أنيطت بعهدته من طرف الرومان أنفسهم . غادر الوند الماوري إذن قصر الملك النوميدي واتجه نحو القائد الروماني وكان إذ ذاك بعيداً عن المعسكر وقد خرج على رأس كتيبة يريد التسلط على قلعة كانت بالجَنُوب في ديار بني جدالة وقد كنّا أشرنا إليها منذ حين . ولما كانوا في طريقهم نحو القائد ماريوس سقطوا تحت قبضة قطاع الطريق ، وأثبت صلّوست دون شهادة أنّهم أي قطاع الطريق من قبائل جدالة . عثوا بأعضاء اوفد وسلبوهم حتّى لم يكن لهم إلا أن يعودوا على أعقابهم ويأخذوا طريق مدينة سيرنة وفيها اتصّلوا بالنقيب سيلاً وهم في حالة يرثى لها . فأحسن قبولهم وأكرمهم كما يكرم الأصدقاء الحلفاء . فآثر ذلك في أنفسهم أحسن تأثير وإن لهم أنّ ادعاية القاتله يبخل الرومان وتسمّتهم كاذبة واقنعوا أنّ سيلاً صديق لهم وقد ببجلهم وقدّم لهم الهدايا . وعلّق المؤرخ صلّوست على هذه الأحداث قائلاً : « كان الكثير من الناس في ذلك العهد يجهلون « الكرم الطامع » (11) . ويعتقدون أنّ الكرم لا يكون إلا من باب العناية وينسبون كلّ هدية إلى العطف والمحبة » .

(11) صلّوست يعلّق على الحفاوة التي أظهرها سيلاً لراه أعوان بكتوس انظر : المصدر نفسه الفقرة 103 .

محلات استنحة ان انصى رسل بحوس الى سيل  
 بالمهمة التي أنصت يهدهم وطلبوا منه أن يفضّل بمساعدتهم  
 راغبين منه الحماية والنصحة وتحدثوا عن ملكهم فأرزوا  
 ما لديه من قوة وما بكنته من إخلاص نحو لرومان بل  
 قل أبرروا كلّ المنافع التي قد يجدها الرومان في شخص  
 نكرس إن قلوبهم مبدأ التفاوض والتعاون معه . وأحايهم سيل  
 واعدأ إنهم أن سيعمل على تحقيق رغائبهم ولم يخل عليهم  
 فعلا بنصائحهم خاصة فيما يتعلق بالطريقة التي ينبغي أن  
 يتوخوها عند مخاطبتهم ماريوس وأعضاء مجلس الشيوخ في  
 روما .

ومكث الوفد الماوري صمياً على سيلاً يترنح عني  
 القائد ولم يأت المدينة إلا بعد أربعين يوماً . فما أن أحبط  
 عما بوجود رسل بكوس حتى استقدمهم واستقدم نقيب  
 سيلاً كما دعا لحضور اجلسة حاكم مدينة أوتيك وكدت إذ ذاك  
 عاصمة الولاية الرومانية بإمريقية ودعا إليها كلّ الذين  
 ينتمون إلى طبقة الأشراف والموجودين بإمريقية

• ماريوس يجتمع بالوفد الماوري :

شرح أعضاء الوفد الماوري موقف ملكهم تجاه الرومان  
 وصرحوا برغائب بكوس، منها رغبته في إيقاف الحرب بعقد

هدنة، ومنها رغبته في أن يتمكن الوفد الماوري نفسه من  
 متابعة طريقه نحو مدينة روما قصد الاتصال بمجلس الشيوخ.  
 فقيما يتعلّن بالذهاب إلى روما والتحدث مباشرة مع أعضاء  
 مجلس الشيوخ فقد لبّت القيادة دعوة الملك الإفريقي وأما الهدنة  
 فقد دار الحوار حولها طويلاً بين الحاضرين فكان سيلاً يحتذ  
 مبدأها وطلب إبرامها وانضمّ إلى جانبه غالب الحاضرين على  
 أن "ثمة" من المتطرفين غلاة الحرب عارضوا سياسة الهدنة  
 واحتهدوا في إبراز خطورة الوضع مادّين بضرورة متابعة  
 الحرب حتى لا يتمكن العدو من الراحة وتضميد جروحه  
 وتعزيز صفوفه . واستقرّ الأمر في النهاية على إبرام الهدنة  
 وذلك كان قبل المطالب الماورية جميعها .

• رسل نكوس يلتحقون بروما :

تابع ثلاثة من الوفد الماوري طريقهم نحو روما صحبة  
 موظف روماني سام كان قد أتى بفروض الجنود منذ أيام .  
 أما اصهران الآخرون فقد عادا إلى الديار الماورية يشيران الملك  
 بحج المهمة . فستبشر وطابت نفسه خاصة لما وجد أعضاء  
 البعثة من عناية وعطف من طرف لقيب سيلاً . وقد أطلب  
 الرحلان في التنويه بكرم سيلاً ومجداً سمو أخلاقه وحبّه  
 للملك .

ولكن فليعد للذين تركناهم على متن سفينة تشق بهم عاب البحر مقصدا مدينة رومًا . فما إن ألفت سفيتهم مراسيها بالمرأى حتى اتجهوا رأسا إلى مجلس الشيوخ يسألونهم رفقا بالماورين وملكهم . واستمعوهم كي يفضوا الطرف عن الحمرة التي ارتكها بكتوس عفوا بل من جراء أحولة حاكها له يوغرطة على حد قولهم . ولاشك أنهم اعتصموا الفرصة ليندوا بأعمال انوميديين ويشهروا بالجرائم القضيعة التي اقترفتها يوغرطة بتعد إيمان في النخس والدبر . حرائم اقترفتها تحاه الذين عملوا جهدهم في تربيته ونكويته ولقتوه مبادئ الحضارة بل وأجلسوه فوق العرش . كتبها أنوال من السير علينا أن نقترضها في أمواه رسل بكتوس وهم مائلون بين أيدي أعضاء مجلس الشيوخ رومًا . ولاشك أنهم أنوال يرتاح لها جل أعضاء ذلك المجلس إذ قد تعرب عس حواطر تدور بجلدهم . فالاعراب عنها في ذلك الطرف قد يرثر في أنفسهم أحسن تأثير مما يجعلهم يقبلون النظر في المطالب الماورية ويأخذونها بعين الاعتبار

وبعد التوسل والاستعطاف توجه الوفد إلى مجلس الشيوخ يسأله التحالف والصداقة مكان مصمون الجواب أن مجلس الشيوخ والشعب الروماني لا يسيان شيئا من الحسات ولا تخفي عليهما سيرة . ولما اعترف بكتوس بهفوته وانثنى عن سياسة

العدوان تجاه روما فارومان لا يرون مانعا في اصفح عنه . أما التحالف والصداقة فلا يكونان إلا عد الحدارة . فذلك الجواب المقتضب الحاف أعربت الأوساط الحاكمة بروما عن استعدادها للنظر من جديد في علاقات روما مع ملك سي ماور دون أي التزام من شأنه أن يعيد الطمأنينة في قلوب الماورين . وقد تفتت الطمأنينة عزمهم على خدمة الرومن وقد تحملهم يزهدون فيب قد تستوجب المصلحة الرومانية . لم يلزم مجلس الشيوخ الروماني إذن أن ترك الباب مفتوحا واكتفى بوعود عامصة المحتوى تتوقف على شروط غير مضبوطة : تلفظا متلا بكلمة الحدارة دون أن يقع تحديد ما قد يضعه الرومان في تلك اللقطة . فمتى يكون بكتوس جديرا بالصداقة لرومانية ! ومتى يصل الشعب الروماني مدأ التحالف معه ؟ ذلك لا يعلمه إلا الرومن . وهي طريقة سياسية مؤرها الدهاء والحكمة تترك للرومان السيس لبطلسوا من بكتوس كل ما يريدونه منه من أعمال وموقف . فمن الواضح أن الرومان أهدافا معينة لأمعة يرمون إليها من وراء العموض الذي لسناء منذ حين . دلغموض يريدون أن يعمل بنوماور وملكهم في صالح الرومان ويتماتوا في . نجاز ما قد تكون فيه الحدارة . ويتضمن جواب مجلس الشيوخ مع فيه من اقتضاب وغموض وعدم التزام نفحة من الاعتزاز واشعور

بالقوة كما فيه احتفار الذين أنبلوا بعد العجز بلبسهم المصرة  
مطأحين الرؤوس ، مثلهم مثل العبيد المتأصلين في العبودية .  
ومهما يكن من أمر فقد غادر أوفد الماوري المدينة  
الرومانية ولم تحرب لهم الأوساط الرسمية إلا عن وعود  
غامضة خارية . على أن سيفان قرال يفترض محادثات حصّة  
دارت بين أعضاء أوفد الماوري وبعض الأوساط الشبيهة  
بالرسمية تناولت توصيح ما قد تريده روما من بكتوس أوفد  
تشرطه عليه لتصفح عنه وتمسحه صداقتها . وتقبل مبدأ  
التعاون والتحاليف معه .

عاد لوفد إلى الديار الافريقية وأطلعوا الملك على فحوى  
مهمتهم فكان منه أن يرسل نورا إلى القائد ماريوس يسأله  
تكليف الثقب سيلا بالاتصال به قصد تسوية الوضع بين  
روما والمملكة الماورية على ضوء ما يرى فيه مصلحة الطرفين  
ولعله كان يؤمن أن سيلا سيأتي محملا بمهمة واضحة تطلع  
ككوس على رغائب الرومن . وأسرع ماريوس بتلبية الدعوة  
الماورية حيث أوفد سيلا على رأس فرقة من الجيش الروماني  
تركب من كركية من الفرسان والمشاة من بينهم ثلثة من  
البلجاريين رماة المقاتل والمعلوم أن سكّان حرر البلغار قد  
عرفوا عد القدماء براعتهم في الرمي بالملاع . وكان من الدين  
راقبوا سيلا كذلك في مسيرته نصر من القواسين والخنود

المحملين بالأسلحة الخفيفة مما يساعدهم على السير الخفيف ووقاية  
الجيش من سهام العدو .

انطلق إذن سيلا نحو الديار الماورية وسار نحو العرب  
أربعة أيام دون أن يلاحظ ما قد يبئ بالخطر . وفي اليوم  
الخامس بان في الأفق العبد غبار كثيف يشير إلى وجود فرسان  
أفارقة فظنهم سيلا من جيش العدو فنادى جنوده للاستعداد  
وتوحي الحذر . وكان رفقاء القتب قد أوجسوا حفة إحتمل  
لحم عن بعد أن الجيش المتقدم نحوهم يفوقهم عدداً . من  
ذلك اصطف الرومان وأضحوا يترقبون إشارة تدنهم إلى  
ساحة القتال وقرع السيوف والرمح . ولكن سرعان ما عاد  
السيف إلى غمسه وستند الرمح على الكتف وقد أتل الكشافون  
وأطلعوا سيلا على حقيقة الأمر . وهو أن الفرسان الأفارقة  
القادمين هم من بني ماري بقودهم وإليك أحد أثناء ككوس  
أرسله أبوه لاستفسال سيلا في كركية من الفرسان تتركب  
من ألف رجل . وبعد قليل وصل والك واتحه إلى سيلا بحبيبه  
وقل : إن أبي يقرئك السلام وقد أرسلني لاستقبالك ومواكبتك  
في طريق قد لا تخلو من الأخطار . ثم تابع الركب سيره  
طيبة ذلك اليوم واليوم التالي دون أن يطرأ حادث مخيف وبعاً  
انحدرت الشمس نحو مضجعها وخط الجيش ركابه أقبل  
وإليك على سيلا وقد تسلط الخوف والارتباك على ملائحه

وأعظمه أن يوغرطة على مقرية من المعسكر . وأشار ولك  
(Vohux) بالفرار حالاً تحت كنف الصلّام .

لكن سيلاً امتنع وقال حسب رواية صنّوست : إنه  
لا يخاف نوميدياً أدائه الرومان كأساً أجنبية غير مأمّرة  
وهو لا يشك في قيمة جوده وشجاعته وأضاف إنه باقى  
بموت مؤثراً يقيماً . وإته ليؤثر الهلاك على خيجه جنود عهد إليه  
تحيادهم . وسأ شعر واليك بتصلب القلب وأيقن أن  
لا سبيل إلى إثائه عن موقفه أشار إليه أن يأمر برفع المعسكر  
ليلاً مبيناً أن الخطر قد يكون كل الخطر إذا بقي الجيش  
في ذلك المكان . والرجس ليلاً قد يعاط الملك البومدي  
ويكسر الحطة التي رسمها . ونومس واليك في الهابة إلى  
إقناع سيلاً . فأمر في الحال جنوده أن يسرعوا في تناول العشاء  
وأن يعملوا ناراً يؤججونها ويكأرحوا المعسكر قبل انتهاء  
الثالث الأول من الليل . أما أنار المؤججة التي أوصى بها  
سيلاً فالمرغوب منها إشعار العدو غلظاً ببقاء المعسكر  
الروماني

وسار الجنود في الليل الرهيب حتى مطلع الصبح وفيما  
كان سيلاً منهمكاً في تخطيط المعسكر أقبل نفر من فرسان  
نبي ماور أتوا يهرولون وعليم أن يوغرطة على مقرية  
مهم يتربصهم لينقض عليهم وسرعان ما شاع الخبر في

صعوف الرومان فتسلط الخوف عليهم وصحوا جميعاً من  
واليك ميماً أثار فيهم موجة عارمة من الغضب تدعو إلى  
الانتقام .

أما سيلاً وإن كان يشاطرهم ذلك الشعور فقد حرم اللجوء  
إلى العنف وبأدى جنوده وحشهم عن الشجاعة وانصمود ذاكراً  
أنهم سوف ينتصرون . وأضاف أنه من العار أن يذبر المرء  
والسلاح في يده . ثم التفت إلى واليك وأمره بالخروج من  
المعسكر . وكان الأمير يحاول تبرير موقفه والدموع تساقط من  
جفونه مشتبهاً أن لاصيلة بينه وبين يوغرطة . لكن الملك  
قد وقف عن سير الحطة بواسطة دهانه والجحوسة ولم  
يفتر بالنار المؤججة في الليلة البرحة . وأضف واليك أن  
ليس ليوغرطة من الجنود كفاية وأنه لن يتجاسر على القيام  
بأي هجوم ما دام يعلم أن واليك يراقب القلب . ثم حاول  
الماوري أن يبين أن أثبت سبل المدح تكون في السير علانية  
أمام يوغرطة وأنه (أي واليك) مسعد أن يبقى مع سيلاً  
دون فرسانه حتى لا تكون له فيهم حماية . وقس الروماني  
مقترح الماوري وتقدم الجيش صحبة واليك أمام يوغرطة  
وجنوده دون أن يمستهم بشر . وبعد أيام قلائل وصل الركب  
إلى الديار الماورية والتحقوا بمعسكر نكوس .  
لاشك أن في تدصيل الرواية المتعلقة بواليك وسلاً



والأحداث الناجمة عن وجود يوغرطة في طريق الرومان تناقصا مينا . فهذا وإليكُ يشير الناحية بالفرار العاجل تحت طي، نعلم لما أعلموه بوجود يوغرطة قرب المعسكر الروماني وبشت صلّوست أنّ الأمير كان مختاراً قلقاً بل وتسلط عليه لحرف حتى قدّ يحيل للقاري أن يوغرطة يحفل ما كان المبرّيون يقومون به من أعمال واتصالات مع لسلط لروماسة . وقد يخيل للقاري أيضاً على سوء ما أورده صلّوست أنّ الملك التوميدي قد تمكّن من الوقوف عليها بواسطة وسائله الخاصة وقد سمعا ذلك يشير إلى دهاء الملك التوميدي وجوسته . ثم نرى ذلك معه بعد الحيرة وملتق والخوف يشير بمتابعة السير دون مبالاة بل وألحّ أن يُسرّ الجميع سرّاً من الملك التوميدي مدّعياً أنّه سوف لن ينحسر على مهاجمتهم

وها يبدو تناقص جيداً فإن كان الأمر كما شرحه ذلك في الفقرة السادسة والمائة من كتاب صلّوست « حرب يوغرطة » فلم لَمْ يترخ هذه الطريقة منذ البداية ونحن فعل لما كان الرومان يتحملون أتعاب السير ليلاً كان من واجب ذلك إن كانت الحال كما ادّعاه أن يقيهم شرّ تلك الأعاصير والأخطار واضرّيفة بغيره حسب قوله إذ بكهيه أن يشعر يوغرطة بوجوده صحه سيلاً لينتني عن كلّ عمل عدواني . ثمّ

تنا لانفهم ذلك لحرف الذي تسلط على ذلك والذي تحدث عنه صلّوست في الأسطر الأور من الفقرة السادسة والمائة . كلّها فقط تلت وجود تناقص صريح في مواقف ذلك . والعريب أنّ صلّوست م يقف عند ذلك التناقض كما لم يجره ستيفان اقوال اهتمامه لما تناول قضية يوغرطة في الجزء السابع من كتابه الخاص بتاريخ بلادنا قديم . بل مرّ على تلك الأحداث المتناقضة مرّ الكرام . ولم نذكر صلّوست شيئاً يثبت أنّ سيلاً تقطع لتناقض وإليك في مواقفه بين عشية وضحاها . أليس من العريب أن يعمد الأمير للآوري إلى هذا التناقض لصريح دون إثارة حيرة في نفس القريب ؟ بل ! فلم لم يترصّ إذن صلّوست لكلّ هاته المشاكل ؟ إنّه من العسير علينا الإجابة عن هذا السؤال بصيغة قطعية . على أنّه في إمكان المؤرّخ أن يفترض ما قد يعلّل ذلك التناقض الصريح ويوقفنا على سير ما يشير الاستعراب .

ويمكن أن ننصوّر أنّ المؤرّخ الروماني قد اكتفى بتلخيص الأحداث مِمّا حمّله بحذف حريّات هامة وذلك ست المواقف متناقضة غريبة ويكون التناقض في هذه الصورة ناقصاً ظاهرياً نشأ عن تلخيص الأحداث . وهنا نرون الخطر الذي يحدث باللاحث إن لم يكن مليماً بكلّ الجزئيات المتعلقة بالمشكل الذي يريد سطره وحله . ويمكن أن ننصوّر أيضاً

ن المؤرخ ، فصلا عن الاختصار في سرد الأحداث ، زاغ عن الحقيقة التاريخية بذكر تفاصيل لا تنسجم مع منطق الأحداث نفسها بالرغم مما قد ترتديه من ألوان أدبية أو ملحمية . وبإضافة بعض التفاصيل الجريئة قد تتعير الأحداث التاريخية ويكون التناقض سيما إن لم يحسن الكاتب سلك الأشياء وإن لم يكن حريصاً على تنسيق الألوان التي تكسولوحته ومهما يكن من أمر فلقد أدرك ركب سيلاً معسكر بكتوس كما أسلفنا . وكان بالمعسكر الماروري إذ ذاك أمير نوميدي يدعى أسبَر (Aspar) وقد أوفده يوغرطة على تول صلّوست حتى يكون على علم كامل بما قد يدور بين سيلاً وبكتوس ذكر المؤرخ الروماني هذا الحدث في الفقرة الثامنة والمائة من كتابه . وهو حدث هام لأنه يجعلنا شك في التفاصيل التي ذكرها صلّوست في الفقرة السابعة والمائة والمعلقة بدهشة يوغرطة لما فوجئ بمروور سيلاً علانية . وأثرت فيه الدهشة على حد قول صلّوست حتى أعاقته عن الحركة . ولا شك أن ما قاه مؤرخنا في شأن الأمير أسبَر يتناقض تماماً مع ما ذكره في شأن يوغرطة ودهشته لما رأى ذلك يرافق سيلاً . ترون كيف أنقى بنا صلّوست في أجمعه من الأحداث المشعبة المتناقضة . فهل يمكننا الوقوف على درب الحقيقة التاريخية ؟

لقد أوفد يوغرطة الأمير اسمر إلى معسكر بكتوس ليكون على عم بالمفاوضات الرومانية الماورية . وفي رأينا أنه إذا تمكن سيلاً ورفاقه من المرور علانية أمام يوغرطة فلم تكن علة ذلك فلة جنود الملك النوميدي ولا دهشة عاقته عن كل عمل ولا وحود ذلك ابن بكتوس . بل من المرجح لدينا أن الملك النوميدي كان على علم من الاتصالات الرومانية الماورية وقد يكون بكتوس هو الذي أحاطه علما بها ملوفاً بوجود حلّ سلمى بالتفاوض مع العدو . ولعل يوغرطة نفسه كان طلب من بكتوس القيام بدور الوسيط بينه وبين الدين يريدون افتك به . على أنه لم يكن مطمئناً كل الاطمئنان لصره ميماً جعله يوفد الأمير أسبَر ليراقب عن كثب كل ما قد يجري بين سيلاً وبكتوس . وكان بمعسكر بكتوس ، عند حصول سيلاً به ، أمر نوميدي آخر يدعى دَبَار وهو ينسب إلى عائلة مستنيسا . وكان دَبَار (Labar) من المحلصين إلى الرومان . فأرسله بكتوس في الحال إلى القيب سيلاً يعلمه باستعداده لتطبيق أوامر الشعب الروماني جميعها وأنه يترك لسلّ اختيار الزمان والمكان لعقد ملاقاتة يقع فيها ضبط المشاكل التي ينبغي درساها . وأشار بكتوس إلى أسبَر متعوث يوغرطة وطلب من القيب أن لا يخرج وأن لا يتخوف من حصوره . فهي حيلة لجأ إليها قصد الوصول إلى حلّ سريع .

إد قد لا يتردد الملك النوميدي في عرقلة أعمالهم في صورة إبعاد أسير عن هذه المفاوضات فحضور أسير تكون به فائدة إذ قد يندفع بوغرطة ويقع في الفخ .

كان على دبار أن يوضح الوضع ويشرح موقف بكتوس وقد يبدو ملتويًا في أعين الرومان . وعلت صلتوس على هذا الموقف قائلاً إن الملك المودري لم يكن صادق الطوية وإن لأسباب لتي ذكرها لتعليل وجود أسير لتي من ناب اعث . إذ كان بكتوس في الحقيقة يتراجع لابللم حل من صالحه أن يسلّم بوغرطة إلى سيلاً أو هل يمكن بوغرطة من انقص عن القيب الروماني . غير أنه توشيح لايتسب مع الحقيقة التاريخية بل يبدو أن المؤرخ شعر بشي من التناقض بين الأحداث التي أوردتها في الفقرة السادسة والمائة والفقرات التي تنها من كتابه الآنف الذكر . شعربالناقض فأراد استدراكه شكوك أعرب عنها تجاه موقف الملك بكتوس

لقد أشرنا إلى المهمة التي أنيطت بعهد دبار والتي تتضمن صيانة القيب الروماني . ولكن هل تسلطت الخبرة على سيلاً حتى كان بكتوس في حاجة إلى طمأنته مستعباً بأسر نوميدي عرف بإخلاصه تجاه الرومان ؟ لم يذكر المؤرخ صلتوس شيئاً من ذلك إلا أنه من العسير علينا فهم سياسة بكتوس ومواقفه إذا لم نفترض قلنا وحيرة في نفس القيب

نتيجة وعود الأمير أسير بالمعسكر المودري . وقد لا يفهم سيلاً موقف ملك يريد التفاوض والتعاون مع الرومان في حين أن معسكره يأوي رُسلأ أرفدهم بوغرطة أكبر أعداء الرومان وقتل . تلك افتراضات تساعد على فهم ما جاء في رواية صلتوس . وإن تبد لنا الأحداث في هاته الرواية عسيرة الفهم فذلك لأنه لم يهيب في سرده وشرحها بل كان يقتصر على ذكر أهمها في رأيهِ .

اتصل الأمير دبارُ بـ سيلاً إذن وشرح له موقف بكتوس وأثبت أن وعود مبعوث بوغرطة قد يساعدهم على مغالطة النوميديين إذ قد يخيل لهم أن بكتوس يقوم بدور الوسيط بينهم وبين الرومان قصد الوصول إلى حل سلمي يضمن مصالح الرومان ويفسح حقوق بوغرطة .

وقد يكون بكتوس أيضاً عديم الاطمئنان إلى المهود الرومانية ولعلّه كان يخوف عدم الوصول إلى نتيجة مرضية بالتفاوض مع الرومان أو لعلّه كان يخشى أن لا تقبل السلطات الرومانية مبدأ التفاوض معه وقد تكون هذه التخوفات الشرعية عاملاً يبعث على التروي حتى لا يمضي القطيعة مع ملك لوميديين قبل التثبت من موقف لرومان تجاهه .

ترونا كيب كانت سياسة بكتوس عويصة متشعبة أراد لعب على حبلين في ظروف خطيرة . ولنا أيسر باستعداد

الرومان للتفاوض معه بادر بشرح موقفه المتنوي شرحاً جريئاً  
وقلنا جزئياً لأنه لم يقل لهم إنه أبى إمضاء القطيعة مع  
يوعرطة حتى يكون قادراً على مجابهة الطواري . وأجاب سيلاً  
أنه لا يرى حرجاً والأمر كذلك في وجود أسير وحضوره بعض  
الجنسات . على أنه أعرب عن رغبته في مقابلة بكتوس رأساً  
لرأس حتى تطرح المشاكل السياسية والعسكرية بصراحة  
ووضوح . وفيما يتعلق بالجلسة الأولى وهي التي سيحضرها  
مبعوث يوغرطة فقد أشار النقيب بالجواب الذي يمكن لبكتوس  
أن يسلي به حتى يكون التخلص من عون الملك التوميدي .  
ولما كان مترعاً للمقابلة الأولى أقبل سيلاً على بكتوس  
وأعلن أنه مبعوث من طرف القائد ماريوس بطلع عن  
نوايا الملك الماوري ولتعرّف على موقفه إزاء الحرب والسلام .  
وأجاب بكتوس وثقاً لما قد أشار به سيلاً . حيث أفشى  
أنه لما يستقر أمره في هذا الشأن وطلب من سيلاً أن يعود  
إليه بعد عشرة أيام وعندها قد يعطيه الجواب الصريح .  
وانتهت المقابلة بذلك وعاد سيلاً وبكتوس كل إلى  
معسكره . ولما كان الظلام ومضى مريع من الليل أرسل  
بكتوس خفية إلى سيلاً يدعوه . وكانت بينهما مقابلة لم  
يحضرها إلا مترجمون مخلصون كما حضرها الأمير التوميدي  
دباراً وقد كان يتمتع بثقة الرومان وثقة الملك الماوري .

وبادر بكتوس بالكلام متوجهاً إلى سيلاً يعرب عن صداقته  
وإخلاصه نحوه قائلاً: إنه يشعر بنحوه ولعله يشير هنا  
إلى الظروف التي عاشها الوفد الماوري في معسكر النقيب  
لروماني غداة سقوطهم بين أيدي قطاع الطريق وكانوا  
يتمنون كما أسلفنا إلى بني جدالة . أقبلوا عليه في حالة  
يرثي لها فأكرمهم وأحسن مثوانهم وساعدهم على الاتصال بانقائد  
الروماني . ثم أشار بكتوس أنه لن يخل بشيء عليه مهما  
كان بل يضع كل ماله من مال ورجال وأسلحة تحت  
تصرفه ثم تخلص إلى القصيدة الأساسية وهي التفاوض مع  
الجمهورية الرومانية وعقد سلم معها . فقال إنه لم يقصد  
التيه في الحرب ضد الجيوش الرومانية وغاية ما قام به  
هو الدفاع عن حدود مملكته . وفي الدفاع عنها لم يتردد في  
حمل سلاح مهما كانت الظروف . وأضاف أنه ينشئ  
عن هذه السياسة الدفاعية إن كانت تلك رغبة الرومان . ولم  
أن يقاتلوا يوغرطة ويطاردوه حسب مشيئتهم ووعد أنه  
سوف لن يتجاوز في المستقبل نهر الملوبة وهو الفاصل بينه  
وبين المملكة التوميدي منذ عهد ميسيبا (Micipsa) .  
واتجه مرة أخرى إلى سيلاً وقال إنه طوع أمره وسوف  
لن يتردد في إنجاز ما يمليه عليه واجبه إزاء الرومان .  
ثم أخذ النقيب سيلاً الكلمة وتوجه إلى بكتوس

عبارات الشكر لما لمس فيه من صداقة وعمة ثم تخلص بشرح المهمة التي أبطت بعهدته ومضمونها عقد لسم ووحيد حل مناسب الملك الماوري ويتمشى والمصالح الرومانية . وأوصح سيلاً بكل صراحة أن الوعد الذي يلتزم بها الملك لانكفي الرومان مؤونة ولا ترى فيها السلطات الرومانية ما تدعرب عن الامسان بمن واجهه (أي من واجب بكتوس) أن يقوم بعمل يبرز إخلاصه للرومان وتغنيه لمصالحهم . وأضاف أن روما لاتعتبر أية قيمة لأعمال تولد عن وطء الطرور ولن ترى فيها الكفاية لربط علاقات ودية مع ملك بني ماور . ثم استطرد سيلاً قائلاً إن الجمهورية لرومانية تؤد أن يقوم بكتوس بعمل يثبت صدق طوبته تجاه الرومان وأكد أنها لاتطالبه بما لاطاقة له به إذ هي لاتطالبه بشئ سوى مساعدتها على الإطاحة ببوغرطة وذلك بالقص عليه وتليمه إلى القيادة الرومانية . فالأمر يسير وبه يتحصل بكتوس على صداقة الرومان . بل ويتحالفون معه ويمنحونه نسطاً وافراً من المملكة المومبيدية

ويدعو على حد قول صلتوس أن الملك الماوري رفض في البداية ذلك الاقتراح الخطير مشيراً إلى الروابط العائنية ومعهدهات التي تربطه ببوغرطة . كما أشار إلى النتائج الوخيمة التي قد تجر عن اقترانه الحياة حيث أن لبوغرطة أنصاراً

في القبائل الماورية نفسها . وأبصاره يضمرون الغضب للرومان فهو أي بكتوس يخاف أن تتمرد عليه القبائل ونشق عصا الطاعة إذا ما شعرت بالخيانة امينة وعلمت أن بكتوس يبدأ في تدبير المكيدة وهو الذي سلمه لأعدائه وأعدائهم .

على أن سيلاً عمد إلى إقناع الملك مستخدماً كل ما أوتي من قوة إعراء وحلق سياسي وألح حتى حملة على الموافقة . ذلك ما أورده صلتوس في الفقرة الخادية عشر والمائة من كتابه . وليس من اليسير علينا أن نفرق بين الأحداث لتاريخية والأحداث التي هي من وضع المؤرخين . على كل فقد وقع الاتفاق في شأن بوغرطة والإطاحة به . وكانت لطريقة المرسومة لإيضاحه في الفتح تتضمن إشعاره كذباً بأن الرومان قبلوا مساً التفاوض معه وله أن يشارك في المحادثات الحرة بين سيلاً وبكتوس . والمعروف أن بوغرطة كان يرغب في عقد السلم والتفاوض . ثم كذلك سمح الأحبولة بين سيلاً وبكتوس واتجه كل إلى نسطاطه ريثما يحين وقت العمل .

وفي اليوم التالي دعا بكتوس أستر معوث بوغرطة . ولما دخل صبه تحدث له عن شؤون الحرب قائلاً إنه اتصل بالقبيل سيلاً عن طريق الأمير دبار وعلم أن الرومان لا يرفضون مبدأ التفاوض بوضع حد للحرب إذا توقرت

بعض الشروط . ثم طلب منه أن يلتحق بالملك يوغرطة قصد التشاور معه والاطلاع على نواياه في هذا الشأن . فاستشر ألبتر وركب في الحال جواده متجهاً نحو معسكر يوغرطة . ولم تمض إلا ثمانية أيام حتى رجع إلى الديار الماررية وأشمر بكتوس باستعداد يوغرطة لقبول ما قد يشترطه لرومان . عن أنه لا يطمئن لماريوس . وذكر أنه أرم أكثر من معدة مع القيادة الرومانية قبل حلول مار يوس بإفريقية . أبرمها قصد الوصول إلى حل سلمي لكنها معاهدات نقت جميعها حبراً على ورق . ذكر يوغرطة بهذه التفاصيل كي لا يفتّر بكتوس بعود سلاً ولا يمضي معاهدة إلا إذا تحصل على ضمانات ملموسة . يمكن الوثوق بها ولئن أصعب يوغرطة في التذكير ببعض الأحداث فذلك يبي بانحداعه لبكتوس . فلم يكن الملك الوميدي ليتوقع أحبولة يعدّها صهره للإطاحة به . على كل فقد أعرب يوغرطة عن استعداده لقبول مبدأ التفاوض مع الرومان لكنه كان يؤمن مسبقاً أنهم سوف لا يحترمون وعودهم ولا يطبقون أمراً من مهادنتهم . ثم أعرب يوغرطة عن ارتياحه للدور الذي يقوم به حليفه قصد الوصول إلى سلم حقيقية غير أنه أضاف على حد قول صلّوست أنه لا يمكن الوصول إلى سلم حقيقية إلا بالتقص على سلاً وأشار أنه في إمكان

بكتوس عقد جلسة يلتقي فيها الأعراف المعنية بالأمر وبذلك يكون سلاً في قبضته . وبسقوط سلاً في قبضة يوغرطة تكون السلطات الرومانية مجبورة على التفاوض ووضع حدّ لسياستها التوسعية . بل قد نواها تضحي بسياستها قصد الإفراج على رجل سقط في قبضة العدو من جراء حبه وتقانيه لروما . تلك هي النظرية التي نسبها صلّوست للملك يوغرطة . وردت تفاصيلها في الفقرة الثانية عشر والمائة من الكتاب الآنف الذكر . على أنها تبدو لنا من وضع المؤرخ . وليس لسياسة كالتي تستهدف القبض على سلاً لتسفر عن سلم حقيقية والمعلوم أنّ يوغرطة كان شاعراً بانقياد قواه شعوراً كاملاً حتى أصبح يفتش عن الطرق الدافعة إلى السلم مهما كانت الشروط نحن لانشك في صلق يوغرطة فيما يتعلق برغبته في التفاوض لكنه يثق لنا أن نعتبر منسبه إليه صلّوست في شأن سلاً من باب الخيال ولا علاقة له بالواقع التاريخي . وما كان صلّوست لينتد في الانحراف عن الحقيقة التاريخية لإكساء الأحداث حلة أدبية حسب ما . يتطلبه الأسلوب القصصي وطبقاً لصوره وأهداف رسمها المؤرخ مستقاً . فقد يدخل على الأحداث والطروف ما لا يستريحه الواقع التاريخي كي تكون الصورة التي يريدنا كي يدرك الأهداف التي يتوق إليها مهما ابتعدت عن التاريخ .

ولكن ملتفتاً الأحداث كما أوردده صلّوست حيث يقول إنّ بكتّوس بعد تردّد طويل قبل اقتراح صهره وهنا يتساءل المؤرّخ الناقد حول ذلك التردّد وقد لا يدري هل كان تردّد بكتّوس حقيقياً أم نرى كان يتظاهر بالتردد، ثمّ يعلّق صلّوست أنّ بكتّوس لا يعرف الاستقرار ولا يستقرّ له أمرٌ حتى كنت تراه يتخبّط في المتناقضات الفادحة . رآه يوافق على شيء بكل حماسٍ ويعمل ما يناقسه . بهذا بكتّوس يستغلّ سِلَاً تارةً ويستغلّ أسيراً طوراً ، ويعرب لكلّيهما عن حسن استعداده وإنخلاصه حتى كان سِلَاً يعتقد أنّه سيتمكن من القصر على بوغرطة وكان أسيراً يؤمن أن سِلَاً سيق في لفتح عن قريب. ذلك ، على كلّ ، ما يدّعيه صلّوست في الفقرة الثالثة عشر والمائة من كتابه المعروف ويصعب المؤرّخ الروماني أن كلّاً من أسيرٍ وسِلَاً كان يتقد غطة وفي الليلة التي سفت اليوم الموعود استحصّر بكتّوس ذويه وأتاربه علّه كان ينبغي إطلاعهم على ما استقرّ أمره عليه لكنّه أحجم وأشار أن ينصرفوا . ويثبت صلّوست أنّ الملك الماوري كان يتخبّط إذ دأب بين خواطر متشعبة متناقضة بين كان لعبةً تتقاذفها تلك الخواطر وكان أثر ذلك منعكساً على مجيئه .

#### • الخديعة الشعاء ولهابة بوغرطة :

وبعد أخذٍ ورَدٍّ أرسل بكتّوس إلى القيب لروماني يستقدمه والتقى معه حول لظروف التي يقع فيها القبض على بوغرطة . واستقرّ الأمر على أن ينصب كمين في طريق الملك النوميدي حتى يسقط في قبضة سِلَاً من حيث لا يدري، وكان اليوم المشؤوم وأقبل بعضهم على بكتّوس يحيطونه علماً بافتراء بوغرطة وركبه فخرج الملك الماوري صحبة ثلّة من المقرّبين ومن بينهم سِلَاً وكأنتهم أتوا جميعاً يستقبلونه بكلّ خفاوة وإجلالٍ واتّجه بكتّوس وصحبه نحو هضبة بالقرب من الذين اختصوا بأمر من بكتّوس نفسه حتى يتمكنوا عدد الألوان من الارتقاء على بوغرطة وركبه فجأةً. واتّجه الملك النوميدي نحو الهضبة نفسها صحبة عدد كبير من المقرّبين عنده كلّهم عزل حسب لاتفاق . كانوا يقربون من الهضبة فإذا بفسرٍ من الخنود يحملون عليهم من كلّ صوبٍ وقتلوا كل الذين كانوا صحبة الملك لنوميدي . أمّا بوغرطة فقد غلّوه وسلّموه إلى لقيب الروماني فأثنى به ثوباً إلى القائد ماريوس ، وبالقبض على بوغرطة كانت نهاية الحرب. ويسرّ بها ما قد يفتخر به الرومان لأنهم لم يتغلّبوا على عدوّهم الإفريقي إلاّ عن طريق الحيل والخيانة وهي أساليب تأبأها المروءة وتآبأها لشهامة .

ولعلّ بعض المؤرخين الرومان قد شعروا بدناءة الأسلوب فحاولوا تخفيف الوطأة مدّعين أنّ الملك الترميدي كان هو الآخر يريد التغلب بنفس الأساليب . أراد يوغرطة حسب هؤلاء المؤرخين حفر جبّ لسيلا فوق فيه إلاّ أنّها في رأينا دعابة لاعلاقة لها بالواقع التاريخي بل وضمها الرومان تبريراً لموقفهم الرذيل .

سقط يوغرطة وكان ضحية خيانة كبرى في صائفة سنة 105 قبل ميلاد عيسى . وتسلمه القائد ماريوس وبذلك وضعت حرب يوغرطة أوزارها على حدّ قول المؤرخين القدماء . ربما يثير الاستغراب أنّهم لم يتعرضوا إلى أصداء ذلك الحدث الخطير بين القبائل الإفريقية . كيف قلّقى النوميديون خبر سقوط ملكهم ؟ هل استسلموا إلى الأمر المقضي ؟ هل حاولوا مجابهة الوضع ؟ لاشكّ أنّ أنصار يوغرطة قد تألموا من صاعقة ذلك الخبر الذي فاجأهم . فكيف كان ردّ فعلهم ؟

كلّها أسئلة لم تجب عنها المصادر القديمة . على أنّ ماريوس لم يأخذ طريق العودة إلى روما غداة سقوط يوغرطة بل مكث بإفريقية إلى منتهى سنة 105 قبل المسيح . أي ما يقرب من أربعة أشهر . ويقول ستيبان اقرال إنّ ماريوس بقي بإفريقية لتصفية الوضع بالمملكة الترميدية . ولا شكّ أنّه قضى غالب تلك المدة في مجابهة القبائل النوميديّة

المناصرة ليوغرطة . لكننا لا نستطيع الحديث حول تلك الأحداث نظراً لصمت المؤرخين عنها . ولا نعلم بكلّ دقّة هل كان ذلك الصمت من باب الصدق التاريخية كضياح المصاحف التي تناولت تلك الفترة بالبحث أم هو صمت مقصود حيث كان المؤرخ الروماني الملتزم يكره الحديث حول مثل تلك المواضيع حتّى يذهب في اعتقاد القارئ أنّ يوغرطة لم يكن محبوباً بين ذويه .

فقد يخيل إلينا إذن أنّ الحرب انتهت بسقوط يوغرطة . وهذا أمر لا يؤمن به وإن لم تكن لنا وثائق دامغة تثبت عكسه . على كلّ فقد رجع ماريوس إلى روما بجيشه مظفراً وإن لم تكن طريقة القبض على الملك النوميدي ندعو إلى التفاخر والتباهي . فهو عمل بل فعلة وليدة الخبيث والخديعة وليست وليدة الحق والشجاعة . كلّ ذلك لم يمنع القائد ماريوس من الاحتفال بانتصاره حيث طاف بشوارع روما على رأس مركب رهيب في غرة جانفي 104 قبل الميلاد . وكان استعراض الغنيمة التي أتى بها ماريوس من إفريقية ، منها نقود وسبائك من ذهب وفضة . فكميّة الذهب كان وزنها 3007 رطل وأما سبائك الفضة فوزنها 5775 رطل وكانت النقود دراهم فضيّة يبلغ عددها 17028 . لقد أورد هذه الأرقام اليوناني بلوطارقي «Plutarque» كان ماريوس يتقدّم المركب على عجلته وكان يوغرطة راجلاً



أمام العجلة وحوله اثنان من أبنائه . ولما انتهى الحفل زُجَّ بيوغرطة في سجن يعرف باسم التُلْيَانُوم «Tullianum» وكان يوجد تحت معبد الكبتول (112) بروما . ويذكر بعض المؤرخين أنَّ بيوغرطة جنَّ تحت وطأة الظروف ويذكر التاريخ أنَّ الذين كلّفهم ماريوس بإلقائه في السجن أخذوا منه مئزره بل وقطعوا أذنه ليأخذوا قرطه ودفعوه في ظلام السجن عارياً حتى كان يرتعد من البرد فقال : « بحق هرقل ما أبرد بيت الاستحمام عندكم ! » وبقي ستة أيام يتصارع مع الجوع ثم أمر القائد ماريوس بإعدامه خنقاً . كذلك انتهت إحدى الملاحم التي عاشتها بلادنا في سبيل الحرية . وكذلك كانت نهاية رجل وعى القضية الافريقية وعياً كاملاً جعله رغم تشبّعه بالحضارة الرومانية يقف في وجه روما وجبروتها . وقد أيقن أنَّ الرومان أتوا افريقية لا لهدف سوى التسلط عليها سياسياً وعسكرياً حتى تكون لهم عيناً تغدق عليهم بخيراتها . لقد اتوا لبيتروا ماتحتويه من وسائل العيش والثراء . وعي بيوغرطة القضية الافريقية وعياً كاملاً ففاضل في سبيلها حتى تغلّبت عليه روما بالخبث والخيانة وذهب ضحية مشاعره النبيلة وحبّه للوطن ، لكنه بقي رمزاً للنضال والتضحية في سبيل الحرية والكرامة .

(112) الكبتول هو معبد خاص بعبادة جبتار «Jupiter» ويونون Junon (وهي زوجة جبتار) ومينرفة Minerve ابنة جبتار . ويتمتع هذا الثلاث الروماني بالمرتبة الاولى في مجمع آلهة روما .

5	الإهداء.....
7	المقدمة.....
11	التمهيد.....
27	الباب الاول : مستنيسا : نشأته وأوصافه.....
41	الباب الثاني : مستنيسا الأمير.....
43	- مستنيسا في شبه جزيرة الإيبار.....
50	- مستنيسا يتصل بالقيادة الرومانية.....
52	- مستنيسا يعود إلى إفريقية.....
56	- شبيون بإفريقية.....
67	الباب الثالث : مستنيسا والعرش النوميدي.....
68	- سقوط سيفاكس.....
70	- صفونزبه.....
76	- واقعة زامة.....
81	الباب الرابع : مستنيسا الملك.....
83	- سياسته الاقتصادية.....
89	- سياسته تجاه قرطاج والحضارة البونيقية.....
96	- مستنيسا والبلاد اليونانية.....
101	- مستنيسا والبلاد النوميديية.....
107	الباب الخامس : يوغرطة : طفولته وشبابه.....
109	- موت مستنيسا.....
112	- يوغرطه.....
115	- طفولة يوغرطة وشبابه.....
124	- خلافة ميسيسا.....
131	الباب السادس : سياسة التحرير.....

- 146 - تقسيم المملكة النوميديّة بين يوغرطة وأدربعل ...
- 159 الباب السابع : نشوب الحرب بين يوغرطة وروما .....
- 161 - نتيجة مقتل أدربعل .....
- 164 - يوغرطة والقائد بستياً .....
- 173 الباب الثامن : يوغرطة وملتوس .....
- 178 - زحف ملتوس على المملكة النوميديّة .....
- 181 - معركة نهر المثل .....
- 184 - معركة زامة .....
- 198 - مؤامرة باجة .....
- 205 - معركة قالة .....
- 217 - يوغرطة وبكوس ملك بني ماور .....
- 222 - ماريوس .....
- 227 الباب التاسع : يوغرطة وماريوس .....
- 229 - القنصل ماريوس .....
- 235 - معركة قفصة .....
- 244 - قلعة نهر الملوية .....
- 253 - يوغرطة وبكوس يهاجمان ماريوس .....
- 265 الباب العاشر : خيانة بكوس .....
- 267 - سلا ومنليوس يتصلان بملك بني ماور .....
- 273 - وفد ماوري يتصل بماريوس .....
- 276 - ماريوس يجتمع بالوفد الماوري .....
- 277 - رسل باكوس يلتحقون بروما .....
- 297 - الخديعة الشنعاء ونهاية يوغرطة .....